

تحرير التحرير في صناعة الشعر والنثر ابن أبي الأصبع

To PDF: <http://www.al-mostafa.com>

بسم الله الرحمن الرحيم, رب يسر

المقدمة

قال العبد الفقير إلى ربه، المستغفر من ذنبه، عبد العظيم بن عبد الواحد بن ظافر بن عبد الله بن أبي الإصبع عفا الله عنه: الحمد لله حمداً يستعذب الحامد مساعه، وصلى الله على من كانت أعظم آياته البلاغة وعلى آله وصحبه مازان حلى الكلام من صيغ له ومن صاعه. وبعد، فإني رأيت ألقاب محاسن الكلام التي نعتت بالبديع قد انتهت إلى عدد منه أصول وفروع: فأصوله، ما أشار إليها ابن المعتز في بديعه وقدامة في نقده، لأنهما أول من عني بتأليف ذلك. أما ابن المعتز فهو الذي سماه البديع، واقتصر في كتابه بهذه التسمية على خمسة أبواب، وهي: الاستعارة منفرداً بها، على أن قدامة ذكر الاستعارة ولم ييوب عنها في المحاسن، وإنما جاء بها في ذكر المعازلة من العيوب، وزعم أن المعازلة ما استبشع من الاستعارة، فاقتضى كلامه أن من الاستعارة قبيحاً وحسناً، فحسنها من المحاسن، وقبيحها من العيوب، ولم يذكرها في المحاسن، وابن المعتز ذكرها والتجنيس، والطباق متوارداً عن قدامة عليهما، ورد الأعجاز على الصدور منفرداً به، وختما بخامس عزا تسميته إلى الجاحظ، وهو المذهب الكلامي منفرداً به، وإن كان ما قبله من الأسماء الأربعة قد سبقت العرب إلى وضعها، وربما سبق ابن المعتز إلى نقلها وعدها. وقال ابن المعتز في صدر كتابه: وما جمع قبلي فنون البديع أحد ولا سبقني إلى تأليفه مؤلف، وألفته سنة أربع وسبعين ومائتين وأول من نسخه مني علي بن يحيى بن منصور المنجم، ثم قال بعد سياقه الأبواب الخمسة: ونحن الآن نذكر محاسن الكلام والشعر وإن كانت محاسنهما كثيرة لا ينبغي للعاقل العالم أن يدعي الإحاطة بها حتى يتبرأ من شرود بعضها عن علمه، وأحبينا بذلك أن نكثر فوائد كتابنا للمتأدبين ويعلم الناظر فيه أننا قد اقتصرنا بالبديع على الفنون الخمسة اختياريّاً من غير جهل بالطريقة، ولا ضيق في المعرفة، فمن أحب أن يقتدي بنا ويقتصر على تلك الخمسة بالبديع فليفعل، ومن أضاف من هذه المحاسن أو غيرها شيئاً إلى البديع وارتأى غير رأينا فله اختياره، وهذا حين ذكر الماسن ثم ذكر الالتفات، وقد توارد عليه هو وقدامة، وذكر اعتراض كلام في كلام لم يتم معناه، ثم يعود المتكلم فيتمه في بيت واحد أو جملة واحدة، وهذا الباب سماه قدامة التمام وسماه الحاتمي في الحلية التتميم. وهو مما توارد عليه قدامة، وابن المعتز، ثم ذكر من المحاسن الخروج من معنى إلى معنى، وهو الذي سماه الحاتمي الاستطراد، ناقلاً

تسميته لا مخترعاً وهو من أفراد ابن المعتز، ثم ذكر تأكيد المدح بما يشبه الذم منفرداً به وذكر تجاهل العارف، وهو الذي سماه المتأخرون الإعنات والتشكيك وهذه التسمية غير مطابقة من كل وجه، والتشكيك باب مفرد بينه وبين تجاهل العارف فرق سيأتي في موضعه إن شاء الله تعالى، وهو من أفراد ابن المعتز، ثم ذكر الهزل الذي يراد به الجذد منفرداً به، وذكر حسن التضمين منفرداً به، وذكر الكناية منفرداً بها، وذكر الإفراط في الصفة متوارداً عليها مع قدامة، وسماها قدامة المبالغة، وذكر التشبيه متوارداً هو وقدامة عليه، وذكر عتاب المرء نفسه منفرداً به، وذكر حسن الابتداءات، منفرداً به، وسماه من بعده براعة الاستهلال على اختلاف في شواهد، فهذه اثنا عشر باباً من المحاسن تضاف إلى أبواب البديع الخمسة فيصير بها ما اخترع ابن المعتز جميعه من ذلك سبعة عشر باباً.

وأما قدامة فضمن كتابه الموسوم بنقد الشعر عشرين باباً، وهي: التشبيه والتمام، والمبالغة، والطباق، الجناس متوارداً هو وابن المعتز عليهن جميعاً، وبقية العشرين مما انفرد به قدامة، وهي: التكافؤ، وإن كان هذا الباب تداخل على قدامة في باب الطباق، وسأبين ذلك في موضعه، وصحة الأقسام، وصحة المقابلات، وصحة التفسير، وائتلاف اللفظ مع المعنى، وهو باب فرع منه قدامة ستة أبواب، وهي المساواة، والإشارة، والإرداف، والتمثيل، ثم فرع من باب ائتلاف اللفظ مع المعنى أيضاً: الطباق، والجناس، وقد مضى ذكر توارده مع ابن المعتز عليهما، وذكر ائتلاف اللفظ مع الوزن، وائتلاف المعنى مع الوزن، وقد جعل المتأخرون هذين البابين باباً واحداً، وسموه والتهديب والتأديب. لكن قدامة خص بهما الشعر، ومن سماهما تهذيباً وتأديباً لا يخص بهما الشعر دون النثر، ولا النثر دون الشعر، بشرط أن يعم بالتسمية فيقول: ائتلاف اللفظ مع المعنى مطلقاً، من غير أن يذكر الوزن وائتلاف القافية مع ما يدل عليه سائر البيت وقد سماه من بعده التمكين وخص به الشعر أيضاً وهو لا يخصه وفرع قدامة من هذا الباب بأبي التوشيح والإيغال فهذه ثلاثة عشر باباً صحت لقدامة منفرداً بها، بعد إسقاط ما تداخل عليه، وهو التكافؤ، وإذا أضيفت إلى ما قدمه ابن المعتز من البديع وأضافه إليه من المحاسن صارت عدة الأصول من كتابيهما بعد حذف ما توارداً عليه ثلاثين باباً سليمة من التداخل، وهذه أصول ما ساقه الناس في كتبهم من البديع إلى هلم جرا، ثم اقتدى الناس بابن المعتز في قوله: فمن أحب أن يضيف شيئاً من هذه المحاسن أو غيرها إلى البديع فليجعل فأضاف الناس المحاسن إلى البديع، وفرعوا من الجميع أبواباً أخرى، وركبوا منها تراكيب شتى، واستنبطوا غيرها بالاستقراء من الكلام والشعر حتى كثرت الفوائد، ورأوا ابن المعتز قد غلب اسم البديع على اسم المحاسن فسمى كتابه البديع وهو جامع لهما معاً فاقتدوا به، لأنه المخترع الأول للتصنيف، فسمى كل من وضع كتاباً في ذلك باسم إما مصرح بالبديع أو راجع معناه إليه،

وكذلك فعل كل من عرف نوعاً منه عند سؤاله عنه، فإنه يقول: هذا الضرب الفلاني من البديع إلا من ألف في مجموع البلاغة، أو تعرف كنه الفصاحة، أو في النقد كتاباً، فإن له أن يسميه ما شاء، ولقد وقفت من هذا العلم على أربعين كتاباً منها ما هو منفرد به، وما هذا العلم أو بعضه داخل في بعضه كنفدي قدامة وبديع ابن المعتز، وحملة المحاضرة وكشفت عن الحالي والعاقل الذي ذكره الحاتمي في الحلية فلم أجد من يعترف بوقوفه عليه سوى ابن منقذ في بديعه، وكالصناعتين للعسكري، والعمدة لابن رشيقي، وتزييف نقد قدامة له، ورسالة ابن بشر الأمدي التي رد بها على قدامة، وكشف الظلامة للموفق البغدادي، والنكت في الإعجاز للرماني، والجامع الكبير في التفسير له، والتعريف والإعلام للسهيلي، ودرة الترتيل وغرة التأويل للخطيب. وأعجاز القرآن للبالقداني، والكشاف للزمخشري، وإعجاز الجرجاني المسمى بدلائل الإعجاز، وأسرار البلاغة له، ونظم القرآن للجاحظ، والبيان والتبيين له، وإعجاز ابن الخطيب، ورسالة الصولي التي قدمها على شعر أبي نواس، ورسالته في أخبار أبي تمام، ورسالة ابن أفلح، وشروح أبي العلاء الثلاثة، وهي: ذكرى حبيب، وعبث الوليد، ومعجز أحمد، والمنصف لابن وكيع، والموازنة، للآمدي، والوساطة للجرجاني، والغرر والدرر للمرتضى، وكتاب الصرف له، والجاز لأخيه الرضى، وشرح حديث أم زرع للقاضي عياض رحمه الله وما لخصه في آخره من بديع الحديث، والحديقة للحجاري براء مهملة صاحب المسهب في أخبار أهل المغرب، وبديع التبريزي، وسر الفصاحة لابن سنان الخفاجي والمثل السائر لابن الأثير الجزري، والإقناع للصاحب ابن عباد، وبديع أبي إسحاق الأجدابي، وبديع شرف الدين التيفاشي، وهو آخر من ألف فيه تأليفاً في غالب ظني، وجمع ما لم يجمعه غيره لولا مواضع نقلها كما وجدها ولم ينعم النظر فيها، وبعض الأبواب التي تداخلت عليه. وإذا وصلت إلى بديع ابن منقذ وصلت إلى الخبط والفساد العظيم، والجمع من أشتات الخطأ وأنواعه من التوارد والتداخل، وضم غير البديع والمحاسن إلى البديع، كأنواع من العيوب، وأصناف من السرقات، ومخالفة الشواهد للتراجم، وفنون من الزلل والخلل يعرف صحتها من وقف على كتابه، وأنعم النظر فيه، لا جرم أني لم أعتد بكتابه في عدة ما وقفت عليه من ذلك، وإن كنت قلما رأيت منها كتاباً خلا عن موضع نقد، بحسب منزلة واضعه من العلم والدراية، فمن قليل ومن كثير، وكل أحد مأخوذ من قوله ومتروك إلا من عصمة الله من أنبيائه، صلوات الله عليهم وسلامه والسعيد من عدت سقطاته، "وما أبرئ نفسي" ولا أدعي سلامة وضعي دون أبناء جنسي، غير أني توخيت تحرير ما جمعته من هذه الكتب جهدي، ودققت النظر حسب طاقتي، فتحرست من التوارد، وتجنبنت التداخل، ونقحت ما يجب تنقيحه، وصححت ما قدرت على تصحيحه، ووضعت كل شاهد في موضعه، وربما أبقيت اسم الباب وغيرت مسماه إذ رأيت اسمه لا يدل على معناه، إلى أن جمعت جميع ما في هذه الكتب من الأبواب

على ما قدمت من الشرائط، فكان ما جمعته من ذلك ستين باباً فروعاً بعد ما قدمته من الأصول، وهي: الاحتراس، والمواربة براء مهملة، والترديد، والتعطف، والتفويف، والتسهيم، والتورية، والتوشيح، والاستخدام، والتغاير، والطاعة والعصيان، والتسميط، والمماثلة، والتجزئة، والتسجيع، والترصيع، والتصريح، والتشطير، والتعليل، والتطريز، والتوشيح، والاشترار، والتلفيف، والعكس، والإغراق، والغلو، والقسم، والاستثناء والاستدراك، وجمع المختلفة والمؤتلفة، والتوهيم، والاستطراد، والتكميل، والمناسبة، والتفريع، والتكرار، ونفي الشيء بإيجابه، والإيداع، والاستعانة والموازنة بزاي معجمة، والتذليل، والمشاكلة، والمواردة، والتهذيب، وحسن النسق، وبراعة التخلص، والانسجام، والحل، والعقد، والتعليق، والإدماج والأزدواج، والاتساع، والمجاز، والإيجاز، وسلامة الاختراع من الاتباع، وحسن الإتياع، وحسن البيان، والتوليد، والتنكيت، والاتفاق، والإغراب، والطفرة.

وأضفت هذه الأبواب الفروع إلى تلك الثلاثين الأصول فصارت الفذلكة تسعين باباً، ورأيت الأجدابي قد ذكر من محاسن القافية أربعة أبواب منها بابان هما باب واحد سماهما بتسميتين غير مطابقتين لمعناهما، فجعلتهما باباً واحداً على حكم ما أخذت به نفسي من حذف المتداخل، وسميته الالتزام وعند ذكر شواهد يعلم مطابقة تسميته لسماه، وبابان معناهما حسن سمي أحدهما بتسمية أيضاً غير لائقة، فسميته تشابه الأطراف وسنين حسن هذه التسمية. وباب أيضاً سماه بما لا يوافق، فسميته التوأم فسلمت له ثلاثة أبواب عوضت بها ما تداخل في باب التهذيب من ائتلاف اللفظ مع الوزن، والمعنى مع الوزن، وما تداخل في باب التمكين من ائتلاف القافية مع ما يدل عليه سائر البيت لتصح العدة على شرط السلامة تسعين باباً كلها من المحاسن ليس فيها شيء من ضروب العيوب، وهي عند من لا يجعل التهذيب باباً واحداً، وليس ذلك بممتنع، ثلاثة وتسعون باباً ولما أمرني من لا محيد لي عن أمره، ولا محيص عن رسمه، سيد الفضلاء وقدوة البلغاء، وملجأ الأدباء، ومحط رحال الغرباء، وإمام الكرماء، القاضي الأجل الفضل شرف الدين أبي الحسن بن القاضي الأجل الفقيه الإمام الورع العدل الرضي جلال الدين المكرم أبي الحسن موسى بن الحسن بن سناء الملك: كامل

نسب كأن عليه من شمس الضحى نوراً ومن فلق الصباح عموداً

أمتعه الله بفضائله، كما أمتع الفضلاء بفواضله، ورحم سلفه، كما رحم به من عرفه، بجمع ما في كتب الناس من ذلك على سبيل الاختصار من الشواهد، وتجنب الإطالة بذكر كل الاشتقاق، إلا إيضاح مشكل، أو كشف غامض، أو زيادة بسط في الكلام، على أنه من كتاب الله تعالى، أو في بيت قد أهمل

تقصي الكلام عليه، بادرت إلى امتثال أمره، واستخرت الله سبحانه وتعالى حالة الشروع في مرسومه، وسألته الإعانة على بلوغ غرضه، والهداية إلى ما يترجح عنده.

ولما أخذت في ذلك عن لي استنباط أبواب تزيد بها الفوائد، ويكثر بها الإمتاع، نسجاً على منوال من تقدمني، واتباعاً لسنة من سبقني، ففتح علي من ذلك بثلاثين باباً، سليمة من التداخل والتوارد، لم أسبق في غلبة ظني إلى شيء منها، اللهم إلا أن يوجد في زوايا الكتب التي لم أقف على شيء مما اخترعته، فأكون أنا ومن سبقني إليه متواردين عليه، وما أظن ذلك، والله أعلم.

ولما انتهى استخراجي إلى هذا العدد، أمسكت عن الفكر في ذلك ليكون ما أتيت به وفق عدد الأصول من هذا الشأن، وهذا أوان سياقة أبوابي التي استنبطتها، وضروبي التي استخراجتها؛ وهي: التخيير، والتدبيح، والتمزيج والاستقصاء، والبسط، والهزاء في معرض المدح، والعنوان، والإيضاح والفرائد، والحيدة والانتقال، والشماتة، والتهكم، والتندير، والإسجال بعد المغالطة، والإلغاز والتعمية، والتصرف، والتزاهة، والتسليم، والافتنان، والمراجعة، والسلب والإيجاب، والإهام، والقول بالموجب، وحصر الجزئي وإحاقه بالكلي، والمقارنة، والمناقضة، والانفصال، والإبداع، وحسن الخاتمة، وألحقت ذلك بما تقدم من الأبواب، فصارت عدة أبواب هذا الكتاب مائة باب وثلاثة وعشرين باباً سوى إذا انشعب من أبواب الائتلاف من الجناس والطباق، والتصدير، ووسمته بتحرير التحبير، وبعض هذه الأبواب وهو الأقل يخص الشعر، وبقائها وهو الأكثر يعم الشعر والنثر، يعلم ذلك من تبحر في هذا الكتاب، فالذي يخص الموزون منها ثلاثة وعشرون باباً مراعاة لاشتراك القرآن العزيز مع النثر ودخوله في بابيه، ولانفراد الموزون المنثور من كلام المخلوقين فثلاثة عشر باباً لا غير، والله أعلم، وهي: المواربة براء مهملة، والتسميط، والتجزئة، والتسجيع، والترصيع، والتصريع، والتشطير، والتطير، والعكس، والإغراق، والغلو، والاستدراك، والاطراد، والتفريع والإيداع، والاستعانة، والموازنة، والمشاكله، والموارده من الفروع، ومن الأصول الهزل الذي يراد به الحد، وائتلاف اللفظ مع الوزن، وائتلاف المعنى مع الوزن، وبقاى الأبواب وهي مائة باب تعم الموزون والمنثور، وتوجد في الكتاب العزيز إلا الأقل لمن دقق النظر في الاستنباط والله سبحانه وتعالى المسئول في حسن التوفيق إلى التحقيق لنهتدي إلى سبيل الرشده ونهج الصواب وسعادة يرزق بها هذا التأليف حسن القبول من ذوي الألباب، إنه الكريم الوهاب، وهذا حين الشروع في تفصيل جملة الأبواب.

الجزء الاول

باب الاستعارة

حد الرماني الاستعارة بأن قال: هي تعليق العبارة على غير ما وضعت له في أصل اللغة على سبيل النقل. وقال ابن المعتز: هي استعارة الكلمة لشيء لم يعرف بها من شيء قد عرف بها وقال ابن الخطيب في إعجازه: الاستعارة ذكر الشيء باسم غيره وإثبات ما لغيره له للمبالغة في التشبيه. وقال أيضاً: الاستعارة جعل الشيء الشيء، أو جعل الشيء للشيء لأجل المبالغة في التشبيه. وقلت: هي تسمية المرجوح الخفي باسم الراجح الجلي للمبالغة في التشبيه، كقول الله تعالى "وإنه في أم الكتاب" وكقوله سبحانه: "واخفض لهما جناح الذل من الرحمة" وكقوله عز وجل: "واشتعل الرأس شيباً".

ولا بد في الاستعارة من اعتبار ثلاثة أشياء أصول: مستعار، ومستعار منه، ومستعار له. فالمستعار في الآية الأخيرة: الاشتعال، والمستعار منه: النار، والمستعار له: الشيب، والجامع بين المستعار منه والمستعار له مشاهدة ضوء النار لبياض الشيب، وفائدة ذلك وحكمته وصف ما هو أخفى بالتشبيه لما هو أظهر، وقد جاء الكلام في الاستعارة التي في الآية الأخيرة على غير وجهه، فإن وجه الكلام فيها أن يقال: واشتعل شيب الرأس، وإنما قلب لما يحصل في قلبه من المبالغة لكونه في حالة القلب يستفاد منه عموم الشيب لجميع الرأس، ولو جاء الكلام على وجهه لم يفد ذلك العموم، ومثال ذلك أنك لو قلت في مثاله اشتعلت النار في البيت: لصدق هذا القول على اشتعال النار في جانب واحد من البيت دون بقية جوانبه، وإذا قلت: اشتعل البيت ناراً أفاد هذا القول أن النار قد شملت جميع نواحي البيت وجهاته، وعلى هذا فاعتبر الاستعارة لتعلم أنها على قسمين: قسم يجيء الكلام فيه على وجهه فلا يفيد سوى إظهار الخفي فقط، أو المبالغة فحسب، وقسم يأتي الكلام فيه على غير وجهه فيفيد المعنيين معاً، وأحسنها ما قرب منها دون ما بعد ولم يسمع سامع في الاستعارة كقوله تعالى "والصبح إذا تنفس" فإن ظهور الأنوار في المشرق من أشعة الشمس قليلاً قليلاً بينه وبين إخراج النفس مشابهة شديدة.

وأجل الاستعارات الاستعارة المرشحة كقوله تعالى: "أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم" فإن الاستعارة الأولى وهي لفظة الشراء رشحت الثانية وهي لفظة الربح والتجارة للاستعارة.

والله أعلم.

ومن أمثلة الاستعارة في السنة النبوية قوله عليه السلام: "ضموا مواشيكم حتى تذهب فحمة العشاء" فاستعار صلى الله عليه وسلم للعشاء الفحمة لقصد حسن البيان، لأن الفحمة هاهنا أظهر للحس من الظلمة فإن الظلمة تدرك بحاسة البصر فقط والفحمة تدرك بحاسي البصر واللمس لأنها جسم والظلمة عرض فكان ذكرها أعني الفحمة أحسن بياناً من ذكر الظلمة. ومن أمثلة الاستعارة الشعرية قول امرئ القيس: طويل

وليل كموج البحر أرخى سدوله
علي بأنواع الهموم ليبتلي
فقلت له لما تمطى بصلبه
وأردف أعجازاً وناء بكلل

فإن هذا الشاعر استعار لظلمة الليل السدول المرخاة، لما بين المستعار والمستعار له من اجتماعهما في منع الأبصار من الإبصار، وفائدة هذه الاستعارة نقل الأخرى إلى الأظهر، لأن السدول يدرك بحاسي البصر واللمس، والظلمة تدرك بأحديهما دون الأخرى، ثم تم بكونه جعل السدول مرخاة لأن ذكرها بدون هذا القيد لا يوفي بالمعنى الذي قصده من منع رؤية ما وراءها، لاحتمال أن تكون مرفوعة، وكذلك قصد في البيت الثاني بقوله تمطى بصلبه... البيت فإنه أراد وصف الليل بالطول فاستعار له صلباً يتمطى به، إذ كان كل ذي صلب يزيد في طوله عند تمطيه شيء، وبالغ في طوله بأن جعل له أعجازاً يردف بعضها بعضاً، فهو كلما نفذ عجز ردفه عجز، فلا تفني أعجازه، ولا تنتهي إلى طرف، كما قيل في قوله تعالى "لا يثين فيها أحقاباً" قال قتادة: لا انقطاع لها، كلما مضى حقب جاء حقب بعده. وقال الحسن البصري: أما الأحقاب فليس لها عدد إلا الخلود، ثم أراد أن يصف الليل بعد نهاية الطول بالثقل على قلب ساهره، والضغط لمكابده، فاستعار له كلكلاً ينوء به، ولأجل هذه المعاني كانت الاستعارة أبلغ من الحقيقة والعدول إليها أولى لما تعطي من المعاني التي لا تحصل من لفظ الحقيقة. والاستعارة منها كثيف، وهو استعارة الأسماء للأسماء. وكل ما مر من الأمثلة غير الآية الأخيرة فهو شاهد لها.

ولطيف، وهو استعارة الأفعال للأسماء كقول الله تعالى: "فما بكت عليهم السماء والأرض" وكقول أبي تمام بسيط

من كل مكورة ذاب النعيم لها
ذوب الغمام فمنهل ومنسكب

باب التجنيس

حد الرماني التجنيس بأن قال: هو بيان المعاني بأنواع من الكلام يجمعها أصل واحد من اللغة، وجعله قسمين: جناس مزاجية، وجناس مناسبة، فالمزاجية كقوله تعالى: "فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم" وكقول عمرو بن كلثوم وافر:

ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

والمناسبة كقوله سبحانه: "يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار" وأما قدامة وابن المعتز وإن اختلفا في تسمية هذا الباب فقد اتفقا على معناه، فقال قدامة في حده: هو اشتراك المعاني في ألفاظ متجانسة على جهة الاشتقاق كقول زهير: بسيط

كأن عيني وقد سال السليل بهم وعبرة ما همو لو أنهم أمم

وهذا الحد بعينه هو تجنيس المناسبة الذي ذكره الرماني، ولولا قول قدامة على جهة الاشتقاق لكان حده بعينه هو حد الرماني المطلق. وقال ابن المعتز هو أن تجيء الكلمة مجانسة أختها كقول الله تعالى: "فأقم وجهك للدين القيم" وكقول النعمان بن بشير لمعاوية: طويل:

ألم تبتدركم يوم بدر سيفونا وليك عما ناب قومك نائم

وهذا بعينه هو تجنيس المناسبة من جهة الاشتقاق ولم يخرج من جاء بعد هؤلاء عما حدوه به، لكنهم فرعوه ثمانية فروع، وعلى هذا التفرع أكثر المتأخرين سوى التبريزي، فإنه نقص من هذه الأقسام أربعة وأثبت أربعة، وخلط في الشواهد، وغير الأسماء، هذا وإن كان متأخراً عن قسم التجنيس ثمانية أقسام، واخترع أسماءها، فإني لم أقف على صحة ذلك، ورأيت ابن منقذ قد أتى على الأقسام الثمانية، وفاته قسم تاسع أتى به التبريزي، وسنأتي به في موضعه.

فمن فروع التجنيس تجنيس التغاير، وهو أن تكون إحدى الكلمتين اسماً، والأخرى فعلاً، وهذا سماه التبريزي التجنيس المطلق، كقوله تعالى: "إني وجهت وجهي" وكقوله تعالى: "أناقلتم إلى الأرض أرضيتكم بالحياة الدنيا من الآخرة" وكقول الرسول عليه الصلاة والسلام: "عصية عصت الله ورسوله" و"غفار غفر الله لها" و"أسلم سالمها الله"، وكقول جرير وافر:

كأنك لم تسر ببلاد نجد ولم تنظر بناظرة الخياما

وقد فرع التبريزي من هذا القسم ضرباً سماه التجنيس المستوفي، وهو أن تتشابه الكلمتان لفظاً وخطاً، وإحداهما اسم والأخرى فعل، وأنشد فيه قول أبي تمام: كامل

ما مات من كرم الزمان فإنه

يحيا لدى يحيى بن عبد الله

وهذا الفرع وإن وضعت له تسمية تخالف تسميات الأقسام الثمانية، وكانت له صورة مثاله غير صور الأمثلة، فإنه داخل في القسم الذي إحدى كلمتيه اسم والأخرى فعل، فلذلك لم يعتد به قسماً مستقلاً. وتجنيس التماثل، وهو أن يكون الكلمتان اسمين أو فعلين، وهو على ضربين: ضرب تماثل فيه الكلمتان سواء كانتا اسمين أم فعلين في اللفظ والخط كقول الشاعر: خفيف:

عينه تقتل النفوس وفوه

منه تحيي عين الحياة النفوسا

وضرب لا تماثل فيه الكلمتان إلا من جهة الاشتقاق، سواء أكانتا اسمين أم فعلين، كقوله تعالى "فروح وريحان" وقوله سبحانه: "وجنى الجنتين دان" وكقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "الظلم ظلمات" وكقوله عليه السلام: "أسلم تسلم" وكقول البحري وافر:

نسيم الروض في ريح شمال

وصوب المزن في راح شمول

وهذان التجنيسان أعني التغاير والتماثل فرعان من التجنيس الذي أصله قدامة وابن المعتز، وباقي الثمانية استخرجها المتأخرون بالاستقراء، وهي تجنيس التصحيف، ولم يذكره التبريزي في أقسام التجنيس، وجعل التصحيف باباً مفرداً، تجنيس التصحيف وهو أن يكون النقط فارقاً بين الكلمتين كقوله تعالى: "وهم يحسبون أنهم يحسنون" وكقوله صلى الله عليه وسلم: "لعله كان يتكلم بما لا يعنيه ويتحلى بما لا يغنيه" وكقول البحري: طويل

ولم يكن المغتر بالله إذ سرى

ليعجز والمعتز بالله طالبه

وتجنيس التحريف، وهو أن يكون الشكل فارقاً بين الكلمتين أو بعضهما، وهذا أيضاً لم يذكره التبريزي، ومثاله قوله سبحانه: "إن ربهم بهم" وقوله تعالى: "ولكننا كنا مرسلين" وأما قوله سبحانه: "ولقد أرسلنا فيهم منذرين فانظر كيف كان عاقبة المنذرين" فهو الغاية التي لا تدرك وكقول الرسول صلى الله عليه وسلم: "الظلم ظلمات" وكقول أبي تمام: كامل

هن الحمام فإن كسرت عيافة

من حائهن فإنهن حمام

وهو ينقسم إلى ثلاثة أقسام: قسم تبدل فيه الحركة بالحركة وقسم تبدل فيه الحركة بالسكون، وقسم يبدل فيه التخفيف بالتشديد، مثال الأول قول الشاعر:

جبة البرد جنة البرد

والبرد والبرد أردت.

ومثال الثاني قولهم: البدعة شرك الشرك.

ومثال الثالث قولهم: الجاهل إما مفرط وإما مفرط والآيات الثلاث من القسم الأول، والحديث من الثاني، والبيت من الأول أيضاً.

وتجنيس التصريف مما لم يذكره التبريزي أيضاً، وهو اختلاف صيغة الكلمتين بإبدال حرف من حرف إما من مخرجه أو من قريب منه، كقوله تعالى: "وهم يnehون عنه وينأون عنه" وكقول الرسول عليه السلام "الخليل معقود بنواصيها الخير".
وكقول الشاعر: بسيط

لا يذكر الرمل إلا حن مغترب له بذوي الرمل أوطار وأوطان

وتجنيس الترجيع، وهو الذي سماه التبريزي التجنيس الناقص، وسماه قوم تجنيس التذييل، وهو على الحقيقة الذي يوجد في إحدى كلمتيه حرف لا يوجد في الأخرى، وجميع حروف الأخرى موجود في الأولى، وقسم في وسطها وقسم في آخرها: مثال الأول قوله تعالى: "والفتت الساق بالساق إلى ربك يومئذ المساق" ومثال الثاني قولهم: من جد وجد، ومثال الثالث البيت الذي ذكر لأبي تمام وهو قوله: "يمدون من أيد" البيت.

وقد تكون الزيادة حرفين: فإما أن يقعا في أول الكلمة ويكونا متقاربين كقولهم: ليل دامس، وطريق طامس، وإما أن يقعا في وسطها كقولهم: ما خصصتني بل خسستني. أو آخر الكلمة ويكونا متباعدين كقولهم: سالب وساكب. أو متقاربين كقولهم: شاحب وشاغب.

ومن القسم الذي توسط في هذا الحرف الواحد قوله تعالى: "وإنه على ذلك لشهيد، وإنه لحب الخير لشديد" وقالوا: هو الذي يرجع فيه لفظ الكلمة الأولى في الكلمة الأخرى، كقول أبي تمام: طويل

يمدون من أيد عواص عواصم تصول بأسياف قواض قواضب

وعندي أن تسميته تجنيس التداخل لدخول إحدى الكلمتين في الأخرى أو تجنيس التضمن لتضمن إحدى الكلمتين لفظ الأخرى أولى بالاشتقاق، إذ لا معنى لقولهم: يرجع لفظ إحدى الكلمتين في لفظ الأخرى لأن ظاهر الرجوع يؤذن بذهاب قبله ولا ذهاب، أو كما قالوا: تجنيس التذييل وتجنيس العكس، وهو مما لم يذكره التبريزي، وتعريفه أن تكون إحدى الكلمتين عكس الأخرى بتقديم بعض حروفها على بعض: كقوله تعالى: "أن تقول فرقت بين بني إسرائيل" وكقول عبد الله بن رواحة يمدح رسول الله صلى الله عليه وسلم: بسيط

تحمله الناقة الأدماء معنجرأ بالبرد كالبدر جلى ليلة الظلم

ما يعلم الله من دين ومن مكرم

وفي عطافيه أو أثناء بردته

وكقول البحترى: طويل

تذكرت القربى ففاضت دموعها

إذا احتربت يوماً فغاضت دماؤها

شواجر أرحام ملوم قطوعها

شواجر أرماع تقطع بينهم

أخذ البحترى معنى البيت الأول من رجل من بني عقيل، وقصر حيث قال: وافر

ونقتلكم كأننا لا نبالي

ونبكي حين نقتلكم عليكم

والبيت الثاني من بيتي البحترى أردت.

وتجنيس التركيب مما لم يذكره التبريزي، وهو أن تركيب كلمة من كلمتين ليمائل بها كلمة مفردة في الهجاء واللفظ، وهو قسمان: قسم تتشابه الكلمتان فيه لفظاً وخطأً، وقسم يتشابهان فيه لفظاً لا خطأً.

فالأول كقول القائل: مجزوء الكامل

وأنامل من عندم

يا من تدل بوجنة

أحاظ عينك عن دمي

كفى جعلت لك الفدا

وكقول الآخر: متقارب

فدعه فدولته ذاهبه

إذا ملك لم يكن ذاهبه

ومثال الثاني قول الشاعر: رمل مجزوء

م ولا جام لنا

كلكم قد أخذ الجا

جام لو جاملنا

وما الذي ضر مدير ال

والأبيات الأولى من القسم الأول، والأخرى من القسم الثاني.

فهذه أقسام التجنيس الثمانية.

وأما القسم الذي جعلته لها تاسعاً، وهو الذي ذكره التبريزي وسماه التجنيس المضاف، وأنشد فيه قول

البحترى: وافر

على تطاول الليل التمام

أيا قمر التمام أعنت ظلماً

فهو مع قطع النظر عن الإضافة من تجنيس التحريف، لكن هو قسم قائم بذاته، لاتصال المضاف بالمضاف

إليه. والله أعلم.

باب الطباق

الطباق اللغوي الذي أخذ منه الصناعي هو قول العرب: طابق البعير في مشبه إذا وضع خف رجله موضع خف يده، وقد رد ابن الأثير على كل من ألف في الصناعة هذا الباب، وقال: إن الجمع من تسميتهم الضدين في هذا الباب خطأ محض، لأن أصل الاشتقاق يقتضي الموافقة لا المضادة، وهو أولى بالخطأ منهم، لأن القوم رأوا أن البعير قد جمع بين الرجل واليد في موطن واحد، والرجل واليد ضدان، أو في معنى الضدين، فرأوا أن الكلام الذي قد جمع فيه بين الضدين يحسن أن يسمى مطابقاً لأن المتكلم به قد طابق فيه بني الضدين، وهو على ضربين: ضرب يأتي بألفاظ الحقيقة، وضرب يأتي بألفاظ المجاز، فما كان منه بلفظ الحقيقة سمي طباقاً، وما كان بلفظ المجاز سمي تكافؤاً، فمثال التكافؤ قول أبي الشغب العبسي من إنشادات قدامة كامل:

يحمي النمار صبيحة الإرهاق

حلو الشمائل وهو مر باسل

ومن أمثلة التكافؤ قول ابن رشيق: طويل

نجوم العوالي في سماء عجاج

وقد أطفأوا شمس النهار وأوقدوا

لما كان قوله "حلو" و"مر" خارجاً مخرج الاستعارة إذ ليس الإنسان ولا شمائله مما يذاق بحاسة الذوق، كان هذا تكافؤاً.

وكل أمثلة التكافؤ صالحة لأن تكون أمثلة لباب المقارنة من الأبواب التي استنبطتها، وستأتي في آخر الكتاب.

وأما الطباق الذي يأتي بألفاظ الحقيقة فقد قسموه إلى ثلاثة أقسام: طباق الإيجاب، وطباق السلب، وطباق التردد.

فمثال طباق الإيجاب قوله تعالى "وأنه هو أضحك وأبكى، وأنه هو أمات وأحى"، وكقول الرسول صلى الله عليه وسلم للأنصار رضي الله عنهم: "إنكم لتكثرون عند الفزع، وتقلون عند الطمع"، فانظروا إلى فضل هذه العبارة كيف أتت المناسبة التامة فيها ضمن المطابقة.

وكقول علي كرم الله وجهه: من رضي عن نفسه كثر من يسخط عليه، وكقول دعبل الخزاعي: كامل

ضحك المشيب برأسه فبكى

لا تعجبي يا سلم من رجل

وهذا البيت مع سهولة سبكه وخفة ألفاظه وكثرة الماء في جملة قد جمع بين لفظي التكافؤ والطباق معاً، لأن ضحك المشيب مجاز، وبكاء الشاعر حقيقة، وكقول الفرزدق وهو من إنشادات ابن المعتز: كامل

لا يغدرون ولا يفون لجار

لعن الإله بني كليب إنهم

وتنام أعينهم عن الأوتار

يستيقظون إلى نهيق حمارهم

غير أن هذين البيتين من أفضل شعر سمعته في هذا الباب، لأنهما جمعاً بين طباقي السلب والإيجاب، ووقع فيهما مع الطباق تكميل لم يقع مثله في باب التكميل، لأن هذا الشاعر لما وصف هؤلاء القوم بالضعف حيث قال: "لا يغدرون" وعلم أنه لو اقتصر على ذلك احتمل الكلام ضرباً من المدح، إذ تجنب الغدر قد يكون عن ضعف وعن عفة، أتى بصريح الهجاء ليدل بذلك على أنه أراد بكلامه الأول محض الهجاء، واقتضت الصناعة أن يأتي بذلك في لفظ ينتظم به وبما بعده طباق، فقال: "ولا يفون لجار" فتكمل الهجاء، إذ سلبهم الغدر والعجز والوفاء للؤم وحصل في البيت مع الطباق والتكميل الدالين على غاية الهجاء إيغال حسن، لأنه لو اقتصر على قوله "لا يغدرون ولا يفون" تم له القصد الذي أراده، وحصل المعنى الذي قصده، لكنه لما احتاج إلى القافية ليصير الكلام شعراً أفاد بها معنى زائداً حيث قال: "لجار" لأن الغدر بالجار أشد قبحاً من الغدر بغيره فإن قيل: لعنة الشاعر لهم في أول كلامه تدل على أنه أراد بقوله: "لا يغدرون" الهجاء فبطل، تأويله.

قلت: ظاهر الغدر القبح، وإنما يستحسن إذا أريد به وصف فاعله بالقدرة وهو من مذهب الجاهلية والشعر الإسلامي، فيحتمل منه لعنة لهم إذا حللنا نفي الغدر عنهم على صفة المدح أنه أراد باللعنة المبالغة في استحسان ما وصفهم به، فإن من مذهب العرب ذلك، ألا تراهم كانوا يسمون نوادر الأشعار كالمعلقات وأمثالها المخازي والملاعن، لأن سامعها يقول: أخزاه الله ما أشعره، ولعنه الله ما أصدقه. وطباق السلب، وهو أن يأتي المتكلم بكلمتين أو كلمتين، إحداهما موجبة والأخرى منفية، وقد تكون الكلمتان منفيتين، وقد تقدم في شعر الفرزدق مثال ما وقع في الكلمتان منفيتين، وأما ما وقعت فيه إحدى الكلمتين منفية والأخرى موجبة فمثاله قول بشر بن هارون وقد ظهر منه فرح عند الموت، وقيل له: أتفرح بالموت؟ فقال: ليس قدومي على خالق أرجوه كمقامي مع مخلوق لا أرجوه، وقد نظم منصور الفقيه هذا المعنى فقال كامل:

في الموت ألف فضيلة لا توصف

قد قلت إذ مدحوا الحياة فأطنبوا

وفراق كل معاشر لا ينصف

منها أمان لقائه بلقائه

ومن أمثلة القسم الثاني من طباق السلب قول البحري: طويل

ويسري إلى الشوق من حيث أعلم

يقبض لي من حيث لا أعلم الهوى

وطباق التردد، وهو أن يرد آخر الكلام المطابق على أوله، فإن لم يكن الكلام مطابقاً فهو رد الأعجاز على الصدور، ومثاله قول الأعشى بسيط

لا يرقع الناس ما أوهوا وإن جهدوا طول الحياة ويوهون ما رقعوا

وقد يقع في الطباق ما هو معنوي، كقوله تعالى: "إن أنتم إلا تكذبون، قالوا ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون"، معناه ربنا يعلم إنا لصادقون، والله أعلم.

باب رد الأعجاز على الصدور

وهو الذي سماه المتأخرون التصدير، وقد قسمه ابن المعتز ثلاثة أقسام الأول ما وافق آخر كلمة في البيت آخر كلمة في صدره، أو كانت مجانسة لها كقول الشاعر: كامل

يلفي إذا ما كان يوم عرمرم في جيش رأى لا يفيل عرمرم

والثاني ما وافق آخر كلمة من البيت أول كلمة منه كقول الآخر: طويل

سريع إلى ابن العم يشتم عرضه وليس إلى داعي الندى بسريع

والثالث ما وافق آخر كلمة من البيت بعض كلماته في أي موضع كان، كقول الشاعر طويل:

سقى الرمل جون مستهل غمامه وما ذاك إلا حب من حل بالرمل

هكذا عرف ابن المعتز هذا القسم الثالث من التصدير، وهو عندي مدخول التعريف من أجل قوله: ما وافق آخر كلمة من البيت بعض كلماته في أي موضع كانت، فإنها لو كانت في العجز لم يسم تصديراً لأن اشتقاق التصدير من صدر البيت، فلا بد من زيادة قيد في التعريف يسلم به من الدخول بحيث يقول: بعض كلمات البيت في أي موضع كانت من حشو صدره. وأظن ابن المعتز اتكل في ذلك على البيت الذي جاء به مثلاً ولا ألوم ابن المعتز. وهذا ابن الخطيب على تأخر زمانه وإطلاعه لأجل التأخر على أكثر ما قيل. وتقدمه في الفضائل قد جاء على بعض أقسام التصدير بقول الشاعر طويل:

وإن لم يكن إلا معرس ساعة قليلاً فإني نافع لي قليلاً

ولم يضع ابن المعتز لهذه الأقسام اسماً يعرف بعضها من بعض، والذي يحسن أن نسمي به القسم الأول تصدير التقفية، والثاني تصدير الطرفين والثالث تصدير الحشو. وقد وقع من التصدير في الكتاب العزيز قوله تعالى: "ولقد استهزئ برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون" وقوله تعالى: "وما أنزلنا على قومه من بعده من جند من السماء وما كنا مترلين" وفي السنة النبوية من ذلك قوله عليه السلام وقد رأى أبا مسعود البدر يضرع عبداً له. "أبا مسعود، لله عليك أقدر منك عليه" وهذه الأقسام الثلاثة فيما الكلام فيه موجب. وفي التصدير قسم رابع ذهب عنه ابن المعتز، وهو يأتي فيما الكلام فيه منفي، واعتراض فيه إضراب عن أوله كقول الشاعر: طويل

فإنك لم تبعد على متعهد

بلى كل من تحت التراب بعيد

وقد جاء قدامة من التصدير بنوع آخر غير ما ذكرنا، وسماه التبديل وهو أن يصير المتكلم الآخر من كلامه أولاً وبالعكس، كقولهم: اشكر لمن أنعم عليك، وأنعم على من شكرك، ولم أفق لهذا القسم على شاهد شعري فقلت: منسرح.

اصبر على خلق من تعاشره

واصحب صبوراً على أذى خلقك

ولم يفرد له قدامة باباً فأذكره في أبوابه. والله أعلم.

باب المذهب الكلامي

المذهب الكلامي عبارة عن احتجاج المتكلم على المعنى المقصود بحجة عقلية تقطع المعاند له فيه، لأنه مأخوذ من علم الكلام الذي هو عبارة عن إثبات أصول الدين بالبراهين العقلية وهو الذي نسبت تسميته إلى الجاحظ، وزعم ابن المعتز أنه لا يوجد في الكتاب العزيز، وهو محشو منه، ومنه فيه قوله تعالى حكاية عن الخليل عليه السلام: "وحاجة قومه" إلى قوله عز وجل: "وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه" وقوله تعالى: "أوليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى" وقوله سبحانه: "لو كان فيما آلهة إلا الله لفسدتا" وقوله: "قل يبيها الذي أنشأها أول مرة" ومن هذا الباب نوع منطقي، وهو استنتاج النتيجة من مقدمتين، فإن أهل هذا العلم قد ذكروا أن من أول سورة الحج إلى قوله: "وأن الله يبعث من في القبور" منطوقاً على خمس نتائج من عشر مقدمات، فالمقدمات من أول السورة إلى قوله تعالى: "وأثبتت من كل زوج بهيج" والنتائج من قوله تعالى: "ذلك بأن الله هو الحق" إلى قوله: "وأن الله يبعث من في القبور" وتفصيل ترتيب المقدمات والنتائج أن يقال: الله أخبر أن زلزلة الساعة شيء عظيم، وخبره هو الحق، وأخبر عن المغيب بالحق، فهو حق فالله هو الحق، والله يأتي بالساعة على تلك الصفات، ولا يعلم صدق الخبر إلا بإحياء الموتى، ليدركوا ذلك، ومن يأتي بالساعة يحيي الموتى فهو يحيي الموتى، وأخبر أن يجعل الناس من هول الساعة سكارى لشدة العذاب ولا يقدر على عموم الناس بشدة العذاب إلا من هو على كل شيء قدير فالله على كل شيء قدير، وأخبر أن الساعة يجازي فيها من يجادل في الله بغير علم، ولا بد من مجازاته، ولا يجازي حتى تكون الساعة آتية.

ولا تأتي الساعة حتى يبعث من في القبور فهو يبعث من في القبور وأن الله ينزل الماء على الأرض الهامدة فتنبت من كل زوج بهيج والقادر على إحياء الأرض بعد موتها يبعث من في القبور، وأن الله يبعث من في

القبور. وقد ساق الرماني في الضرب الخامس من باب المبالغة أن إعجازه إخراج الكلام مخرج الشك للمبالغة في العدل، للاحتجاج بقوله تعالى: "قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين" وقوله سبحانه "وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه" ونظائر هذه الآيات، ومن ذلك في الشعر قول النابغة يعتذر إلى النعمان: طويل

حلفت فلم أترك لنفسي ريبة
وليس وراء الله للمراء مذهب
لئن كنت قد بلغت عني خيانة
لمبلغك الواشي أغشى وأكذب
ولكنني كنت امرأ لي جانب
من الأرض فيه مستراد ومذهب
ملوك وإخوان إذا ما مدحتهم
أحكم في أموالهم وأقرب
كفعلك في قوم أراك اصطنعتهم
فلم ترهم في مدحهم لك أذنبوا

فانظر إلى حذق الشاعر في الاحتجاج بقوله لهذا الملك: أنت أحسنت إلى قوم فمدحوك، وأنا أحسن إلى قوم فمدحتهم، فكما أن مدح أولئك لا يعد ذنباً فكذلك مدحي لمن أحسن إلي لا يعد ذنباً. ومن هذا الباب قول الفرزدق: طويل

لكل امرئ نفسان: نفس كريمة
ونفس يعاصيها الفتى ويطيعها
ونفسك من نفسك تشفع للندى
إذا قل من أحرارهن شفيبعها

يقول هذا الشاعر: لكل إنسان نفسان: مطمئنة تأمر بالخير، وأمارة تأمر بالشر، والإنسان يعاصي الأمانة مرة ويطيعها أخرى، وأنت أيها الممدوح نفسك الأمانة إذا أمرت بترك الندى شفعت المطمئنة إلى الأمانة في الندى في الحالة التي يقل الشفيع في الندى من النفوس، فأنت أكرم الناس ومن هذا الباب أيضاً قول ابن المعتز: مديد

كيف لا يخضر عارضه
ومياه الحسن تسقيه

كأنه قال: كل نبت يسقى فهو أخضر، وشارب هذا الغلام نبت ومياه الحسن تسقيه، فيكف لا يخضر وعلى هذا فقس.

ومن هذا الباب جواب سؤال مقدر، كقوله تعالى: "وما كان استغفار إبراهيم لأبيه": الآية، لأن التقدير أن قائلاً قال بعد قوله تعالى: "ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين" الآية، فقد استغفر إبراهيم لأبيه، فأخبر بقوله: "وما كان استغفار إبراهيم" الآية والله أعلم.

باب الالتفات

فسر قدامة الالتفات بأن قال: هو أن يكون المتكلم آخذاً في معنى فيعترضه إما شك فيه، أو ظن أن راداً يردده عليه، أو سائلاً يسأله عن سببه، فيلتفت إليه بعد فراغه منه فإما أن يجلي الشك فيه أو يؤكد، أو يذكر سببه كقول الرماح بن ميادة طويل.

فلا صرمه يببدو ففي اليأس راحة ولا وصله يببدو لنا فنكارمه

فكأن هذا الشاعر توهم أن قائلاً يقول له: وما تصنع بصرمه، فقال: لأن في اليأس راحة. وأما ابن المعتز فقال: الالتفات انصراف المتكلم عن الإخبار إلى المخاطبة، ومثاله من القرآن العزيز قوله تعالى بعد الإخبار بأن الحمد لله رب العالمين: "إياك نعبد وإياك نستعين" وكقوله سبحانه: "إن أراد النبي أن يستنكحها خالصة لك من دون المؤمنين" وكقوله تعالى: "لم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم في الأرض ما لم نمكن لكم" ومثال ذلك من الشعر قول جرير وافر:

متى كان الخيام بذى طلوح سقيت الغيث أيتها الخيام

أو انصراف المتكلم عن الخطاب إلى الإخبار كقوله تعالى: "حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة" ومثال ذلك من الشعر قول عنتره كامل:

ولقد نزلت فلا تظني غيره مني بمنزلة المحب المكرم

ثم قال يخبر عن هذه المخاطبة بقوله: كامل

كيف المزار وقد تربع أهلها بعنيزتين وأهلنا بالغيلم

أو انصراف المتكلم من الإخبار إلى التكلم كقوله تعالى: "والله الذي أرسل الرياح فتثير سحاباً فسقناه أو انصراف المتكلم من التكلم إلى الإخبار كقوله تعالى: "إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد وما ذلك على الله بعزيز" وقد جمع امرؤ القيس الالتفاتات الثلاثة في ثلاثة أبيات متتاليات، وهي قوله: متقارب

تطاول ليلك بالأثمد ونام الخلي ولم ترقد

وبات وباتت له ليلة كليلة ذي العائر الأرمد

وذلك من نبأ جاعني وخبرته عن أبي الأسود

فخطب في البيت الأول، وانصرف عن الخطاب إلى الإخبار في البيت الثاني وانصرف عن الإخبار إلى التكلم في البيت الثالث على الترتيب.

وفي الالتفات نوع غير النوعين المتقدمين، وهو أن يكون المتكلم آخذاً في معنى فيمر فيه إلى أن يفرغ من التعبير عنه على وجه ما، فيعرض له أنه متى اقتصر على هذا المقدار كان معناه مدخولاً من وجه غير

الوجه الذي بنى معناه عليه فيلتفت إلى الكلام، فيزيد فيه ما يخلص معناه من ذلك الدخل، كقول شاعر الحماسة: طويل

فإنك لم تبعد على متعهد **بلى كل من تحت التراب بعيد**

فإن هذا الشاعر بنى معناه على أن المقبور قريب من الحي الذي يريد تعاهده بالزيارة، إذ القبور بأفنية البيوت غالباً، فلما فرغ من العبارة عن معناه الذي قدره على هذا التقدير، عرض له كأن قائلًا يقول له: وأي قرب بين الميت المدفون تحت التراب والحي، فالتفت متلافياً هذا الغلط بقوله:

بلى كل من تحت التراب بعيد

كأن هذا الشاعر بنى معناه على أن المقبور إلى بعد والفرق بين الاحتراس والالتفات أن الاعتراض والانفصال يكونان في بيت واحد، وفي بيتين، وفي آية، وفي آيتين، والالتفات لا يكونان فيه إلا في بيت واحد وآية واحدة. والله أعلم.

باب التمام

وهو الذي سماه الحاقمي التتميم، وسماه ابن المعتز قبله: اعتراض كلام في كلام لم يتم معناه، ثم يعود المتكلم فيتمه، وشرح حده: أنه الكلمة التي إذا طرحت من الكلام نقص حسن معناه أو مبالغته، مع أن لفظه يوهم بأنه تام، وهو على ضربين: ضرب في المعاني وضرب في الألفاظ: فالذي في المعاني هو تتميم المعنى، والذي في الألفاظ هو تتميم الوزن، والأول هو الذي قدمنا حده ومجئته على وجهين للمبالغة والاحتياط، ويجيء في المقاطع كما يجيء في الحشو، مثل قوله تعالى: "وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب وآتيناه أجره في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين" فجاءت الفاصلة كلها تتميمًا، لأن المعنى ناقص بدونها، لكنه متى جاء في المقاطع سمي إيغالاً، ويكثر مجيئه في الحشو ومثاله قوله سبحانه "من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة" فقوله تعالى: "من ذكر أو أنثى"، تتميم، وقوله: "وهو مؤمن" تتميم ثان في غاية البلاغة التي بذكرها تم معنى الكلام، وجرى على الصحة، ولو حذف هاتان الجملتان نقص معناه واحتل من حسن البيان.

من هذا القسم قول الرسول عليه الصلاة والسلام: "ما من عبد مسلم يصلي لله كل يوم اثني عشر ركعة من غير الفريضة إلا بنى الله له بيتاً في الجنة" فوقع التتميم في هذا الحديث في أربعة مواضع: منها قوله: مسلم، وقوله: لله، وقوله: كل يوم، وقوله: من غير الفريضة، ومن أناشيد قدامة على هذا القسم قول الشاعر طويل:

ويعطوه عاذوا بالسيوف القواضب أناس إذا لم يقبل الحق منهم

فقوله: ويعطوه تميم في غاية الحسن، وهذا شاهد ما جاء منه للاحتياط، ومثال ما جاء للمبالغة قول زهير بسيط

من يلق يوماً على علاته هراً يلق السماحة من والندى خلقاً

فقوله على علاته تميم جاء للمبالغة، وشاهده من كتاب الله تعالى قوله عز وجل: "ويطعمون الطعام على حبه" إن عاد الضمير على الطعام، وإن عاد على اسم الله فهو للاحتياط. وأما الذي في الألفاظ فهو الذي يؤتى به لإقامة الوزن، بحيث لو طرحت الكلمة استقل معنى البيت بدونها، وهي على ضربين أيضاً: كلمة لا يفيد مجيئها إلا إقامة الوزن فقط، وأخرى تفيد مع إقامة الوزن ضرباً من المحاسن، والأولى من العيوب، والثانية من النعوت، وهذا موضع الثانية لا الأولى، ومثالها قول المتنبي كامل:

به

"

لإقامة الوزن، وقصدها دون غيرها مما يسد مسدها ليكون بينها وبين قافية البيت مطابقة لو كان موضعها غيرها لم تحصل، والله أعلم .

باب الاستطراد

ذكر الخاتمي في حلية المحاضرة أنه نقل هذه التسمية عن البحثري الشاعر، وهو الذي سماه ابن المعتز الخروج من معنى إلى معنى، وفسره بأن قال: هو أن يكون المتكلم في معنى فيخرج منه بطريق التشبيه أو الشرط أو الإخبار أو غير ذلك إلى معنى آخر يتضمن مدحاً أو قدحاً أو وصفاً أو غير ذلك، ورأيت غالب وقوعه في الهجاء، وإن وقع في غيره ولا بد من ذكر المستطرد به باسمه، بشرط ألا يكون جرى له ذكر في الكلام قبل ذلك، ومن أمثله في الكتاب العزيز قوله تعالى: "ألا بعداً لمدين كما بعدت ثمود" ومن أمثله الشعرية قول حسان بن ثابت: كامل

فنجوت منجا الحارث بن هشام

إن كنت كاذبة التي حدثتني

ونجا برأس طمرة ولجام

ترك الأحبة أن يقاتل دونهم

فهذا ما وقع من الاستطراد في الهجاء.

وأما ما جاء منه في المدح والهجاء معاً فقول بكر بن النطاح طويل:

لترضى فقالت قم فجنني بكوكب

عرضت عليها ما أرادت من المنى

فقلت لها هذا التعنت كله
كمن يتشهى لحم عنقاء مغرب
سلي كل شيء يستقيم طلابه
ولا تذهبي يا بدر بي كل مذهب
فأقسم لو أصبحت في عز مالك
وقدرته أعياء بما رمت مطلبي
فتى شقيت أمواله بنواله
كما شقيت بكر بأرماح تغلب

وهذا أبدع استطراد سمعته في عمري، فإنه قد جمع أحسن قسم وأبدع تخلص، وأرشق استطراد، وتضمن مدح الممدوح بالكرم، وقبيلته بالشجاعة والظفر، وهجاء أعدائهم بالضعف والخور، وهذا لم يتفق لمن قبله ولا لمن بعده إلى وقتنا هذا.

ومن ظريف الاستطراد وغريبه قول بعضهم وأتى بالاستطراد في المجون وهو غريب جداً خفيف:

اكشفي وجهك الذي أوحتني
فيه من قبل كشفه عينك
غلطي في هواك يشبه عندي
غلطي في أبي علي بن زاكي

وأحسب أن أول من استطراد بالهجاء السموءل حيث يقول طويل:

وإنا أناس لا نرى القتل سبة
إذا ما رأته عامر وسلول
وفي النسيب امرؤ القيس حيث قال كامل:
عوجاً على الظلل المحيل لعننا
نبكي الديار كما بكى ابن حمام

باب تأكيد المدح بما يشبه الذم

أنشد ابن المعتز فيه قول النابغة الذبياني: طويل

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم
بهن فلول من قراع الكتائب
وقول النابغة الجعدي طويل:

فتى كملت أخلاقه غير أنه
جواد فما يبقى من المال باقيا
فتى تم فيه ما يسر صديقه
على أن فيه ما يسوء الأعدايا

وقد رأيت لابن المغربي الوزير مما هو داخل في هذا الباب ما يروق السامع، وهو قوله طويل:

ويعدل في شرق البلاد وغربها
على أنه للسيف والمال ظالم
ورأيت أحسن من هذا لبعضهم، وهو طويل:
ولا عيب فينا غير أن سماحنا
أضر بنا والبأس من كل جانب

فأفنى الردى أعمارنا غير ظالم
وأفنى الندى أموالنا غير عائب
أبونا أب لو كان للناس كلهم
أباً واحداً أغناهم بالمناقب

وقد خلط المتأخرون باب الاستثناء بهذا الباب، وكنت أرى أهما باب واحد، إلى أن نبهني عليه عند قراءته من ألفت له هذا الكتاب، فرأيت إفراده منه، وسيأتي في موضعه بعد الفراغ من أبواب ابن المعتز وقدامة إن شاء الله.

باب تجاهل العارف

وقد سماه من بعد ابن المعتز الإعانات، وهو سؤال المتكلم عما يعلمه حقيقة تجاهلاً منه به ليخرج كلامه مخرج المدح أو الذم، أو ليبدل على شدة التذلل في الحب، أو لقصده التعجب، أو التقرير، أو التوبيخ، وهو على قسمين: قسم يكون الاستفهام فيه عن شيئين أحدهما واقع والآخر غير واقع، وقد ينطق بأحد الشيئين ويسكت عن الآخر لدلالة الحال عليه. وهو على قسمين: موجب، ومنفي.

وقد جاء منه في الكتاب العزيز ما لا يلحق سبقاً، كقوله تعالى: "أبشراً منا واحداً نتبعه" فهذا خارج مخرج التعجب، وقوله سبحانه: "أصلواتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء" وهذا خارج مخرج التوبيخ، وقوله عز وجل: "أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله" وقوله تعالى: "أأنت فعلت هذا بآهتنا يا إبراهيم" وهذان الموضوعان خرجا مخرج التقرير. وأما ما جاء منه في المدح فكقول بعض المحدثين بسيط

بدا فراع فؤادي حسن صورته
فقلت هل ملك ذا الشخص أم ملك

وأما ما جاء منه للذم فكقول زهير بن أبي سلمى وافر:

وما أدري وسوف إخال أدري
أقوم آل حصن أم نساء

وأما ما دل منه على التذلل في الحب فكقول العرجي بسيط

بأنه يا ظبيات القاع قلن لنا
ليلاي منكن أم ليلى من البشر

وكل ما أوردناه من الآيات في هذا الباب مما نطق فيه بأحد الأمرين لدلالة القرينة على الآخر، وبيت المدح من القسم الأول، والبيتان الأخيران من القسم الآخر، والله أعلم، وهذا كله مما جاء من القسم الأول.

ومما جاء من القسم الثاني في الكتاب العزيز قوله تعالى: "ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم" فحصل في فصاحة النسوة من المبالغة والتهذيب ما لم يقع في فصاحة العرب حيث شبهوا كل من راعهم حسنه بالجن، وتبعهم المتنبي فقال: طويل

لجنية أم غادة رفع السجف

.....

باب الهزل الذي يراد به الجد

وهو أن يقصد المتكلم مدح إنسان أو ذمه، فيخرج ذلك المقصود مخرج الهزل المعجب، والمجون المطرب، كما فعل أصحاب النوادر، مثل أشعب وأبي دلامة وأبي العيلاء ومزبد ومن سلك سبيلهم، كما حكى عن أشعب أنه حضر إعداراً صنعه بعض ولاة المدينة، وكان مبخلاً، فدعا الناس ثلاثة أيام وهو يجمعهم على مائدة عليها جدي مشوي، فيحوم الناس حوله، ولا يمسه منهم أحد لعلمهم ببخله، وأشعب في كل يوم يحضر ويرى الجدي، فقال في اليوم الثالث: زوجته طالق إن لم يكن عمر هذا الجدي بعد أن ذبح وشوي أطول منه قبل ذلك.

ومن شواهد الهزل الذي يراد به الجد من الشعر العربي قول الشاعر: طويل

فقل عد عن ذا كيف أكلك للضب

إذا ما تميمي أتاك مفاخرأ

وقد أنشد ابن المعتز في هذا الباب قول أبي العتاهية بسيط

من بخل نفسك عل الله يشفيكا

أرقيك أرقيك باسم الله أرقيك

ولا عدوك إلا من يرجيكا

ما سلم كفك إلا من يتاركها

والفاتح لهذا الباب امرؤ القيس حيث يقول طويل:

بأن الفتى يهذي وليس بفعال

وقد علمت سلمى وإن كان بعلها

وما رأيت أحسن من قوله ملتفتاً: وإن كان بعلها.

باب حسن التضمين

وهو أن يضمن المتكلم كلامه كلمة من بيت، أو من آية، أو معنى مجرداً من كلام، أو مثلاً سائراً أو جملة مفيدة، أو فقرة من حكمة كقول علي عليه السلام في جواب كتاب معاوية: "وما الطلقاء وأبناء الطلقاء، والتميز بين المهاجرين الأولين وتبيين درجاتهم، وتعريف طبقاتهم، هيهات لقد حن قدح ليس منها، وطفق يحكم فيها من عليه الحكم لها" فضمن كلامه هذا المثل العربي وهو قوله: "لقد حن قدح ليس منها"

وكقوله في آخر هذا الكتاب: وإني مرقل نحوك بجحفل من المهاجرين والأنصار والتابعين لهم بإحسان، شديد زحامهم، ساطع قتامهم متسريلين سرايل الموت، أحب اللقاء إليهم لقاء رهم، قد صحبتهم ذرية بدرية، وسيوف هاشمية عرفت مواقع نصالها في أخيك وخالك وجدك "وما هي من الظالمين ببعيد" فضمن كلامه هذه الآية.

ومن إنشادات ابن المعتز في هذا الباب سريع:

أقراصه مني بياسين

عود لما بت ضيفاً له

غنت قفا نيك مصارينى

فبت والأرض فراشي وقد

فضمن هذا الشاعر بيته الأول كلمة من السورة، وبيته الثاني جملة من البيت الذي هو أول القصيدة المشهورة.

وقد وقع من ذلك في الكتاب العزيز ما تضمنه من التوراة كقوله سبحانه: "وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس" الآية.

ومن لطيف التضمين في الشعر قول أبي تمام طويل:

أرق وأحفى منك في ساعة الكرب

لعمرو مع الرمضاء والنار تلتظي

فضمن بيته كلمات من البيت المشهور وهو بسيط

كالمستجير من الرمضاء بالنار

المستجير بعمرو عند كربته

وفي الكتاب العزيز من هذا الباب ما حكاه فيه سبحانه من صفة النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه، وذلك قوله: "محمد رسول الله" إلى قوله: "ذل مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل" فضمن كتابنا صفتهم من الكتابين الأولين، والفرق بين التضمين والإيداع والاستعانة والعنوان أن التضمين يقع في النظم والنثر ولا يكون إلا بالنثر ويكون من المحاسن ومن العيوب، ولكنه لا يكون من العيوب إلا إذا وقع في النظم بالنظم، والإيداع والاستعانة وإن وقعا معاً في النظم والنثر فلا يكونان إلا بالنظم دون النثر. وأما العنوان فإنه يقع في النظم والنثر ولا يقع بالنثر، وهو بخلاف التضمين لا يكون إلا من المحاسن دون العيوب، والتضمين منهما معاً وسيأتي بيان ذلك في موضعه، والله أعلم.

باب الكناية

وهي أن يعبر المتكلم عن المعنى القبيح باللفظ الحسن، وعن الفاحش بالطاهر، كقوله سبحانه: "كانا يأكلان الطعام" كناية عن الحدث. وكقوله تعالى: "أو جاء أحد منكم من الغائط" كناية عن قضاء الحاجة، وكقوله عز وجل: "ولكن لا تواعدوهن سرّاً" كناية عن الجماع، قال امرؤ القيس طويلاً:

ألا زعمت بسباسة الحي أنني كبرت وألا يحسن السر أمثالي

ذهب كل من فسر شعره من العلماء أنه أراد بالسر الوقاع، وكقوله سبحانه: "وقد أفضى بعضكم إلى بعض" يريد به ما يكون بين الزوجين من المباشرة، وكقول الله تعالى: "الخبثات للخبثين"، وهو سبحانه يريد الزنا وعلى الجملة لا تجد معنى من هذه المعاني في الكتاب العزيز يأتي إلا بلفظ الكناية، لأن المعنى الفاحش متى عبر عنه بلفظه الموضوع له كان الكلام معيياً من جهة فحش المعنى، ولذلك عاب قدامة على امرئ القيس قوله طويلاً:

فمئلك حبلى قد طرقت ومرضع فألهيتها عن ذي توائم محول

إذا ما بكى من خلفها انصرفت له بشق وتحتي شقها لم يحول

وقال أعني قدامة: وعيب هذا الشعر من جهة فحش المعنى، يريد أنه عبر عنه بلفظه، فجاء الكلام فاحشاً، وهو عيب، ولذلك تتره القرآن عنه، ولو استعار امرؤ القيس لمعناه لفظ الكناية كما فعل في البيت الذي تقدم هذين البيتين لم يكن إلى عيبه سبيل.

وفي السنة النبوية من الكناية ما لا يكاد يحصى، كقوله صلى الله عليه وسلم: "لا يضع العصا عن كتفه" كناية عن كثرة الضرب أو كثرة السفر.

وحكى ابن المعتز أن العرب كانت تقول: "فلان يخبأ العصا لمن به أبنه"، وأنشد رجز مجزوء:

زوجك زوج صالح لكنه يخبا العصا

ومن أناشيد ابن المعتز لبشار في اثنين كانا يتفاعلان خفيف:

وإذا ما التقى مثنى وبكر زاد في ذا شبر وفي ذاك شبر

وأنشد لأبي نواس في الكناية عن جلد عميرة ما لا يدرك شأوه وهو طويلاً:

إذا أنت أنكحت الكريمة كفؤها فأنكح حبيشاً راحة ابنة ساعد

وقل بالرفا ما نلت من وصل حرة لها ساحة حفت بخمس ولائد

ومن أحسن الكنايات في الهجاء قول بعض الشعراء يهجو إنساناً به داء الأسد، فكنى عن ذلك ورمى أمه بالفجور بطريق الكناية أيضاً حيث قال: وافر

فلم توجد لأمك بنت سعد

أراد أبوك أمك حين زفت

يريد به عذرة، ثم قال وافر:

هنيئاً بالقميص المستجد

أخو لحم أعارك منه ثوباً

يريد: جذاماً فإنه أخو لحم.

وأشده ابن المعتز في الكناية عن حجام لبعض الشعراء: طويل

فليس بمعوج له أبداً سطر

إذا عوج الكتاب يوماً سطورهم

ومن نحوه العرب وغيرهم كنايةهم عن حرائر النساء بالبيض، وقد جاء القرآن العزيز بذلك، فقال سبحانه: "كأنهن بيض مكنون" وقال امرؤ القيس طويل:

تمتعت من لهو بها غير معجل

وبيضة خدر لا يرام خباؤها

ومن مליح الكناية قول بعض العرب وافر:

عليك ورحمة الله السلام

ألا يا نخلة من ذات عرق

هنا من ذلك يكرهه الكرام

سألت الناس عنك فخبروني

إذا هو لم يخالطه الحرام

وليس بما أحل الله بأس

فإن هذا الشاعر كنى بالنخلة عن المرأة، وبالهناء عن الرفث، فأما الهناءة فمن عادة العرب الكناية بها عن مثل ذلك، وأما الكناية بالنخلة عن المرأة فمن طريف الكناية وغريبها.

باب الإفراط في الصفة

وهو الذي سماه قدامة المبالغة، وسماه من بعده التبليغ، وأكثر الناس على تسمية قدامة، لأنها أخف وأعرف، ومن أناشيد ابن المعتز فيها: كامل

غمر الجماجم والصفوف قيام

ملك تراه إذا احتبى بنجاده

وحد قدامة المبالغة بأن قال: هي أن يذكر المتكلم حالاً من الأحوال لو وقف عندها لأجزأت، فلا يقف حتى يزيد في معنى ما ذكره ما يكون أبلغ في معنى قصده، كقول عمرو بن الأهتم التغلبي وافر:

ونتبعه الكرامة حيث مالا

ونكرم جارنا ما دام فينا

وأنا أقول: قد اختلف في المبالغة، فقوم يرون أن أجود الشعر أكذبه وخير الكلام ما بولغ فيه، ويحتجون بما جرى بين النابغة الذبياني وبين حسان في استدراك النابغة عليه تلك المواضع في قوله طويل:

لنا الجففات الغر يلمعن في الضحى **وأسيافنا يقطن من نجدة دما**

فإن النابغة إنما عاب على حسان ترك المبالغة، والقصة مشهورة، والصواب مع حسان، وإن روى عنه انقطاعه في يد النابغة، وقوم يرون المبالغة من عيوب الكلام، ولا يرون من محاسنه إلا ما خرج مخرج الصدق، وجاء على منهج الحق، ويزعمون أن المبالغة من ضعف المتكلم وعجزه عن أن يخترع معنى مبتكراً، أو يفرع معنى من معنى، أو يحلى كلامه بشيء من البديع، أو ينتخب ألفاظاً موصوفة بصفات الحسن، ويجيد تركيبها، فإذا عجز عن ذلك كله أتى بالمبالغة لسد خلله، وتتميم نقصه، لما فيها من التهويل على السامع، ويدعون أنها ربما أحالت المعاني فأخرجتها من حد الإمكان إلى حد الامتناع. وعندني أن المذهبين مردودان.

أما الأول فلقول صاحبه: إن خير الكلام ما بولغ فيه، وهذا قول من لا نظر له، لأننا نرى أن أكثر الكلام والأشعار جارياً على الصدق، خارجاً مخرج الحق، وهو في غاية الجودة ونهاية الحسن وتمام القوة، كيف لا والمبالغة ضرب واحد من المحاسن، والمحاسن لا تنحصر ضروبها، فكيف يقال: إن هذا الضرب على انفراده يفضل سائر المحاسن على كثيرتها؟ وهذا شعر زهير والحطيئة وحسان ومن كان مذهبه توخي الصدق في شعره غالباً ليس فوق أشعارهم غاية لمترق، ألا ترى إلى قول زهير طويل:

ومهما تكن عند امرئ من خليقة **وإن خالها تخفى على الناس تعلم**

والى قول طرفة طويل:

لعمرك إن الموت ما أخطأ الفتى **لكالطول المرخي وثنياه في اليد**

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً **ويأتئك بالأخبار من لم تزود**

والى قول الحطيئة بسيط

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه **لا يذهب العرف بين الله والناس**

فإنك تجد هذه الأشعار في الطبقة العليا من البلاغة وإن خلت من المبالغة. والذي يدل على أن مذهب أكثر الفحول ترجيح الصدق في أشعارهم على الكذب ما روى عن الحرورية امرأة عمران بن حطان الخارجي أنها قالت له يوماً: أنت أعطيت الله عهداً ألا تكذب في شعرك، فكيف قلت كامل مجزوء:

فهناك مجزة بن ثور **ر كان أشجع من أسامه**

فقال: يا هذه إن هذا الرجل فتح مدينة وحده، وما سمعت بأسد فتح مدينة قط. وهذا حسان يقول بسيط

على المجالس إن كيساً وإن حمقاً

وإنما الشعر لب المرء يعرضه

بيت يقال إذا أنشدته: صدقاً

وإن أشعر بيت أنت قائله

على أن هؤلاء الفحول وإن رجحوا هذا المذهب لا يكرهون ضده، ولا يجحدون فضله، وقلما تخلو بعض أشعارهم منه، إلا أن توخى الصدق كان الغالب عليهم، وكانوا يكثر من منه، ومن أكثر من شيء عرف به، كما أن النابغة ومن شايعه على مذهبه لا يكره ضد المبالغة، وإلا فكل احتجاجاته على النعمان في الاعتذار جار مجرى الحقيقة، كقوله طويل:

وليس وراء الله للمرء مذهب

حلفت فلم أترك لنفسك ريبه

فعائب الكلام الحسن بترك المبالغة فقط منخطئ، وعائب المبالغة على الإطلاق غير مصيب، وخير الأمور أوساطها، وكيف تعاب المبالغة وقد وجدت في الكتاب العزيز على ضروب: منها المبالغة في الصفة المعدولة من الجارية لمعنى المبالغة فإنها جاءت على ستة أمثلة: فعلان كرحمان، عدل عن راحم للمبالغة ولا يوصف به إلا الله تعالى، لأن رحمته وسعت كل شيء، وفعال معدول عن فاعل للمبالغة كقوله تعالى: "لغفار لمن تاب" "تواب رحيم" "علام الغيوب" "فعال لما يريد" وفعال معدول عن فاعل للمبالغة "كغفور" و"شكور" و"ودود"، وفعال معدول عن فاعل، "كرحيم" و"حكيم" و"عليم" و"قدير" و"سميع" و"بصير" ومفعول معدول عن فاعل "كمدعس" و"مطعن"، ومفعول معدول عن فاعل للمبالغة "كمطعام" و"مطعان".

والضرب الثاني من المبالغة وهو ما جاء بالصيغة العامة في موضع الخاصة كقولك: أتاني الناس كلهم، ولم يكن أذاك سوى واحد أردت تعظيمه، ومن هذا الضرب قول أبي نواس سريع:

أن يجمع العالم في واحد

وليس لله بمستتكر

ومن هذا الضرب في الكتاب العزيز قوله تعالى: "إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب" فوعدهم سبحانه بجزاء غير مقدر، لمحيته بالصيغة العامة تعظيماً له "وكل شيء عنده بمقدار" والضرب الثالث من المبالغة إخراج الكلام مخرج الإخبار عن الأعظم الأكبر للمبالغة، والإخبار عنه مجاز، كقول من رأى موكباً عظيماً أو جيشاً خضماً: جاء الملك نفسه وهو يعلم حقيقة أن ما جاء جيشه، وقد جاء من ذلك في الكتاب العزيز قوله تعالى: "وجاء ربك والملك صفاً صفاً" فجعل مجيء جلائل آياته مجيئاً له سبحانه، وكقوله تعالى: "ووجد الله عنده فوفاه حسابه" فجعل نقله بالهلكة من دار العمل إلى دار الجزاء وجداناً للمجازي.

والضرب الرابع من المبالغة إخراج الممكن من الشرط إلى الممتنع، ليمتنع وقوع المشروط، كقوله تعالى: "ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط".

والضرب الخامس من المبالغة ما جرى مجرى الحقيقة، وهو قسمان: قسم كان مجازاً فصار بالقرينة حقيقة، كقوله تعالى: "يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار" فإن اقتران هذه الجملة بيكاد صرفها إلى الحقيقة فانقلبت من الامتناع إلى الإمكان.

وقسم أتى بصيغة أفعال التفضيل، وهو محض الحقيقة من غير قرينة كقوله تعالى: "أنا أكثر منك مالا وأعز نفراً".

والضرب السادس من المبالغة ما بولغ في صفته بطريق التشبيه، كقوله تعالى: "إنها ترمي بشرر كالقصر، كأنه جمالات صفر" فهذه ضروب ما ورد من المبالغة في الكتاب العزيز.

والمبالغة تأتي في الكلام على ضربين: ظاهرة ومدججة، وكل ما قدمناه من مبالغات الكتاب العزيز من الظاهرة.

ومن المدججة قوله تعالى: "سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار" فإن المبالغة أتت في هذه الآية مدججة في المقابلة، والجواب: هذه المبالغة بالنسبة إلى المخاطب إلى المخاطب وقد جاء منها في سنة الرسول صلى الله عليه وسلم ما لا يحصى كثرة، ولا يلحق بلاغة، كقوله عليه السلام مخبراً عن ربه أنه قال سبحانه: "كل عمل ابن آدم له إلا الصيام فإنه لي، وأنا أجزي به" وقوله في بقية هذا الحديث: "والذي نفس محمد بيده لخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك". ففي هذا الحديث مبالغتان: أحدهما كون الحق سبحانه أضاف الصيام إلى نفسه دون سائر الأعمال لقصد المبالغة في تعظيمه وتشريفه، وأخبر أنه عز وجل يتولى مجازاة الصائم بنفسه، مبالغة في تعظيم الجزاء وشرفه، ونحن نعلم أن الأعمال كلها لله سبحانه ولعبده باعتبارين: أما كونها للعبد فلائنه يثاب عليها، وأما كونها لله تعالى فلائها عملت لوجهه الكريم، ومن أجله فتخصيص الصيام من بينها بالإضافة إلى الرب سبحانه، وتخصيص ثوابه بما خصصه به إنما كان للمبالغة في تعظيمه والحض عليه، والمبالغة الثانية إخبار الرسول صلى الله عليه وسلم بعد تقديم القسم لتأكيد الخبر بأن خلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك، ففضل تغيير فم الصائم بالإمسك عن الطعام والشراب على ريح المسك الذي هو أطيب الطيب على مقتضى ما يفهم من ريح المسك وريح تغيير فم الصائم، وأتى المعنى بصيغة أفعال للمبالغة، فجمع هذا الكلام بين قسمي المبالغة المجازي والحقيقي.

ومن أمثله المبالغة في الشعر قول امرئ القيس طويل:

فعادى عداء بين ثور ونعجة
دراكاً ولم ينضح بماء فيغسل

فإنه أخبر عن هذا الفرس أنه أدرك ثوراً وبقرة وحشية في مضمار واحد، ولم يعرق، ومثله قول أبي الطيب طويل:

وأصرع أي الوحش قفيته به
وأنزل عنه مثله حين أركب

وما يعاب من المبالغة إلا ما خرج به الكلام عن حد الإمكان إلى الاستحالة وأما إذا كان كقول قيس بن الخطيم طويل:

طعنت ابن عبد القيس طعنة ثائر
لها نفذ لولا الشعاع أضاءها

ملكته بها كفي فأنهت فتقها
يرى قائماً من دونها ما وراءها

فإن ذلك من جيد المبالغة إذا لم يكن خارجاً مخرج الاستحالة مع كونه قد بلغ النهاية في وصف الطعنة، وما سمعت ولا غيري. مستمع مثل قول أبي تمام بسيط

تكاد تنتقل الأرواح لو تركت
من الجسوم إليها حين تنتقل

فإنه لم يقنع في تصحيح المبالغة وقربها من الوقوع، فضلاً عن الجوار بتقديم كاد حتى قال: لو تركت؛ وهذا أصح بيت سمعته في المبالغة وأحسنه وأبلغه، وكقول شاعر الحماسة حيث بالغ في مدح ممدوحه بقوله طويل:

رهنت يدي بالعجز عن شكر بره
وما فوق شكري للشكور مزيد

ولو كان مما يستطاع استطعته
ولكن ما لا يستطاع شديد

فإن هذا الشاعر ألقى بيده وأظهر عجزه واعترف بقصوره عن شكر بر هذا الممدوح، وفطن إلى أنه لو اقتصر على ذلك لقليل له: عجزك عن شكر هذا الرجل لا يدل على كثرة بره، وإنما يدل على ضعف مادتك عن الشكر إذ لا يلزم من عجز الإنسان عن شيء تعظيم ذلك الشيء على الإطلاق، لاحتمال أن يكون العجز لضعف في الإنسان فاحترس عن ذلك بقوله:

وما فوق شكري للشكور مزيد

ثم تم المعنى بأن قال: للشكور أي للمبالغ في الشكر، لأن شكور معدول عن شاكر للمبالغة كما تقدم ثم أظهر عذره في عجزه مع قدرته بأن قال في البيت الثاني:

ولو كان مما يستطاع استطعته

ثم أخرج بقية البيت مخرج المثل السائر حيث قال:

ولكن ما لا يستطيع شديد

فهذا أبلغ شعر سمعته في هذا المعنى لجودة مفردات ألفاظه، وسهولة سبكه ومساواة لفظه لمعناه، ومثانة مبناه، وكثرة معانيه، وصحة المبالغة فيه؛ فإن قيل: لم بلغت في وصف هذا الشعر وهو عندك داخل في القسم المعيب من المبالغة لكونه أخرج الكلام من حد الإمكان إلى حد الامتناع حيث جعل شكر هذا الممدوح لا يستطيع؟ فإني أقول: ليس كل بر يمكن شكره، ولا يقوم المدح بحقه، فإننا لو قدرنا أن إنساناً فك إنساناً من الأسر واستنقذه من القتل لما وفي شكره بيره ولو كان أشكر الناس، واستنفد في شكره بقية عمره، لا سيما لو قدر أن ذلك الممتن ببقاء النفس أضاف إلى ذلك توابع إحسان، وعوارف امتنان، على ممر الزمان، فإن الشكر لا يقوم ببر ذلك الإنسان، ولو تجاوز فيه الشكور حد الإمكان، فقد وضح أن من البر ما لا يؤدي شكره، ومن هذا قول أبي نواس:

حتى أقوم بشكر ما سلفا

لا تسدين إلى عارفة

وهذا سيد المرسلين الذي بعث بجوامع الكلم، وهو أفصح من نطق بالضاد بقول لعظمة نعم ربه عليه: "لا أحصى ثناء عليك". ومعلوم أن نعم الله سبحانه لا يقوم شكر جميع العباد بمعشارها، ولا كذلك نعم بعضهم على بعض لكن يشبه شكر أحدنا نعمة صاحبه إلى شكر الرسول صلى الله عليه وسلم نعمة ربه كنسبة نعم بعضنا على بعض إلى نسبة نعم الله تعالى سبحانه على نبيه أو على عبد من عبيده، وإن كانت نعم الله تعالى على نبيه أعظم من نعمه على سائر خلقه، بدليل قوله تعالى: "وكان فضل الله عليك عظيماً" لأن بين بلاغة أحدنا وبين بلاغة الرسول كما بين نعمة أحدنا ونعمة الله سبحانه، وإذا وقع للقضية مثال واحد في الوجود علم إمكان وقوعها، وخرجت بذلك من حد الاستحالة والامتناع إلى حد الجواز والإمكان.

والمذهب المرضي أن المبالغة ضرب من المحاسن إذا بعدت عن الإغراق والغلو، وإن كان الإغراق والغلو أيضاً ضربين من المحاسن إذا اقترنا، وعييين إذا أطلقا، ألا ترى كل مبالغة وقعت في الكتاب العزيز كيف أتت على قسمين: قسم ممكن غير مقترن، وقسم غير ممكن لا يأتي إلا مقترناً، كقوله سبحانه: "يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار" وفي غير الممكن كقوله سبحانه: "سواء منكم من أسر القول ومن جهر به" الآية، لأن المبالغة فيها عرفية، معناه أن علم ذلك متعذر عنكم، وإلا فهو بالنسبة إلى علم الله سبحانه ليس بمبالغة، وقد قال امرؤ القيس في غير الممكن طويل:

من الذر فوق الإتب منها لأثرا

من القاصرات الطرف لو دب محول

ولأن قوة الشعر وضعفه وماءه ورونقه أمر خارج عن البديع جملة، والمحاسن بته، قرب شعر في غاية الجودة ونهاية القوة مع كونه قد بلغ فيه قائله إلى حد الإغراق أو الغلو، ورب شعر في غاية الرداءة مع الخلو عن هذين الضربين، فإن الكلام يكون جيداً بدون البديع، ورديثاً مع وجوده، فإنكار المبالغة في الكلام القوي الجيد ما لا سبيل إليه.

وأما قول من قال: إن الكلام لا يحسن بدون المبالغة فإن لم يحمل كلامه على التقيد، وإلا فهو محال بين الإحالة، وأحسب قائل هذا ذهب إلى التمييز بين كلامين استويا في خفة مفردات الألفاظ وتوسط استعمالها وحسن تركيبها وخلو الكلام بعد التركيب عن العيوب جملة وتفصيلاً، وتماثلاً في جودة المعنى وتمامه، وكثرة الماء فيهما، وتحلياً من البديع بما أتى الطبع به عفواً من غير تكلف ولا تعسف، وقد بولغ في أحدهما مبالغة مرضية والآخر لم يبالغ فيه، فإن ما بولغ فيه أفضل من الآخر، وأكثر النقاد على أن خير الكلام ما كان متوسطاً بين الغلو والاقتصاد والسلامة والمتانة الغرابة والاستعمال والتصنع والاسترسال، وما أحسن قول البحثري فيما قدمته من هذا الكلام حيث قال يصف لفظ بعض الكتاب خفيف:

ك امرؤ أنه نظام فريد

في نظام من البلاغة ما شك

حك في رونق الربيع الجديد

وبديع كأنه الزهر الضا

وتجنبن ظلمة التعقيد

حزن مستعمل الكلام اختياراً

ن به غاية المرام البعيد

وركن اللفظ القريب فأدرك

باب التشبيه

التشبيه عبارة عن العقد على أن أحد الشيئين يسد مسد الآخر في حال أو عقد، هكذا حد الرماني، وهذا هو التشبيه العام الذي يدخل تحته التشبيه البليغ وغيره، ثم إن الرماني بعد حده قال: والتشبيه تشبيهان: تشبيه شيئين متفقين بأنفسهما كتشبيه الجوهر بالجوهر، كقولك: ماء النيل مثل ماء الفرات، وتشبيه العرض بالعرض كقولك: حمرة الخد كحمرة الورد، وتشبيه الجسم بالجسم كقولك: الزبرجد مثل الزمرد، وتشبيه شيئين مختلفين بالذات يجمعهما معنى مشترك بينهما: كقولك، حاتم كالغمام، وعنترة كالضرغام، والتشبيه المتفق تشبيه حقيقة، والتشبيه المختلف تشبيه مجاز للمبالغة.

وحد التشبيه البليغ إخراج الأغمض إلى الأظهر بالتشبيه مع حسن التأليف، ووقوع حن البيان فيه على وجوه، منها: إخراج ما لا تقع عليه الحاسة كقوله تعالى: "والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً" فهذا بيان إخراج ما لا تقع عليه الحاسة إلى ما تقع عليه الحاسة،

وقد اجتمعا في بطلان التوهم مع شدة الحاجة، ولو قيل: يحسبه الرائي ماء لكان بليغاً، وأبلغ منه لفظ القرآن لأن الظمان أشد حرصاً عليه، وأكثر تعلق قلب به، وتشبيه أعمال الكفار بالسراب من أحسن التشبيه، فكيف تضمن مع ذلك حسن النظم وعذوبة الألفاظ وصحة الدلالة. ومنها إخراج ما لم تجربه العادة إلى ما جرت به العادة، كقوله تعالى: "وإذا نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة" وهذا بيان قد أخرج ما لم تجربه العادة إلى ما جرت به العادة، وقد اجتمعا في معنى الارتفاع في الصورة. ومنها إخراج ما لا يعلم بالبدية إلى ما يعلم بالبدية، كقوله تعالى: "وجنة عرضها كعرض السماء والأرض" وهذا بيان قد أخرج ما لا يعلم بالبدية إلى ما يعلم بالبدية، وقد اجتمعا في العظم وحصل من ذلك الوصف التشويق إلى الجنة بحسن الصفة وإفراط السعة.

ومنها إخراج ما لا قوة له في الصفة إلى ما له قوة في الصفة، كقوله تعالى: "وله الجوار المنشآت في البحر كالأعلام" وهذا بيان قد أخرج ما لا قوة له في الصفة إلى ما له قوة في الصفة، وقد اجتمعا في العظم إلا أن الجبال أعظم، وفي ذلك العبرة من جهة القدرة فيما سخر الله من الفلك الجارية على الماء مع عظمها ولطفه، وما في ذلك من الانتفاع بحملها الأثقال، وقطعها الأقطار البعيدة في المسافة القريبة. ومنها إخراج الكلام بالتشبيه مخرج الإنكار كقوله تعالى: "أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر" وهذا إنكار على من جعل حرمة الجماد كحرمة من آمن بالله، وفي ذلك أوفى دلالة على تعظيم حال المؤمن بالإيمان، وأنه لا يساوي به مخلوق ليس على صفته بالقياس. واعلم أن الشيء لا يشبه بنفسه ولا بغيره من كل وجه، فإن الشئيين إذا تشابها من جميع الجهات اتحدا، ولا يشبه الشيء بما هو دونه في الصفة الجامعة بينهما. والتشبيه الصناعي على ضربين: تشبيه بأداة، وتشبيه بغير أداة وفائدته قرب المشبه من المشبه به. وأدوات التشبيه خمسة: الكاف، وكأن، وشبه؛ ومثل، والمصدر، بتقدير الأداة. وفي المصادر ما لا يمكن تقدير الأداة فيه كقول الشاعر بسيط:

فإنما هي إقبال وإدبار

أي ذات إقبال وذات إدبار.

وفي التشبيه نوع آخر لا بد من تقدير الأداة فيه كقوله تعالى: "وأزواجه أمهاتهم" وهو من غير القسمين أعني قسمي المصادر فالذي بالأداة قوله تعالى: "مثل نوره كمشكاة فيها مصباح" وكقول امرئ القيس طويل:

مهفهفة ببضاء غير مفاضة

ترائبها مصقولة كالسجنجل

والذي بغير أداة كقوله سبحانه: "وهي تمر مر السحاب" وكقول حسان كامل:

بزجاجة رقصت بما في قعرها

رقص القلوص براكب مستعجل

وكل ضرب من هذين الضريين مقسم تسعة أقسام: وهذه الأقسام على ضربين أيضاً: ضرب متحد، وضرب متعدد، فالمتحد ينقسم وفق عدد أدوات التشبيه الخمس من تشبيه شيء بشيء، إلى تشبيه شيء بخمسة أشياء. والمتعدد أربعة أقسام: من تشبيه شيئين بشيئين، إلى تشبيه خمسة بخمسة، فشهد تشبيه شيء بشيء قول امرئ القيس طويل:

وجيد كجيد الرئم ليس بفا حش

إذا هي نصته ولا بمعطل

وشاهد تشبيه شيء واحد بشيئين قوله أيضاً طويل:

وتعطو برخص غير شثن كأنه

أساريع رمل أو مساويك إسحل

وشاهد تشبيه شيء واحد بثلاثة أشياء قول البحترى سريع:

كأنما يبسم عن لؤلؤ

منضد أو برد أو أقاح

وتشبيه شيء واحد بأربعة أشياء قول امرئ القيس متقارب:

كأن المدام وصوب الغمام

وريح الخزامى ونشر القطر

يعل به برد أنيابها

إذا غرد الطائر المستحر

وتشبيه شيء واحد بخمسة أشياء مثل قول الحريري بسيط

يفتر عن لؤلؤ رطب وعن برد

وعن أقاح وعن طلح وعن حبيب

وأما تشبيه شيئين بشيئين من المتعدد فكقول امرئ القيس طويل:

كأن قلوب الطير رطباً ويابساً

لدي وكرها العناب والحشف البالي

وتشبيه ثلاثة بثلاثة قول ابن المعلى "مجتث":

ليل وبدر وغصن

شعر ووجه وقد

خمر ودر وورد

ريق وثغر وخذ

وتشبيه أربعة بأربعة قول امرئ القيس طويل:

له أبطا ظبي وساقا نعامة

وإرخاء سرحان وتقريب تنفل

ولقد غير أبو نواس في وجهه حيث قال سريع:

وتمسح الورد بعناب

تبكي فتذري الطل من نرجس

فإن بيته أخصر وزناً وأبر حسناً وأقصر معنى.
وشاهد خمسة بخمسة قول أبي الفرج الوأواء بسيط

وردأ وعضت على العناب بالبرد

فأمطرت لؤلؤاً من نرجس فسقت

وعندي أن بيت الوأواء هو عين بيت أبي نواس وإنما حصلت فيه زيادة التشبيه لاتساع وزنه، فثبت الفضل لبيت أبي نواس بالسبق إلى نفس المعنى ونفس التشبيه.
واعلم أن زيادة التشبيه بما زاد في بيت أبي الفرج الوأواء عن اللفظ لاتساع الوزن.

ومن التشبيه نوعان آخران أحدهما تكون أدواته أفعال الظن واليقين كقولك: حسبت زيدياً في جرأته الأسد، وعمراً في جوده الغمام والجارية في حسنها القمر، فحاصل ذلك تشبيه الجريء بالأسد، والحواد بالغمام، والجارية بالقمر، ومنه في الكتاب العزيز قوله تعالى: "وتحسبهم أيقاظاً وهم رقود" حاصل ذلك تشبيه أهل الكهف في حال نومهم بحال الأيقاظ، ومن ذلك في الشعر قول شاعر الحماسة طويل:

وكنا حسبنا كل بيضاء شحمة .

وذلك أنه لما كانت الشحمة بيضاء شبهوا كل بيضاء بها، وأخرج ذلك مخرج المثل.
والنوع الآخر من التشبيه هو الذي يسمى تشبيه التوليد والتمثيل كقول الكميت بسيط

كما دماؤكم يشفي بها الكلب

أحلامكم لسقام الجهل شافية

باب عتاب المرء نفسه

وهو من أفراد ابن المعتز، ولم ينشد فيه سوى بيتين ذكر أن الأمدى أنشدهما له عن الجاحظ طويل:

أمرت ومن يعص المجرب يندم

عصاني قومي في الرشاد الذي به

أرى عارضاً ينهل بالموت والدم

فصبراً بني بكر على الموت إنني

وما أرى في هذين البيتين من عتاب المرء نفسه إلا ما يتحيل به لمعناهما، فيقدر أن هذا الشاعر لما أمر بالرشد وبذل النصح ولم يطع ندم على بذل النصيحة لغير أهلها، وملزوم ذلك عتابه لنفسه فيكون دلالة البيتين على عتابه لنفسه دلالة التزام لا دلالة مطابقة ولا تضمين.

ومثل هذين البيتين قول دريد بن الصمة طويل:

ورھط بني السوداء والقوم شهدي

نصحت لعراض وأصحاب عارض

وقلت لهم: ظنوا بألفي مدجج
سراتهم في الفارسي المسرد
فلما عصوني كنت منهم وقد أرى
غوايتهم وأنني غير مهتد
وما أنا إلا من غزية إن غوت
غويت وإن ترشد غزية أرشد
أمرتهم أمري بمنعرج اللوى
فلم يستبينوا النصح إلا ضحى الغد

ولا يصلح أن يكون شاهد هذا الباب إلا قول شاعر الحماسة طويل:

أقول لنفسي في الخلاء ألومها
لك الويل ما هذا التجلد والصبر
وكنول ابن السليماني من شعراء الحماسة طويل:
لعمرك إنني يوم سلع للائم
لنفسي ولكن ما يرد التلوم
أأمكنت من نفسي عدوى ضلة
ألهفي على ما فات لو كنت أعلم

وقد جاء من هذا الباب في كتاب الله قوله سبحانه وتعالى: "يا حسرتي على ما فرطت في جنب الله" والله أعلم.

باب حسن الابتداءات

هذه تسمية ابن المعتز، وأراد بها ابتدئات القصائد، وقد فرع المتأخرون من هذه التسمية براعة الاستهلال، وخصوا بها ابتدء المتكلم بمعنى ما يريد تكميله ولقد وقع في أثناء القصيدة.

وقد روى أن أحسن ابتدء ابتدأ به مولد قصيدة قول إسحاق بن إبراهيم الموصلي، حيث يقول خفيف:

هل إلى أن تنام عيني سبيل
إن عهدي بالنوم عهد طويل

ومن إنشادات ابن المعتز في هذا الباب قول النابغة الذبياني طويل:

كليني لهم يا أميمة ناصب
وليل أفاسيه بطيء الكواكب

ولعمري لقد أحسن ابن المعتز الاختيار، فإني أظنه نظر بين هذا الابتدء وبين ابتدء امرئ القيس في معلقته حيث قال طويل:

قفا نبك من ذكرني حبيب ومنزل
بسقط اللوى بين الدخول فحومل

فرأى أن ابتدء امرئ القيس على تقدمه وكثرة معاني ابتدءاته متفاوت القسمين جداً، لأن صدر البيت جمع بين عدوبة اللفظ وسهولة السبك، وكثرة المعاني بالنسبة إلى العجز ما لم يجمع العجز، فإن ألفاظ العجز غريبة بالنسبة إلى ألفاظ الصدر، والعجز أقل معان من الصدر بخلاف بيت النابغة، فإنه لا تفاوت

بين قسميه البتة، فبيت امرئ القيس وإن كان أكثر معان من بيت النابغة، فبيت النابغة أفضل، من جهة ملاءمة ألفاظه، ومساواة قسمية، ومثل بيت النابغة قول زهير طويل:

صحا القلب عن سلمى وأقصر باطله **وعرى أفراس الصبا ورواحله**

فإن قسمي هذا البيت متلائمان، فإن لفظ كل واحد منهما متوسط بين الغرابة والابتدال، وفي كل قسم منهما استعارتان، فقد تساويا في اللفظ والمعنى كبيت النابغة، وهذا من قول امرئ القيس طويل:

خليلي مرا بي على أم جندب **نقضي لبانات الفؤاد المعذب**

وإنما عظم ابتداء معلقة امرئ القيس في النفوس الاقتصار على سماع صدر البيت، فإنه يشغل الفكر بحسنه عن النظر في ملاءمة عجزه أو عدم ملاءمته، وهو الذي قيل عند سماعه للمنشد: حسبك، فإن قائل هذا الكلام أشعر الناس، لأنه وقف واستوقف، وبكى واستبكى وذكر الحبيب والمترل في شطر بيت ولم يستنشد العجز منه شغلاً بحسن الصدر عنه، وإذا تأمل الناظر في نقد البيت بكماله ظهر له تفاوت القسمين، فعلم جملة أن الابتداء غير موصوف بحسن الابتداء، إذ حسن الابتداء عبارة عن ملاءمة القسمين.

ومن جيد ابتداءات المولدين قول أبي نواس وهو في غاية الحسن طويل:

خليلي هذا موقف من متيم **فعوجاً قليلاً وانظراه يسلم**

وقوله طويل:

لمن دمن تزداد حسن رسوم **على طول ما أقوت وطيب نسيم**

ومن إنشادات ابن المعتز لأبي تمام بسيط

يا بعد غاية دمع العين إذ بعدوا **هي الصبابة طول الدهر والكد**

وإذا وصلت إلى قول البحري طويل:

بودي لو يهوى العذول ويعشق **ليعلم أسباب الهوى كيف تعلق**

وصلت إلى الغاية التي لا تدرك، وما سمع أشد مباينة كبيت جميل وهو قوله: طويل

ألا أيها النوم ويحكم هبوا **أسائلكم ل يقتل الرجل الحب؟**

وهذا البيت الذي قال فيه الرشيد إما للمفضل الضبي أو غيره: هل تعرف بيتاً نصفه بدوي في، شمله وباقيه مخنث في بذلة فأنشده البيت فاستحسن ذكره.

ولقد أحسن أبو الطيب ما شاء في قوله خفيف:

تحسب الدمع خلقة في المآقي

تراها لكثرة العشاق

لو لم يكدر صفوه ويقبح حسنه بقوله:

راءها غير جفنها غير راقى

كيف ترثي التي برى كل جفن

وأكثر ابتداءات أبي العلاء المعري تأتي على سنن الصواب، كقوله: بسيط

لعل بالجزع أعوانا على السهر

يا ساهر البرق أيقظ راقد السمر

وكقوله طويل:

ببغداد وهنا ما لهن ومالي

طربن لضوء البارق المتعالي

وقوله طويل:

وفي النوم مغنى من خيالك محلال

مغاني اللوى من شخصك اليوم أطلال

وكقوله خفيف:

نوح باك ولا ترنم شاد

غير مجد في ملتي واعتقادي

فهذه أمثلة ابتداءات القصائد.

وأما أمثلة براعة الاستهلال فمنها قول محمد بن الحياض طويل:

ولم أدر أن الجود من كفه يعدي

لمست بكفي كفه أبتغي الغنى

أفدت وأعداني فأنفدت ما عندي

فلا أنا منه ما أفاد ذوو الغنى

ولقد أحسن البحثري اتباعه في هذا المعنى حيث قال كامل:

بخلي فأفقرني كما أغناني

أعدت يداه يدي وشرد جوده

منه فأعطيت الذي أعطاني

ووثقت بالخلق الجميل معجلاً

وإذا نظرت إلى فواتح السور الفرقانية حملها ومفرداتها رأيت من البلاغة والتفنن في الفصاحة ما لا تقدر العبارة على حصر معناه، ومن أراد الوقوف على ذلك فليقف على كتابي المنعوت بالخواطر السوانح في كشف أسرار الفواتح والله أعلم.

باب صحة الأقسام

وهذا أول أبواب قدامة وصحة الأقسام عبارة عن استيفاء المتكلم أقسام المعنى الذي هو آخذ فيه، بحيث لا يغادر منه شيئاً، ومثال ذلك قوله تعالى: "هو الذي يريكم البرق خوفاً وطمعاً" وليس في رؤية البرق إلا

الخوف من الصواعق، والطمع في الأمطار، ولا ثالث لهذين القسمين.
ومن لطيف ما وقع في هذه الجملة من البلاغة تقديم الخوف على الطمع، إذ كانت الصواعق تقع من أول برقة، ولا يحصل المطر إلا بعد توافر البرقات، فإن تواترها لا يكاد يكذب ولهذا كانت العرب تعد سبعين برقة وتنتجع، فلا تخطئ الغيث والكأ، والى هذا أشار المتنبي بقوله وافر:

وقد أرد المياها بغير هاد سوى عدي لها برق الغمام

فلما كان الأمر المخوف من البرق يقع من أول برقة، أتى ذكر الخوف في الآية الكريمة مقدماً أولاً، ولما كان الأمر المطمع إنما يقع من البرق ناسخاً للخوف، لحيء الفرج بعد الشدة، والميسرة بعد الأمر المخوف، أتى ذكر الطمع في الآية الكريمة ثانياً، وليكون الطمع بعد الحزن رحمة من الله سبحانه وتعالى بخلقه، وبشرى بحسن العاقبة لعباده، وقد أتى ابن رشيق بهذه الآية من شواهد التفسير، لما كان قوله سبحانه خوفاً وطمعاً كان مفسراً رؤية البرق، وهو قريب.
ومما جاءت صحة الأقسام فيه مدحجة في المقابلة من الكتاب العزيز قوله سبحانه: "فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون، وله الحمد في السموات والأرض وعشياً وحين تظهرون" وقد اعترضت المطابقة بين القسمين المتقابلين واستوعبت أقسام الأوقات من طرفي كل يوم ووسطه.
ومن بديع صحة التقسيم قول علي عليه السلام: "أنعم على من شئت تكن أميره، واستغن عن من شئت تكن نظيره، واحتج إلى من شئت تكن أسيره" فإنه استوعب أقسام الدرجات العليا والسفلى والوسطى، وأقسام أحوال الإنسان وبين الفضل والنقص والكفاف وأتى في ضمن ذلك الطباق بين الغنى والحاجة والمناسبة في أميره ونظيره وأسيره.

ومثال صحة الأقسام من الكتاب العزيز أيضاً قوله: "الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم" فلم يترك سبحانه قسماً من أقسام الهيئات حتى أتى به، ومثل هذه الآية آية يونس وهي قوله تعالى: "وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً" لكن وقعت بين ترتيب الآيتين مغايرة أوجبها البلاغة، فتضمن الكلام بها الائتلاف، وذلك أن الذكر يجب فيه تقديم القيام لأن المراد به الصلاة والله أعلم.
والقيام واجب فيها للمستطيع، والقعود بعده عند العجز عن القيام، والاضطجاع عند العجز عن القعود، والضرر يجب فيه تقديم الاضطجاع، وإذا زال بعض الضرر قعد المضطجع، وإذا زال كل الضرر قام القاعد فدعا لتمام الصحة وتكامل القوة، ويحصل التصرف، فإن قلت: هذا التأويل لا يتم إلا إذا كانت الواو هي العاطفة فلم عدل عنها وبها يحصل في الكلام حسن النسق وائتلاف الألفاظ مع المعاني إلى أو التي يسقط

معها ذلك؟ قلت: تأثير الضر على أقسام: فإن من الضر ما يصرع المضرور عند وروده، ومنه ما يقعه، ومنه ما يأتي وصاحبه قائم ولا يبلغ به شيئاً من هذه الحالات، والدعاء عند أول مس الضر، فإن الضر والجرع عند الصدمة الأولى، فوجب العدول عن الواو لأو لتوخي الصدق في الخبر، والكلام على ذلك موصوف بالائتلاف وبحسن النسق، والخبر بذلك التأويل الأول عن شخص واحد، وبالتأويل الثاني عن أشخاص، فغلبت الكثرة، فوجب الإتيان بأو، وابتدئ بالشخص الذي يصرعه، لأن ضره أشد، فهو أكثر تضرعاً فوجب تقديم ذكره لأن تقديمه الأهم، وإذا تقدم ذكر المضطجع أوجب حسن الترتيب أن يليه ذكر القاعد وأن يلي ذكر القاعد ذكر القائم، فحصل حسن الترتيب، وائتلاف الألفاظ بمعانيها، وترجح مجيء أو على مجيء الواو، ولا تدل عليه من تعدد المضطرين دون الواو.

وكقوله: "يهب لمن يشاء إناًً ويهب لمن يشاء الذكور أو يزوجهم ذكراناً وإناًً ويجعل من يشاء عقيماً" لأنه سبحانه إما أن يفرد العبد: هبة الإناث أو هبة الذكور أو يجمعهما له، أو لا يهبه شيئاً، ووقعت صحة الأقسام في هذه الآية على ترتيب البلاغة، وهو الانتقال من الأدنى إلى الأعلى فقدم هبة الإناث لثقل منها إلى أعلى منها، وهي هبة الذكور، ثم انتقل إلى أعلى منها وهي هبة الإناث والذكور، فجاءت كل أقسام العطية بلفظ الهبة، وأفرد معنى الحرمان بالتأخر لأن أفضاله على عباده أهم من حرمانه إياهم، وتقديم الأهم أولى، وقال في معنى الحرمان: ويجعل عادلاً عن لفظ الهبة لتأتي الألفاظ ملائمة للمعاني قياساً على قوله تعالى: "أفأنتم ما تحرثون أنتم تزرعونه أم نحن الزارعون لو نشاء لجعلناه حطاماً" وهكذا الاعتداد بالماء والنار، فأتى لفظ العطاء بلفظ الزرع، ومعنى الحرمان بلفظ الجعل.

وفي السنة من صحة الأقسام قول رسول الله عليه الصلاة والسلام "ليس لك من مالك إلا ما أكلت فأفئيت، أو لبست فألبيت، أو تصدقت فأمضيت" ولا رابع لهذه الأقسام.

ووقف أعرابي على حلقة الحسن البصري فقال: رحم الله من تصدق من فضل، أو واسى من كفاف، أو أثر من قوت: فقال الحسن: ما ترك الأعرابي منكم أحداً حتى عمه بالمسئلة. ومن أمثلة هذا الباب الشعرية قول نصيب طويل:

نعم وفريق ليمن الله ما ندري

فقال فريق القوم لا وفريقهم

فليس في أقسام الإجابة غير ما ذكر.

وقال بشار طويل:

قتيل، ومثل لاذ بالبحر هاربه

فراح فريق في الإسار، ومثله

وأوجز من هذا في معناه قول عمرو بن الأهتم خفيف:

من قتيل وهارب وأسير

اشربا ما شربتما فهذيل

ومن جيد صحة الأقسام قول شاعر الحماسة طويل:

به الدار أو من غيبته المقابر

وهبها كشيء لم يكن أو كنازح

فلم يبق في تقسيم المعدوم شيئاً حق ذكره، لأن الشيء إما مقدراً لم يوجد، أو قد وجد و عدم إما بالتروح أو بالفناء، وكقول أبي تمام في الأفشين وقد أحرقت كامل:

ميتاً، ويدخلها مع الفجار

صلى لها حيا وكان وقودها

والبارع في هذا الباب قول عمرو بن كلثوم وافر:

ونضرب بالسيوف إذا غشيننا

نطاعن ما تراخى الصف عنا

وأحسب أن أول من نطق بصحة التقسيم زهير حيث قال: طويل

ولكنني عن علم ما في غد عمي

وأعلم ما في اليوم والأمس قبله

ونقل أبو نواس هذا المعنى من الجدل إلى الهزل، فقال في الحوض على الشرب منسرح:

وأمس قد مر فاسل عن أمس

أمر غد أنت منه في لبس

فباكر الشمس بابنة الشمس

وإنما الشأن شأن يومك ذا

و كنت أظن أن زهيراً هو المبتدئ بصحة التقسيم حتى عثرت على قول امرئ القيس طويل:

وليس بذي سيف وليس بنبال

وليس بذي رمح فيطعنني به

فاستوعب آلات القتال، ورتبها في البيت على ما يكون عليه في الحرب من الأفضل فالأفضل. فتمت صحة التقسيم بجميع شروطها كما ترى، وما ألفت قول بعض المغاربة خفيف:

ليت شعري متى؟ وكيف؟ وأينا؟

شغل الدهر من لقاء حبيب

فاستوعب أقسام الظروف الزمانية والمكانية، وكيف التي يسأل بها عن الأحوال.

والنادر في صحة الأقسام قول عمر بن أبي ربيعة طويل:

ولا الحبل موصول ولا أنت مقصر

تهيم إلى نعم فلا الشمل جامع

ولا بعدها يسلى ولا أنت تصبر

ولا قرب نعم إن دنت لك نافع

باب صحة المقابلات

صحة المقابلات عبارة عن توكي المتكلم ترتيب الكلام على ما ينبغي، فإذا أتى بأشياء في صدر كلامه أتى بأضدادها في عجزه على الترتيب، بحيث يقابل الأول بالأول، والثاني بالثاني لا يخرم من ذلك شيئاً في المخالف والموافق، ومضى أخل بالترتيب كان الكلام فاسد المقابلة، وقد تكون المقابلة بغير الأضداد. والفرق بين المقابلة والمطابقة من وجهين: أحدهما أن المقابلة لا تكون إلا بالجمع بين ضدين فذيين، والمقابلة تكون غالباً بالجمع بين أربعة أضداد: ضدان في صدر الكلام، وضدان في عجزه، وتبلغ إلى الجمع بين عشرة أضداد: خمسة في الصدر، وخمسة في العجز. والثاني أن المطابقة لا تكون إلا بالأضداد، والمقابلة تكون بالأضداد وبغير الأضداد.

ومن معجز هذا الباب قوله تعالى: "ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله" فانظر إلى مجيء الليل والنهار في صدر الكلام، ثم قابلهما في عجز الكلام بضدين، وهما السكون والحركة على الترتيب، ثم عبر عن الحركة بلفظ الإرداف، فاستلزم الكلام ضرباً من المحاسن زائداً على المقابلة، وعدل عن لفظ الحركة إلى لفظ ابتغاء الفضل لكون الحركة تكون لمصلحة ولمفسدة، وابتغاء الفضل حركة المصلحة دون المفسدة، وهي تشير إلى الإعانة بالقوة، وحسن الاختيار الدال على رجاحة العقل وسلامة الحس، وإضاءة الظرف الذي تلك الحركة المخصوصة واقعة فيه، ليهتدي المتحرك إلى بلوغ المأرب، ويتقي أسباب المهالك، والآية سبقت للاعتداد بالنعم، فوجب العدول عن لفظ الحركة إلى لفظ هو ردفه وتابعه ليتم حسن البيان، فتضمنت هذه الكلمات التي هي بعض آية عدة من المنافع والمصالح، التي لو عددت بألفاظها الموضوعية لها لاحتاجت في العبارة عنها إلى ألفاظ كثيرة. فحصل في الكلام بهذا السبب عدة ضروب من المحاسن، ألا تراه سبحانه جعل العلة في وجود الليل والنهار حصول منافع الإنسان، حيث قال: "لتسكنوا ولتبتغوا" بلام التعليل، فجمعت هذه الكلمات المقابلة، والتعليل، والإشارة، والإرداف، وائتلاف اللفظ مع المعنى، وحسن البيان، وحسن النسق، فلذلك جاء الكلام متلائماً آخذة أعناق بعضها بأعناق بعض، ثم أخبرن بالخبر الصادق أن جميع ما عدده من النعم بلفظه الخاص، وما تضمنته العبارة من النعم التي تلزم من لفظ الإرداف بعض رحمته، حيث قال بحرف التبعية: "ومن رحمته" وكل هذا في بعض آية عدتها عشر كلمات، فالحظ هذه البلاغة الباهرة والفصاحة المتظاهرة.

ومن أمثلة صحة المقابلات قول الرسول صلى الله عليه وسلم: "ما كان الرفق في شيء إلا زانه، ولا الخرق في شيء إلا شانه" فقابل عليه السلام الرفق بالخرق، والزين بالشين بأحسن ترتيب وأتم مناسبة بين الرفق

والخرق ولفظتي شانه وزانه.

ومن أمثلة صحة المقابلات الشعرية قول القائل أحسبه كثيراً في مقابلة الأضداد من أناشيد قدامة طويل:

فوا عجباً كيف اتفقنا فناصر وفي ومطوي على الغل غادر

فإن هذا الشاعر لما قدم ذكر النصح والوفاء في صدر البيت، قابلهما بذكر الغل والغدر في عجزه على الترتيب، لا، الغل ضد النصح، والغدر ضد الوفاء. وقد وقع في مقابلة الأضداد ما جمع بين ستة أضداد وهو بيت أنشده أبو دلامة للمنصور، وقد سأله عن أشعر بيت في المقابلة فأنشده بسيط

ما أحسن الدين والدنيا إذا اجتمعا وأقبح الكفر والإفلاس بالرجل

فإن الشاعر قابل أحسن بأقبح، والدين بالكفر، والدنيا بالإفلاس، فجمع بيته ما لم يجمعه بيت قيل قبله في التقابل، ولا خلاف في أنه لم يقل قبله مثله، وأما بعده فقد غير المتنبي في وجوه الناس بقوله بسيط

أزورهم وسواد الليل يشفع لي وأنتي وبياض الصبح يغري بي

فإنه جمع بين عشر مقابلات، قابل أزور بأنتي، وسواداً ببياض، والليل بالصبح، ويشفع بيغري، ولفظة لي بلفظة بي على الترتيب، ولا أعلم في باب التقابل أفضل من هذا البيت لجمعه من المقابلات ما لم يجمعه بيت لشاعر قبله ولا بعده إلى يومنا هذا، مع ما فيه من تمكين قافيته، بخلاف البيت الذي أنشده أبو دلامة، فإن قافيته مستدعاة لكون حسن الأشياء التي ذكرها، وقبحها لا يختص بالرجل دون المرأة، والمعنى قد تم بدون ذكر الرجل، ولو كان لما اضطر إلى القافية التي أفاد بها معنى زائداً بحيث يقول: بالبشر لكان البيت نادراً، غير أن المقابلة التي في البيت الذي أنشده أبو دلامة أفضل من المقابلة التي في بيت أبي الطيب، لأن المقابلة التي في البيت الأول بالأضداد، والتي في بيت المتنبي بالأضداد وبغير الأضداد، والمقابلة بالأضداد أفضل مراعاة للاشتقاق، لأن التقابل: التضاد والتناقض، فبيت المتنبي فضل بالكثرة والبيت الأول أفضل بجودة المقابلة، وقد أنشد بعض المؤلفين في هذا الباب قول أبي نواس طويل:

أرى الفضل للدنيا وللدين جامعاً كما السهم فيه الفوق والريش والنصل

وزعم أن هذا البيت فاسد المقابلة من جهة أنه قابل الدنيا والدين الذين هما طرفان بطرفي السهم، وهما الفوق والنصل، ونفي الريش لا مقابل له، وعندني أن البيت صحيح المقابلة، لأن أبا نواس قصد أن الممدوح جمع من الدين والدنيا ما ينتفع به، وما لا بد للعاقل المكلف منه، وهما طرفا نقيض، كما جمع طرفا السهم ما لا غنى بالسهم عنه، لأن الفوق موضوع الوتر، والريش الموصل، والنصل المصمى، فشبه الممدوح بالسهم الجامع لمصالح الطرفين، ولما كان الريش والفوق في طرف واحد كانا معاً مقابلين

للنصل، إذ هو في الطرف الآخر، ولم يضر تعدادهما. وهو يريد الطرف الجامع لهما على أن الإخلال بصحة التقسيم في ظاهر اللفظ لا يفسد صحة المقابلة، فرب كلام وقع في ظاهر لفظه إخلال ببعض أقسامه، لكون ذلك القسم لم يذكر فيه بالفعل، وكان مذكوراً فيه بالقوة في باطنه، فجاء ظاهر لفظه يوهم الإخلال وهو بريء منه، كما جاء في قوله تعالى: "الشیطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً" فقدم في صدر الكلام أمران: الوعد بالفقر، والأمر بالفحشاء، ثم قابل الشيطان في الظاهر بشيء واحد وهو الوعد. فأوهم أنه أحل بذكر الأمر، وليس كذلك، وإنما لما كان الفضل مقابلاً للفقر، والمغفرة مقابلة للأمر بالفحشاء لأن الفحشاء توجب العقوبة. والمغفرة تقابل العقوبة، استغنى بذكر المقابل عن ذكر مقابله، لأن ذكر أحدهما ملزوم ذكر الآخر، ومثل ذلك من الشعر الفصيح قول القائل وافر:

أسرناهم وأنعمنا عليهم
وأسقينا دماءهم الترابا
فما صبروا لبأس عند حرب
ولا أدوا لحسن يد ثواباً

فإن ظاهر لفظ البيتين يؤذن بأن الشاعر أحل بمقابل قوله:

وأسقينا دماءهم الترابا

لأنه قابل اليأس بسلب الصبر، والإنعام بنفي الثواب، وليس الأمر كذلك لأن القتل والأسر داخلان في بأس الحرب، فهما شيء واحد وإن تعدد مقابلهما معاً بالصبر، لأنه يكون عليهما. والله أعلم.

باب صحة التفسير والتبيين

وهو أن يأتي المتكلم في أول الكلام، أو الشاعر في بيت من الشعر. بمعنى لا يستقل الفهم. معرفة فحواه دون أن يفسر، إما في البيت الآخر، أو في بقية البيت إن كان الكلام الذي يحتاج إلى التفسير في أوله. ووقوع التفسير من الكلام على أنحاء: بعد الشرط، وما هو في معناه، وبعد الجار والمجرور، وبعد المبتدأ الذي التفسير خبره. فمثال ما وقع منه بعد الحروف المتضمنة معنى الشرط قول الفرزدق طويل:

لقد جنّت قوماً لو لجأت إليهم
طريد دم أو حاملاً ثقل مغرم
لألفيت منهم معطياً ومطاعناً
وراءك شزراً بالوشيح المقوم

ومثال ما جاء بعد الجار والمجرور قول الحسين بن مطير الأسدي كامل:

وله بلا حزن ولا بمسرة
ضحك يواصل بينه وبكاء

وكلا الرجلين - أعني الفرزدق وابن مطير - لم يراعيا الترتيب، وإن كان عدم الترتيب مع حسن الجوار وقرب الملائم لا ينقص به حسن الكلام البليغ، بل هو عندي نوع من صحة التفسير، ألا ترى إلى قوله تعالى: "يوم تبيض وجوه وتسود وجوه، فأما الذين اسودت وجوههم" ثم قال بعد ذلك: "وأما الذين ابيضت وجوههم" ومثل ذلك قول الله تعالى: "بسم الله الرحمن الرحيم" فإنه لما قدم ذكر الأبلغ على ما دونه - وطريق البلاغة الترقى - نعلم من هذا الترتيب أن توخي الملاءمة، وحسن الجوار أولى من حسن الترتيب، إذ كان اسم الله تعالى يختص به دون بقية أسماءه، وكان الرحمن وصفاً مختصاً به دون بقية صفاته، فأتبع الأخص بالأخص، ولتوخي الملاءمة ومراعاة حسن الجوار عدل عن الإيضاح، وتعتمد التقديم والتأخير الذي هو أحد الوجوه الثلاثة التي يحصل بها الإشكال، فإن التزليل لو كان في آية الطهارة، "فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وأرجلكم إلى الكعبين وامسحوا برؤوسكم" لم تختلف العلماء في المسح والغسل، لكن القصد إلى نظم الكلام على الوجه الأحسن من مجاورة الملائم بالملائم ليكون لفظ الكلام مؤتلفاً مع معناه، عدل عن ذلك الترتيب إلى التقديم والتأخير، لأن كل من وصف وضوء رسول الله صلى الله عليه وسلم ووضوء أصحابه والتابعين لهم بإحسان لم يرو أن أحداً منهم غسل رجله قبل مسح رأسه، وإذا علم أن مسح الرأس مقدم على غسل الرجلين علم أن الواجب غسل الرجل من حيث إنه سبحانه قدم ذكر مسح الرأس، ليعلمنا ترتيب غسل الأعضاء في الوضوء كما كانت في الغسل، فإن الغسل يختم فيه بغسل الرجلين، ولما أخر ذكر الرجلين أتى بالتحديد ليعلم أن الأمر فيهما معطوف على الأعضاء المغسولة، لا على العضو الممسوح، فإن المسح لم تضرب له غاية احتراساً ممن يظن أن الرجل ممسوحة، ولعربية الشافعي ومعرفته بكنهه بلاغة العرب أوجب الترتيب في الوضوء، لكون الآية جاءت مرتبة للأعضاء، ولم يحفل بالتقديم والتأخير، وإن أوجب لبساً تكالفاً على ما في التحديد من دفع ذلك اللبس. وما سمعت ولا غيري بمستمع كقول الله سبحانه وتعالى: "سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون" فإن صحة التقسيم اندرجت في صحة التفسير، واندمج الترتيب والتهذيب في صحة التقسيم، وحصل الائتلاف من حصول الترتيب، إذ قدم سبحانه النبات، وثنى بأشرف الحيوان، فكان غيره من الحيوان بطريق أولى، ثم ثلث بقوله: "ومما لا يعلمون" فاندرج تحت هذا العموم كل ما اختص الله بعلمه من المولدات الثلاث، بل من جميع المخلوقات من كل موجود سوى الله، فحصل الترقى على سنن الفصاحة، والمشى على نهج البلاغة وأتت الفاصلة في غاية التمكن، فالآية الكريمة لذلك تصلح أن تكون شاهداً للتفسير، والتقسيم، والتهذيب، والائتلاف، والتمكين، وإنما

خصصت بها باب التفسير، لأنه أول مذكور فيها، ومنه تتفرع بقية ما انطوت عليه من المحاسن، ولقد أحسن ابن شرف القيرواني في التفسير الواقع بعد الجار والمجرور حيث قال طويل:

لمختلفي الحاجات جمع ببابه
فهذا له فن وهذا له فن
فللخامل العليا وللمعدم الغنى
وللمذنب العتبي وللخائف الأمن

ون أناشيد قدامة فيما جاء من التفسير بعد الحروف المتضمنة معنى الشرط قول صالح بن جناح اللخمي طويل:

لئن كنت محتاجاً إلى الحلم إنني
إلى الجهل في بعض الأحيان أحوج

ثم فطن الشاعر إلى أنه أجمل في قوله: وإن كنت محتاجاً إلى الحلم، فإنني في بعض الأوقات إلى الجهل أحوج، ولم يبين كونه إذا احتاج إلى الجهل واضطر له هل يقدر على أن يجهل؟ فقال في البيت الثاني طويل:

ولي فرس للحلم بالحلم ملجم
ولي فرس للجهل بالجهل مسرج

فبين أن عنده حلم لمن يعامله بالحلم، وجهل لمن يعامله بالجهل، وهذا بسط قول عمرو بن كلثوم وافر:

ألا لا يجهلن أحد علينا
فنجهل فوق جهل الجاهلينا

لكن بيت ابن جناح أمشى على سنن العدل من بيت ابن كلثوم لاستضاءته بنور القرآن العزيز، وتأدبه بأدبه لأنه عقد بالوزن قوله تعالى: "فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم". ثم فطن - أعني ابن جناح - إلى كونه لم يتبين العلة التي توجهه إلى الجهل، فقال في البيت الثالث طويل:

فمن شاء تقويمي فإني مقوم
ومن شاء تعويجي فإني معوج

ومثال ما جاء من التفسير بعد خير المبتدئ بشرط أن يكون المفسر مجملاً والمفسر له مفصلاً قول ابن الرومي كامل:

أراؤكم ووجوهكم وسيوفكم
في الحادثات إذا دجون نجوم
منها معالم للهدى ومصابيح
تجلو الدجى والأخريات رجوم

وهذا أفضل ما سمعته في باب التفسير من الشعر، فإنه راعى فيه الترتيب أحسن مراعاة، فلو كمله بأن يستوعب فيه أقسام منافع النجوم بأن يضيف إلى ما ذكره سقياها الأرض، حصل في بيته صحة التقسيم مع صحة التفسير، وإن كان هذا غير لازم للشاعر، لكنه لو اتفق له ذلك كان أحسن. ولما لحظت ذلك

خطر لي أن أعمل معناه على ما وقع لي من صحة التقسيم مع صحة التفسير، فقلت في شرف الدين حسن بن سناء الملك؛ طويل:

لآبائك الماضين يا حسن الندى
وجوه وآراء وشهب عزائم
صفات بها لا غير تعلو المراتب
وأيد بديجور الخطوب كواكب
يماط الدجى منها ويهدي بها الورى
ويرحم من يجنى وتسقى السحائب

ومن بديع التفسير قول أبي جعفر الخراز النظيري من نظر بلنسية، من شعراء المائة السادسة في ابن عباد طويل:

وما زلت أجنبي منك والدهر محل
ثمار أياد دانيات قطوفها
ولا ثمر يجني ولا زرع يحصد
لأغصانها ظل علي ممدد
يرى جارياً ماء المكارم تحتها
وأطيار شكري فوقهن تغرد

ون التفسير نوع لا تعرف صحته، لأنه يأتي مفسراً لشيء مقدر في النفس، لم يجز له ذكر في الكلام الذي تقدم، لكنه يكون ملزوم الكلام المتقدم من ظاهر اللفظ، ولأن المفسر لا تنحصر تفاصيله كقول المتنبى كامل:

وجلا الوداع من الحبيب محاسناً
فيد مسلمة وطرف شاخص
حسن العزاء وقد جلين قبيح
وحشاً يذوب ومدمع مسفوح

وذلك أن البيت الثاني لا يصلح أن يكون تفسيراً للبيت الأول، لأن البيت الأول أشار إلى صفات الحبيب، والبيت الثاني يشير إلى أحوال المحب، وإنما لما قال في البيت الأول إن الوداع جلا من الحبيب محاسناً قبح عند رؤيتها، كان كأنه قدر في نفسه أنه عندما تحقق مقارنة تلك المحاسن بقيت حاله على ما شرحه وفسره في البيت الثاني.

ومن مليح التفسير وبديعه قول محمد ابن وهيب في المعتصم بسيط

ثلاثة تشرق الدنيا ببهجتها
شمس الضحى وأبو إسحاق والقمر

ولقد أحسن مجد الملك بن شمس الخلافة حين تناول هذا المعنى ما شاء، فإنه وطأ له توطئة ملائمة، لو اقتصرنا في تفضيله عليها كانت كافية لا سيما وقد زاد فيه زيادة غير خافية عن ذي بصيرة حيث قال كامل:

شيطان حدث بالقساوة عنهما
قلب الذي يهواه قلبي والحجر

البحر والملك المعظم والمطر

وثلاثة بالجو حدث عنهم

وكذاك خير العقد واسطة الدرر

لكن واسطة الثلاثة خيرها

ومن التفسير ضرب يأتي في حشو البيت وهو غريب في التفسير، لأن غالب مجيء التفسير إما في عجز البيت، أو في بيت آخر، وهو قول عمرو بن كلثوم وافر:

أقر به مواليك العيوننا

ويوم كريهة طعناً وضرباً

فقوله: "طعناً وضرباً" تفسير ليوم الكريهة.

ومن لطيف التفسير وغريبه تفسير وقع بعد الإخبار، وهو غير الأقسام المتقدمة، وذلك قول أبي حية النميري طويل:

بأحسن موصولين: كف ومعصم

فألقت قناعاً دونه الشمس واتقت

والمعنى من قول النابغة الذبياني كامل:

فتناولته واتقتنا باليد

سقط النصيف ولم ترد إسقاطه

وبيت أبي حية أجزل لفظاً، وأتم معنى، وأحسن رونقاً ودياجة.

ومن ملوح التفسير الذي وقع في بيت قول بعض المغاربة بسيط

أسد ومزن وأقمار وأجبال

صالوا وجالوا وضأؤوا واحتبوا فهم

فإنه أحسن فيه الترتيب، ووقع التفسير في عجز البيت كله، والمفسر في الصدر كل بحيث أتى كل قسم مستقلاً بنفسه، وجمع إلى ذلك المساواة، فإن لفظه طبق معناه، ومن التفسير نوع يتقدم التفسير فيه على المفسر، كقول زينب بنت زياد المؤدب من شواعر العرب طويل:

وما لهم عندي وعندك من ثار

ولا أبى الواشون إلا فراقنا

وقلت حماتي عند ذاك وأنصاري

وشنوا على أسماعنا كل غارة

ومن نفسي بالسيف والماء والنار

غزوتهم من مقلتيك وأدمعي

فقولها: من مقلتيك وأدمعي ومن نفسي تفسير لبقية البيت.

ومن معجز التفسير ما جاء في الكتاب العزيز منه كقوله تعالى: "والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجلين ومنهم من يمشي على أربع" فذكر سبحانه الجنس الأعلى أولاً حيث قال: "كل دابة" فاستغرق أجناس كل ما دب ودرج. ثم فسر هذا الجنس بعد ذلك بالأجناس المتوسطة والأنواع، حيث قال: فمنهم، ومنهم، ومنهم مراعياً للترتيب وذلك أنه قدم ما يمشي بغير آلة

لكون الآية سيقت لبيان القدرة وتعجب السامع، وما يمشي بغير آلة أعجب مما يمشي بآلة، فلذلك كان تقديمه ملائماً لمقصود الآية، ثم ثنى بالأفضل فالأفضل، فأتى بما يمشي على رجلين، وهو الآدمي والطائر، لتمام خلق الإنسان وكمال حسن صورته، ولما في الطائر من عجب الطيران الدال على الخفة، مع ما فيه من كثافة الأرضية، وثالث بما يمشي على أربع لأنه أحسن الحيوان البهيم وأقواه، تغليباً له على ما يمشي على أكثر من الأربع من الحشرات، وإن كان داخلياً فيما يمشي على الأربع، وإنما خص ذلك بالذكر دونه لفضله عليه، فاستوعب الأقسام، وأحسن الترتيب، فتضمنت هذه الكلمات التي هي بعض آية عدة من المحاسن، وهي صحة التفسير وصحة التقسيم، مع مراعاة الترتيب، والإشارة، واتتلاف اللفظ مع المعنى وحسن النسق.

باب اتتلاف اللفظ مع المعنى

ذا الباب ذكره قدامة وترجمه منفرداً، ولم يبين معناه، وشرحه الآدمي فأطال، ولم توف عبارته بإيضاحه؛ وتلخيص معنى هذه التسمية أن تكون ألفاظ المعنى المطلوب ليس فيها لفظة غير لائقة بذلك المعنى، ومثال ذلك قوله سبحانه: "إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب" فعدل سبحانه عن الطين الذي أحرر في كثير من مواضع الكتاب العزيز أنه خلق آدم منه، منها قوله تعالى: "إني خالق بشراً من طين" وقوله سبحانه حكاية عن إبليس: "خلقته من نار وخلقته من طين" فعدل عز وجل. وهو أعلم. عن ذكر الطين الذي هو مجموع الراب والماء إلى ذكر مجرد التراب، لأنه أدنى العنصرين، وأكتنفهما لما كان المقصود مقابلة من ادعى في المسيح الإلهية بما يصغر أمر خلقه عند من ادعى ذلك، فهذا كان الإيتان بلفظة التراب أمتن بالمعنى من غيرها من العناصر ولو كان موضعه غيره لكان اللفظ غير مؤتلف بالمعنى المقصود، ولما أراد سبحانه الامتنان على بني إسرائيل بعيسى عليه السلام أخبرهم عنه أنه يخلق لهم من الطين كهيئة الطير تعظيماً لأمر ما يخلق به إذنه، إذ كان المعنى المطلوب الاعتماد عليهم بخلقهم ليعظموا قدر النعمة به. ومن اتتلاف اللفظ مع المعنى أن يكون اللفظ جزلاً إذا كان المعنى فخماً، وريقاً إذا كان المعنى رقيقاً، وغرساً إذا كان المعنى غريباً بحتاً، ومستعملاً إذا كان المعنى مولداً محدثاً، كقول زهير طويل:

ونؤبأ كجذم الحوض لم ينتلم

أثافي سفعا في معرس مرجل

ألا أنعم صباحاً أيها الربع وأسلم

فلما عرفت الدار قلت لربعها

فإن زهيراً لما قصد إلى تركيب البيت الأول من ألفاظ تدل على معنى عربي لكن المعنى غير غريب، ركبه من ألفاظ متوسطة بين الغرابة والاستعمال، ولما قصد في البيت الثاني إلى معنى أبين من الأول وأعرف وإن

كان غريباً ركبته من ألفاظ مستعملة معروفة.

ومن شواهد هذا القسم من الائتلاف من الكتاب العزيز قوله تعالى: "قالوا تالله تفتأ تذكر يوسف حتى تكون حرضاً أو تكون من الهالكين" فإنه سبحانه أتى بأغرب ألفاظ القسم بالنسبة إلى أخواتها، فإن والله وبالله أكثر استعمالاً وأعرف عند الكافة من تالله لما كان الفعل الذي جاور القسم أغرب الصيغ التي في بابه، فإن كان وأخواتها أكثر استعمالاً من تفتأ وأعرف عند الكافة، ولذلك أتى بعدهما بأغرب ألفاظ الهلاك بالنسبة، وهي لفظة حرض ولما أراد غير ذلك قال في غير هذا الموضع "وأقسموا بالله جهد أيمانهم" لما كانت جميع الألفاظ مستعملة وعلى هذا فقس. والله أعلم.

ومن هذا الباب ملاءمة الألفاظ في نظم الكلام على مقتضى المعنى، لا من مجرد جملة اللفظ، فإن الائتلاف من جهة ما قدمنا من ملاءمة الغريب للغريب والمستعمل للمستعمل، لا من جهة المعنى، بل ذلك من جهة اللفظ.

وأما الذي من جهة المعنى فقوله تعالى: "ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار" فإنه سبحانه لما نهى عن الركون للظالمين، وهو الميل إليهم، والاعتماد عليهم، كان ذلك دون مشاركتهم في الظلم، أخبر أن العقاب على ذلك دون العقاب على الظلم، وهو مس النار، دون الإحراق والاصطلاء، وإن كان المس قد يطلق ويراد به الاستئصال بالعذاب وشمول الثواب أكبر مجازاً، ولما كان المس أول ألم أو لذة يبشرها المسوس جاز أن يطلق على ما يدل عليه استصحاب تلك الحال مجازاً، والحقيقة ما ذكرناه وهو في هذه الآية الكريمة على حقيقته، والله عز وجل أعلم.

باب المساواة

وهذا الباب مما فرعه قدامة من الباب المتقدم عليه، وشرحه بأن قال: هو أن يكون اللفظ مساوياً للمعنى حتى لا يزيد عليه ولا ينقص عنه وهذا من البلاغة التي وصف بها بعض الوصاف بعض البلغاء فقال: كانت ألفاظه قوالب لمعانيه، ومعظم آيات الكتاب العزيز كذلك، ومنها قوله تعالى: "إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون" فإن قيل: معظم هذه الآية من باب الإشارة، لأن العدل والإحسان والفحشاء والمنكر على قلة هذه الألفاظ تدل على معاني من أفعال البر وضدها لا تنحصر، ولا معنى للإشارة إلا دلالة اللفظ القليل على المعاني الكثيرة، فكيف تجتمع المساواة والإشارة؟ قلت: المساواة تطلق ويراد بها معنيان: أحدهما أن تكون ألفاظها ألفاظ المعنى الموضوعه له، فتلك هي التي لا تزيد على المعنى ولا تقصر عنه، وهي التي لا تجتمع مع الإشارة ولا

الإرداف ولا غيرهما من الكلام الذي لفظه أقل من معناه، والثاني أن يكون لفظ الكلام غير لفظ معناه الموضوع له، كالإشارة والإرداف وما جرى هذا المجرى، فإن كانت كذلك ولم يأت المتكلم في أثناء الكلام وخلاله بلفظة زائدة على لفظ المقصد الذي قصده لإقامة وزن أو لاستدعاء قافية أو تميم معنى، أو لإيغال أو سجعة، فتلك أيضاً مساواة لأن لكل باب لفظاً يخصه، فمتى زاد على ذلك اللفظ الدال على ذلك المعنى المقصود كان الكلام غير موصوف بالمساواة.

ومن هذا الباب في الكتاب العزيز قوله تعالى: "وقيل يا أرض ابلعي ماءك" الآية فإن قيل: لفظة القوم في قوله تعالى: "وقيل بعداً للقوم الظالمين" زائدة يمنع الآية أن توصف بالمساواة، فإنه لو قال وقيل بعداً للظالمين أجزأ. قلت: لما سبق قوله تعالى: "وكلما مر عليها ملاً من قومه" وقوله سبحانه: "ولا تخاطبني في الذين ظلموا" أوجبت البلاغة أن يقول في آخر الكلام: "بعداً للقوم الظالمين"، ولو اقتصر سبحانه على لفظة الظالمين دون لفظة القوم لتوهم متوهم أن آلة التعريف في الظالمين للجنس وهو خلاف المراد، فإن المراد بالظالمين هاهنا قوم نوح الذين قدم ذكرهم ووصفهم بالظلم، ونها عن المخاطبة فيهم ليرتد عجز الكلام على صدره، ويعلم أن المدعو عليهم هم الذين تقدم ذكرهم احتراساً من وقوع هذا التوهم، ولا يحصل ذلك إلا بذكر القوم فقد صار الإتيان بما يفيد معنى لم يفده الكلام بدونها.

واعلم أن البلاغة قسمان: إيجاز، وإطناب، والمساواة معتبرة في القسمين معاً، فأما الإيجاز فكقوله تعالى: "ولكم في القصص حياة" والإطناب في هذا المعنى كقوله: "ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً فلا يسرف في القتل" وكقوله سبحانه في قسم الإيجاز من غير هذا المعنى: "خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين" وكقوله تعالى في الإطناب: "إن الله يأمر بالعدل والإحسان" الآية، ولا بد من الإتيان بهذا الفصل لئلا يتوهم أن الإطناب لا يوصف بالمساواة. ومن شواهد المساواة قول امرئ القيس متقارب:

وإن تبعثوا الحرب لا نقعد

فإن تكتموا الداء لا نخفه

وإن تقصدوا لدم نقصد

وإن تقتلونا نقتلكم

وكقول زهير طويل:

وإن خالها تخفى على الناس تعلم

ومهما تكن عند امرئ من خليقة

وكقول طرفة طويل:

ويأتيك بالأخبار من لم تزود

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً

باب الإشارة

وهو أيضاً مما فرعه قدامة من ائتلاف اللفظ مع المعنى، وشرحه بأن قال: هو أن يكون اللفظ القليل مشتقاً على المعنى الكثير بإيماء أو لمحة تدل عليه، كما قال بعضهم في صفة البلاغة: هي لمحة دالة، وشرح هذا الحد أنها إشارة المتكلم إلى معاني كثيرة بلفظ يشبهه.. لقلته واختصاره بإشارة اليد، فإن المشير بيده يشير دفعة واحدة إلى أشياء لو عبر عنها بلفظ لاحتاج إلى ألفاظ كثيرة جداً، ولا بد في الإشارة من اعتبار صحة الدلالة وحسن البيان مع الاختصار، لأن المشير بيده إن لم يفهم المشار إليه معناه بأسهل ما يكون، فأشارته معدودة من العبث، ولهذا قال هند ابن أبي هالة في وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يشير بكفه كلها وإذا تعجب قلبها، وإذا حدث اتصل بها فضرب براحته اليمنى باطن إبهامه اليسرى" فوصفه ببلاغة اليد كما وصفه ببلاغة اللسان، يعني أنه يشير بيده في الموضوع الذي تكون فيه الإشارة أولى من العبارة، وهذا حذق بمواضع المخاطبات. وقوله: "كلها" أي يفهم بها المخاطب كل ما أراد به بسهولة فإن الإشارة ببعض الكف تصعب، وبكل الكف تسهل، فأعلمنا هذا الوصاف أنه صلى الله عليه وسلم كان سهل الإشارة، كما كان سهل العبارة.

وهذا ضرب من البلاغة الذي يمتدح بمثله، وهو أيضاً من بلاغة الواصف إذ أشار بقوله: كلها إلى كل المقصود الذي تدل عليه الإشارة، ومن حذق الواصف إتيانه بلفظ الإشارة في الوصف، لما أراد أن يصف الإشارة البدئية وقسمها قسمين: قسماً للسان وقسماً لليد، وقوله: "وإذا تعجب قلبها"، يعني أنه يشير بها على وجهها إذا كان المعنى الذي يشير إليه على وجهه ليس فيه ما يستغرب فيعجب منه، فإن الشيء المعجب إنما يكون معجباً لكونه غير معهود، فكأن الأمر فيه قد قلب لمخالفته المعهود، فلذلك يجعل صلى الله عليه وسلم قلب يده في وقت الإشارة إشارة إلى أن هذا الأمر قد جاء على خلاف المعهود، ولذلك تعجب منه. وقوله "وإذا حدث اتصل بها" يعني اتصل حديثه بها فيكون المعنى متصلاً، والمفهوم بالعبارة والإشارة متلاحماً، آخذة أعناق بعضه بأعناق بعض، وقوله: "فضرب براحته اليمنى باطن إبهامه اليسرى" يعني أنه عند انتهاء إشارته يضرب براحته اليمنى باطن إبهامه اليسرى مشيراً إلى أنه ختم الإشارة، لأن الإبهام بما يجتم القبض، ولذلك عطف هذه الجملة بالفاء، ولم يأت بها معطوفة بالواو، كما أتى بما قبلها من الجمل لكونها آخر إشارته، والواو لكونها غير مقتضية للترتيب، يجوز أن يكون المتأخر بها متقدماً ولا كذلك الفاء، إذ لا بد أن يكون المعطوف بها متأخراً لكونها موضوعة للتعقيب.

وأما اقتصاره على باطن الإبهام دون ظاهرها فمعناه أنه جعل آخر الإشارة متصلاً بأول العبارة اتصالاً متلائماً كملاءمة باطن الكف التي ضرب بها باطن الإبهام التي ضرب عليها، وهذه أيضاً من بلاغة الواصف رضي الله عنه ومن شواهد الإشارة في الكتاب العزيز قوله تعالى: "وغيض الماء" فإنه سبحانه

أشار بهاتين اللفظتين إلى انقطاع مادة الماء من مطر السماء ونبع الأرض، وذهاب الماء الذي كان حاصلًا على وجه الأرض قبل الإخبار إذ لو لم يكن ذلك لما غاض الماء. وكقوله سبحانه: "فيها ما تشتهيهِ الأنفس وتلذ الأعين" فالمرح كل ما تميل النفوس إليه من الشهوات وتلذذه الأعين من المرئيات، لتعلم أن هذا اللفظ القليل جداً عبر عن معان كثيرة لا تنحصر عدداً. وكذلك قوله تعالى: "فانبذ إليهم على سواء". بمعنى قابلهم بما يفعلونه معك، وعاملهم بمثل معاملتهم لك سواء مع ما تدل عليه لفظة سواء من الأمر بالعدل، ومثل هذا المعنى قول زهير وافر:

لكان لكل منكراً كفاء

فإني لو لقيتُك واتجهنا

يعني: قابلت كل منكراً منك بكفتها.

وإذا علمت ذلك فانظر ما بين هذا البيت وبين قوله تعالى: "فانبذ إليهم على سواء" لتعلم فرق ما بين الكلامين.

ومن أمثلة هذا الباب قول امرئ القيس وافر:

فذلهم أنالك ما أنا لا

بعزهم عززت وإن يذلوا

فانظر كم تحت قوله: أنا لك ما أنا لا من أنواع الذل، وكذلك قوله للمسيب كامل:

حتى أموت وفضله الفضل

ولأشكرن غريب نعمته

عند المضيق وفعلك الفعل

أنت الشجاع إذا هم نزلوا

فالحظ كم تحت قوله وفضله الفضل بعد إخباره بأنه يشكر غريب نعمته حتى يموت من أصناف المدح، وترجيح فضله على الشكر، وفي قوله غريب نعمته غاية المدح، إذ جعل نعمته نعمة لم يقع مثلها في الوجود قط، وكذلك قوله: وفعلك الفعل بعد إخباره بتزول القوم عند المضيق الدال على صبرهم وشجاعتهم، وما في ذلك من ترجيح شجاعة الممدوح عليهم. وكذلك قوله في صفة الفرس طويل:

أفانين جرى غير كز ولا وان

على هيكل يعطيك قبل سؤاله

فإنه أشار بقوله أفانين جرى إلى جميع صنوف عدو الخيل المحمودة والذي يدل على أنه أراد الأفانين المحمودة، نفيه عن الفرس الكروزة والونى، فسلبه صفات القبح من الجماح والحرن والاسترخاء والفتور، وجعله يعطي هذا الجري عفواً من غير طلب ولا حث، وهذا كمال الوصف وتمام النعت، ولو عدت هذه المعاني بألفاظها الموضوعية لها لاحتيج في العبارة عنها إلى ألفاظ كثيرة.

ومن الإشارة نوع يقال له اللحن والوحي، وهو يجمع العبارة والإشارة ببعده لا يفهم طريقه إلا ذو فهم، كما قال الشاعر كامل:

ولقد وحيت لكم لكيما تفتنوا ولحنت لحناً ليس بالمرتاب

ومثال ذلك ما حكى عن رجل من بلعبر، أسر في بكر بن وائل فسأهم أن يرسل إلى قومه؛ فقالوا: ترسل بحضرتنا، وخافا أن يندرهم، فإنهم عزموا على غزو قومه، فحضرُوا وأحضرُوهُ عبداً، فقال له: أتعتقل؟ قال: إني لعاقل، فأشار إلى الليل، وقال: ما هذا؟ فقال: الليل؛ فقال: أراك عاقلاً، فملاً كفه من الرمل وقال: كم عدد هذا؟ فقال: لا أدري وإنه لكثير، فقال: أيها أكثر: النجوم، أم النيران؟ فقال: إن كلا لكثرة، فقال: إيت قومي، وأقرئهم السلام وقل لهم: أكرموا فلاناً فإن قومه لي مكرمون، يعني أسيراً كان عند قومه من بكر بن وائل، ثم قل لهم: إن العرفج قد أوفى وقد اشتكت النساء، ومرهم أن يعرفوا ناقتي الحمراء، فقد أطلوا ركوبها، ويركبوا جملي الأصبه، وبأية ما أكلت معكم حيساً وسلوا عن خبري أخي الحارث، فلما قال لهم العبد ذلك قالوا: لقد جن الأعور والله ما له ناقة ولا جمل، فلما سألوا أخاه سأل العبد عما قال له أولاً فأخبره، فشرحه، وقال لهم: قد أنذركم، أما الليل فإنه أشار إلى أنكم في عمياء مظلمة، وأما الرمل فإنه أشار إلى أنكم تغزون بمثل عدده، وأما النجوم والنيران، فأشار بذلك إلى كثرة عدد عدوكم، وأما قوله: أوفى العرفج فإنه أشار إلى أن العدو قد استلأموا وركبوا، وأما قوله: اشتكت النساء، أي اتخذوا القرب للغزو، وأما الناقة الحمراء فعني الدهناء، وقوله أطلتم ركوبها، إشارة إلى أنكم قد عرفتم بإيظانها لطول مقامكم بها فأمركم أن ترحلوا عنها، وتزلوا الصمان، وهو الحمل الأصبه الذي أمركم بركوبه، ففعلوا فسلموا، وأما الحيس، فإشارة إلى أن عدوكم قد جمع لكم أخلاطاً كما جمع الحيس السمن والتمر والأقط والله أعلم.

ومن أمثلة الوحي والإشارة بضرب من الاستعارة قول يزيد بن الوليد مروان بن محمد، وقد بلغه عنه تلكؤه عن بيعته: أراك تقدم رجلاً وتؤخر أخرى، فإذا قرأت كتابي هذا فاقعد على أيهما شئت. ومن ذلك قول الحجاج للمهلب: إن فعلت وإلا أشرعت لك صدر الرمح، فقال المهلب متى أشرع الأمير إلى صدر الرمح قلبت له ظهر المجن.

ومن شواهد الشعرية قول امرئ القيس طويل:

وما ذرفت عينك إلا لتضربي بسهميك في أعشار قلب مقتل

وقوله عمرو بن معد يكرب طويل:

فلو أن قومي أنطقنتي رماحهم نطقت ولكن الرماح أجرت

وكقول شاعر الحماسة طويل:

دفنتم بصحراء الغمير القوافيا

بني عنما لا تنبشوا الشعر بعدما

وكقول الآخر طويل:

أمعشر تيم أطلقوا من لسانيا

أقول وقد شدوا لساني بنسعة

وكل هذا من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد أنشده العباس بن مرداس متقارب:

أتجعل نهبي ونهب العبيد

فقال: يا علي، أقطع لسانه عني، فأخذ علي بيده فأخرجه، فقال أقطع لساني يا أبا الحسن؟ فقال: إني لمض فيك ما أمر، وكل هذا من قوله تعالى: "فما أصبرهم على النار" ويدخل في هذا قوله عز وجل: "وثيابك فطهر" أي بدنك، قال الأصمعي: في تفسير هذا الحرف: تقول العرب فدى لك ثوبي، يريدون نفسه، وأنشد وافر:

فدى لك من أخي ثقة إزارى

ألا أبلغ أبا حفص رسولا

وقال عترة كامل:

ليس الكريم على القنا بمحرم

فشككت بالرمح الطويل ثيابه

باب الأرداف والتتبع

هذا الباب مما فرعه قدامة أيضاً من ائتلاف اللفظ مع المعنى، وسماه هذه التسمية، وشرح تسميته بأن قال: هو أن يريه المتكلم معنى فلا يعبر عنه بلفظه الموضوع له، ويعبر عنه بلفظ هو ردفه وتابعه أي قريب من لفظه قرب الرديف من الردف، مثل قوله تعالى: "واستوت على الجودي" فإن حقيقة ذلك وجلست على هذا المكان، فعدل عن لفظ المعنى الخاص به إلى لفظ هو ردفه، وإنما عدل عن لفظ الحقيقة لما في الاستواء الذي هو لفظ الإرداف من الإشعار بجلوس متمكن لا زيغ فيه ولا ميل، وهذا لا يحصل من قولك جلست أو قعدت أو غير ذلك من ألفاظ الحقيقة، إذ كان المراد والله أعلم الإخبار ينفي الأسباب الموجبة خوف أهل السفينة من السفينة في حالتي حركتها وسكونها، وذلك لا يحصل حتى يفهم السامع أنها جلست جلوساً متمكناً لا يميل فيه يوجب الخوف، ولا يحصل إلا بلفظ الاستواء دون غيره، وقد جاء في السنة من أمثلة هذا الباب قول النبي صلى الله عليه وسلم حكاية عن بعض النسوة في حديث أم زرع حيث قالت: "زوجي رفيع العماد، عظيم الرماد، قريب البيت من المناد" فإنها أرادت مدح زوجها بتمام الخلق والتقدم على قومه ونهاية الكرم، ولو عبرت عن هذه المعاني بألفاظها لاحتاجت بإزاء كل معنى لفظاً

يخصه، فتكثر الألفاظ، ولا يدل كل لفظ إلا على معناه فقط، وألفاظ الإرداف كل لفظ منها يدل على جميع ما أرادت من صفات المدح على انفراد، لا، قولها رفيع العماد يدل على تمام الخلق إذ بناء البيوت على مقادير أجسام الداخلين لها غالباً، ويدل على عظم قدر صاحبه، إذ لا يقدر على أن يرفع بيته على البيوت إلا من قدره مرتفع على الأقد، ارويديل على الكرم أيضاً، لأن الوفود والضيغان يعمدون إلى قصد البيوت المرتفعة دون بيوت الصرم وكذلك عظم الرماد يدل على عظم القدر وعظم الكرم وكثرة الثروة، ومثله قولها "قريب البيت من الناد" ليسبق إلى الضيف، لأن الضيف يقصد النادي، وهو موضع مجمع رجال الحي للحديث، فإذا كان البيت قريباً منه كان صاحبه إلى الضيف أسبق، ولا تحصل هذه المعاني إلا من لفظ الإرداف، فإن قيل: فإذا كانت كل لفظة من ألفاظ الإرداف تدل على عدة معان فما الفرق بين الإرداف والإشارة؟ قلت: لفظ الإرداف يتضمن مع الدلالة على المعاني الكثيرة زيادة مدح للمدوح، ووصف للموصوف، ولفظ الإشارة لا يتضمن إلا الدلالة على كثرة المعاني فقط. ومن شواهد هذا الباب الشعرية قول امرئ القيس طويل:

ويضحى فنتيت المسك فوق فراشها نؤوم الضحى لم تنتطق عن تفضل

فإنه أراد أن يصف هذه المرأة بأنها مخدومة، لها من يكفيها أمر بيتها، فعبر عن ذلك بلفظ يدل على أنها موصوفة بالنعمة ودقة البشرة واقتبال الشباب وكثرة الحظوة وعظم الثروة، فعدل عن لفظ هذا المعنى الذي أراده إلى لفظ هو ردفه حيث قال: طويل

ويضحى فنتيت المسك فوق فراشها نؤوم الضحى..... ..

لأنها لا تنام الضحى إلا وهي مخدومة عندها من يكفيها أمر بيتها، فهي لا تباشر الأعمال، ولذلك تكون منعمة مرفهة غير شظفة ولا ممتهنة، ألا تراه أكد ذلك بقوله: "لم تنتطق عن تفضل" أي لم تشد في وسطها نطاقاً على ثوبها الذي تنام فيه كفعل من يريد أن يعمل عملاً من النساء، ودل قوله:

ويضحى فنتيت المسك فوق فراشها

على أنها حظية عند الرجال المثرين، وأنهم في غاية الميل إليها مع القدرة بالثروة على الاستكثار من حرائر النساء ومن الإماء، إما لإفراط جمالها، أو لسعد جدها، وأنها ممن يسمح لها من أعلى الطيب وأغلاه بما يبقى فتيته في صبيحة كل ليلة على فراشها، بعد ما يتصعد منه ويلصق بجسمها. ويعلق بشعرها وبشرتها؛ ولا يعطي قوله: إن هذه المرأة لها من يخدمها جميع ما يعطيه قوله: "نؤوم الضحى" فإن هذا اللفظ مع دلالة على أنها مخدومة يدل على كثرة النوم الذي لا يكون إلا من غلبة الدم الطبيعي في سن النمو،

وطبيعة الدم حارة رطبة، وهي طبع الحياة ومادتها. فيكون اللون به مشرقاً، والماء في الوجه كثيراً، والأخلاق حسنة، لأجل اعتدال المزاج، ولو ترك لفظ الإرداف وعبر عما قصده باللفظ الخاص وهو قوله: إنها مخدومة لم تحصل هذه المعاني التي حصلت من لفظ الإرداف، وكذلك لو قال: إنها من أهل الثروة لم يوف بما أراد من كونها معشقة للمثريين من الرجال، مع القدرة بالثروة على الاستكثار من النساء، وأما من يسمح لها بذلك، فوجب العدول عن لفظ المعنى إلى لفظ الإرداف، لدلالته مع اختصاره على المعاني التي لا يدل عليها لفظ الحقيقة، ولما يتضمن من زيادة الوصف، وقد انتحل ابن رشيق أحد أسمى هذا الباب وهو التتبع وأفرده باباً من الإرداف، وزعم أن غيره واستشهد عليه بشواهد فيها ما لا يمس به البتة، وبقيتها لا يعقل الفرق بينه وبين شواهد الإرداف، وهو يظن أنه قد فرق بينهما منها قول المتنبى طویل:

إلى كم ترد الرسل عما أتوا له كأنهم فيما وهبت ملام

وقال: أعني ابن رشيق دل هذا البيت على الشجاعة بلفظ الإرداف، ودل على الكرم بلفظ التتبع يعني أن الإرداف اشتقاقه من الردف فلفظه أقرب إلى لفظ المعنى؛ والتتبع: من التابع، والتابع يكون قريباً ويكون بعيداً. ويعد ذلك على قدامة من أغاليطه وهو أولى بالغلط منه، لأن التتبع وإن كان في نفس الأمر كما ظنه لكنه في هذا الموضع أراد به التابع القريب بدليل أنه ذكره بلفظ التفعيل الدال على النكتتين، ولو لم يقصد ذلك لقال: الإتياع دون البعيد فإن الألفاظ إذا كانت من أجل الموضع تدل على معنيين بحيث لا يتخلص إلى أحدهما دون الآخر إلا بقريضة، كانت حال اقتراها بالقرائن مخلصاً للمعنى الذي تدل عليه القريضة.

وقدامة أتى بلفظ التتبع مقترناً بالإرداف، فعلم أنه أراد التابع القريب والرديف تابع قريب، فلا فرق بينهما في هذا الموضع.

وأما بيت المتنبى الذي أتى به ابن رشيق ليكون دليلاً له فهو دليل عليه، لأنه عكس ما فسره به، وذلك أن اللفظ الدال فيه على الكرم هو الذي يجب أن يسمى إردافاً لأنه أقرب إلى لفظ الكرم، لكونه صرح فيه بلفظ الهبة، واللفظ الدال على الشجاعة بعيد من لفظ الشجاعة بالنسبة إلى لفظ الكرم، وقدامة رأى الفصحاء قد دلوا تارة على مقاصدهم بألفاظ قريبة من الألفاظ الموضوعية لتلك المقاصد، وطوراً بألفاظ بعيدة من الألفاظ الموضوعية لتلك المقاصد فسمي الأول إردافاً، والثاني تمثيلاً، لأن المثل وإن وجد قريباً من المثل وبعيداً فلا يبلغ قرب التابع القريب ولا الرديف، وسيأتي بيان ذلك في الباب الذي يلي هذا الباب، والله أعلم.

وأخذ ابن الأثير يؤيد ما ذكره ابن رشيق بأن قال: وفي الألفاظ ما يدل على المعنى بظاهره، وفيها ما يدل على المعنى بتأويله، والأول هو الإرداف، والثاني هو التتبع، ومثال الأول قول عمر بن أبي ربيعة طويل:

بعيدة مهوى القرط إما لنوفل أبوها وإما عبد شمس وهاشم

وقال: بعد مهوى القرط يفهم منه طول العنق بغير تأويل، بخلاف قول المتنبي:

إلى كم ترد الرسل عما أتوا له

فإن صدر هذا البيت لا يدل على الشجاعة بظاهره، وإنما يدل عليها بالتأويل. ولو رأى ضياء الدين رحمه الله كتابه الذي سماه تزييف النقد، يرد به على قدامة رأى كتاباً يحلف الحالف صادقاً أنه ما تكلم فيه بحرف واحد إلا وهو مطبق الجفون ليس له وقت إفاقة ألبتة. وأما كلامه في هذا الفصل فما هو عندي بالبعيد من كلامه في هذا الكتاب الذي أشرت إليه.

وأما قول ضياء الدين رحمه الله تعالى: إن مهوى القرط يدل على طول العنق بغير تأويل، فكل مميز من بني آدم يعلم أن قولنا: طويلة العنق يفارق قولنا: بعيدة مهوى القرط من جهة أن الأول علامة لطول العنق، متى سمع فهم منه هذا المعنى، بخلاف قوله: بعيدة مهوى القرط، فإنه لا يفهم منه معنى طول العنق إلا بالتأويل، وهو أن قرطها إنما كان بعيد موضع المبطوط لطول عنقها، فدلالة الأول دلالة مطابقة، ودلالة الثاني دلالة التزام، وكذلك قول المتنبي:

إلى كم ترد الرسل

فإنه أيضاً يدل على الشجاعة بالتأويل، فقد استويا في الدلالة على المعنى بالتأويل، إذ لا يصلح واحد منهما أن يدل على المعنى بظاهره، فلا فرق بينهما من هذا الوجه، وإنما الفرق بينهما من جهة القرب والبعيد، فإن لفظ بعد مهوى القرط أقرب إلى لفظ طول العنق من لفظ رد الرسل إلى لفظ الشجاعة، فلا جرم أن الأول يسمى إردافاً، والثاني يسمى تمثيلاً، لقرب الإرداف من لفظ المعنى، وبعد التمثيل من لفظه، وليس العجب من كون هذا الموضوع أشكل على ابن رشيق، فإنه قد أشكل عليه ما هو أوضح منه، وإنما العجب كيف يمشي على ضياء الدين رحمه الله مع رجاحة عقله، وثقوب ذهنه، وسلامة حسه والله أعلم.

باب التمثيل

ذا الباب أيضاً مما فرعه قدامة من ائتلاف اللفظ مع المعنى، وقال: هو أن يريد المتكلم معنى فلا يدل عليه بلفظه الموضوع له ولا بلفظ قريب من لفظه، وإنما يأتي بلفظ هو أبعد من لفظ الإرداف قليلاً، يصلح أن

يكون مثلاً للفظ المعنى المراد، مثل قوله تعالى: "وقضي الأمر" وحقيقة هذا: أي هلك من قضى هلاكه، ونجا من قدرت نجاته، وإنما عدل عن اللفظ الخاص إلى لفظ التمثيل لأمرين: أحدهما اختصار أمر اللفظ، والثاني كون الهلاك والنجاة كانا بأمر مطاع، إذ الأمر يستدعي أمراً، وقضاؤه يدل على قدرة الأمر، وطاعة المأمور، ولا يحصل ذلك من اللفظ الخاص.

ومن شواهد في السنة قول الرسول صلى الله عليه وسلم حكاية عن بعض النسوة في حديث أم زرع: "زوجي ليل تامة، لا حر ولا برد، ولا وخامة ولا سامة" فعدلت عن لفظ المعنى الموضوع له إلى لفظ التمثيل، لما فيه من الزيادة، وذلك تمثيلها الممدوح باعتدال المزاج المستلزم حسن الخلق، وكمال العقل اللذين ينتجان لين الجانب وطيب المعاشرة، وخصت الليل بالذكر لما في الليل من راحة الحيوان، وخصوصاً الإنسان، لأنه يستريح فيه من الكد والفكر، ولكون الليل جعل سكناً، والسكن الحبيب، لا سيما وقد جعلته ليلاً معتدلاً بين الحر والبرد، والطول والقصر، وهذا صفة ليل تامة، لأن الليل يبرد فيه الجو بالنسبة إلى النهار مطلقاً، لغيبه الشمس، وخلوص الهواء من اكتساب الحر فيكون في البلاد الباردة شديدة البرد، وفي البلاد الحارة معتدل البرد مستطابه، فقالت: زوجي مثل ليل تامة، وحذفت أداة التشبيه، ليقرب المشبه من المشبه به، وهذا مما يبين لك لفظ التمثيل في كونه لا يجيء إلا مقدرًا بمثل غالباً، ولا كذلك لفظ الإرداف، وإلا فانظر إلى قول صاحبته في الإرداف: زوجي رفيع العماد فتجدها قد وصفته بصيغة المبتدأ والخبر، لكون الخبر غير المبتدأ لأمثله، إلا يجوز هاهنا تقدير مثل في الكلام لتعلم أن لفظ الإرداف أقرب إلى لفظ المعنى من التمثيل.

ومن شواهد التمثيل الشعرية قول الرماح بن ميادة طويل:

ألم أك في يميني يديك جعلتني فلا تجعلني بعدها في شمالكا

فإن هذا الشاعر أراد أن يقول: ألم أكن قريباً منك، فلا تجعلني بعيداً عنك، فعدل عن هذا اللفظ الخاص إلى لفظ التمثيل، لما فيه من الزيادة في المعنى، لما تعطيه لفظتا اليمين والشمال من الأوصاف التي لا تحصل إلا بذكرهما، وذلك لأن اليمين أشد قوة من الشمال غالباً وهي أقرب إلى ربها من الشمال لأنها بما يأخذ، وبما يعطي، وبما يبطش، وهي مكرمة عنده، قد أهلت لطعامه وشرابه واستغفاره وأذكاره، والشمال مؤهلة لاستنجائه، واستنثاره، والمهنة الدنية، واسم اليمين مشتق من اليمن، وهو البركة، واسم الشمال مشتق من الشؤم، وهو ضد البركة، ولهذا حض الشارع صلى الله عليه وسلم على التيامن، فقال لأنس لما أراد سقي أبكر بعد النبي صلى الله عليه وسلم وهو على شمال رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعلى يمينه أعرابي: اسق الأعرابي الأيمن فالأيمن.

وقالت عائشة رضي الله عنها، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب التيامن حتى في وضوئه وانتقاله، وقال عمرو بن كلثوم وافر:

صدت الكأس عنا أم عمرو وكان الكأس مجراها اليمين

وقال الله تعالى: "وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين في سدر مخضود" وقال بعد ذلك: "وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال في سموم" فكأن هذا الشاعر قال لممدوحه: ألم أكن مكرماً عندك فلا تجعلني مهاناً وكنت منك في المكان الشريف، فلا تتركني في المنزل الوضع، وما سمعت في هذا الباب كقول شاعر الحماسة كامل:

وإذا الرياح مع العشي تناوحت نيهن حاسدة وهجن غيورا

لأنه أراد أن يقول: أبدین خمص بطنها ودقة خصرها ورجاحة ردفها، التمثيل، وهو يقابل الرياح التي تفعل هذا عند تقابلها، وحصل في البيت مع التمثيل تنكيت عجيب في قوله مع: العشي لأنه إنما خص العشي لأنه الوقت الذي تتخلى فيه النساء من شغلهن، ويرزن للعبهن، وتنتدي الرجال للحديث، ليتم له ما قصد من اجتماع الحاسدة والغيور اللذين يريان هذه المرأة عند بروزها، وقد قيل: إن أكثر ما تتقابل الرياح في وقت العشي.

ويلتحق بهذا الباب ما يخرج المتكلم مخرج المثل السائر كقوله تعالى: "ليس لها من دون الله كاشفة" وقوله سبحانه: "وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب" وقوله عز وجل: "صنع الله" وقوله: "صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة" وقوله تبارك وتعالى: "إن أحستهم أحستهم لأنفسكم وإن أسأتم فلها" إلى كثير من الآي.

ومما جاء من ذلك في السنة قوله صلى الله عليه وسلم: "الحلال بين والحرام بين" وقوله عليه السلام: "لا ضرر ولا ضرار" وقوله عليه الصلاة والسلام: "خير الأمور أوسطها" وكقوله عليه السلام: "المؤمنون تتكافأ دماؤهم" وقد طوى كتاب أبي أحمد العسكري رحمه الله تعالى من هذا الباب على بدائع من جوامع الكلم لا يشق غبارها، ولا يقتحم تيارها، فمن أراد ذلك فعليه به. ومن أمثلة هذا الباب الشعرية قول زهير طويل:

وهل ينبت الخطى إلا وشيجه وتغرس إلا في منابتها النخل

وكقول النابغة طويل:

ولست بمستبق أخا لا تلمه على شعث أي الرجال المهذب

وكقول بشار طويل:

مقارف ذنب مرة ومجانبه

فعش واحداً أو صل أخاك فإنه

ظمئت وأي الناس تصفو مشاربه

إذا أنت لم تشرب مراراً على القذى

وكقول الآخر طويل:

فما الكرج الدنيا ولا الناس قاسم

وكقول الآخر مجزوء الخفيف:

في الدنيات من حرج

ما على الناس بعدها

وكقول أبي تمام بسيط

والنار قد تنتضي من ناضر السلم

وكقوله وافر:

لسان المرء من خدم الفؤاد

وكقوله وافر:

على ما فيك من كرم الطباع

فلو صورت نفسك لم تزدها

وكقوله كامل:

ما الحب إلا للحبيب الأول

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى

وقد استخرجت أمثال أبي تمام من شعره فوجدتها تسعين نصفاً وثلاثمائة بيت وأربعة وخمسين بيتاً بعد استيعاب أمثال المتنبي فوجدتها مائة نصف وثلثة وسبعين نصفاً وأربعمائة بيت؛ وأنا على عزم أن أخرج من أمثال أبي الطيب ما أخذ من أمثال أبي تمام فأجمعها، وأقدم قبلهما جميع ما وقع من الأمثال في الكتاب العزيز والسنة النبوية وقد أمضيت والحمد لله هذا العزم، وفرغت من كتاب الأمثال بزيادات على ذلك، وهي أمثال الأشعار الستة؛ والحماسة، بعد أن تلوت أمثال القرآن بأمثال دواوين الإسلام الستة، وختمت الجميع بأمثال العامة، لتكون إحماساً يتروح إليه بعد الجهد، وقد اقترح على زيادات فيه لم أكملها إلى الآن. ومن أمثلة هذا الباب للمتنبي قوله بسيط

أنا الغريق فما خوفي من البلل

وقوله بسيط

ليس التكحل في العينين كالكل

ولقد أحسن المعري حيث قال: بسيط

لو اختصرتم من الإحسان زرتكم والعذب يهجر للإفراط في الخصر

باب انتلاف اللفظ مع الوزن

قال قدامة: هو أن تكون الأسماء والأفعال تامة، لم يضطر الشاعر الوزن إلى نقصها عن البقية، ولا إلى الزيادة فيها، ولا يقدم منها المؤخر، ولا يؤخر منها المقدم، ولا يدخل فيها ما يلتبس به المعنى، ولم يأت قدامة بأمثلة في هذا الباب، ولم يذكر غير ذلك بل قال أعني قدامة: كل شعر سليم من هذا الذي قدمت ذكره هو مثال لهذا الباب، لكنه أتى في عيوب الوزن بأمثلة يجب ذكرها هاهنا ليعلم أن كل بيت جاء بضدها هو شاهد لهذا الباب، كقول القائل يصف درعاً كامل:

من نسج داود أبي سلام

فإنه يريد سليمان، لكن الوزن اضطره إلى حذف الياء والنون من سليمان، وتشديد اللام وتقديم الألف على الميم.

ومثل ذلك قول الآخر "رجز":

حتى إذا خرت على الكلكال

فإنه اضطره الوزن إلى زيادة الألف على بنية هذا الاسم، ومثال ما اضطر الوزن فيه إلى التقديم والتأخير قول الفرزدق طويل:

أخو أمه حي أبوه يقاربه

وما مثله في الناس إلا مملك

فإن اضطرار الوزن حمله على رداءة السبك، فحصل في الكلام تعقيد يمنع من فهم معناه بسرعة، ولو قال: وما مثله إلا مملك أبوه يقارب خاله لسهل مأخذه، وقرب متناوله، ومهما كان الشعر سليماً من مثل هذا كان هو الشعر الذي انتلف لفظه مع وزنه.

باب انتلاف المعنى مع الوزن

وهو أن تأتي المعاني في الشعر على صحتها، لا يضطر الشاعر الوزن إلى قلبها عن وجهها، ولا خروجها عن صحتها، كقول عروة بن الورد وافر:

غداة غد بمهجته يفوق

فإنني لو شهدت أبا سعاد

وما ألوه إلا ما أطيق

فديت بنفسه نفسي ومالي

فإنه أراد أن يقول: فديت نفسه بنفسه ومالي، فألجأته ضرورة الوزن إلى قلب المعنى كما ترى، ومهما كان الشعر سليماً من مثل هذا كان الشعر الذي ائتلف معناه مع وزنه.

باب انتلاف القافية

مع ما يدل عليه سائر البيت

وهو الذي سماه من بعد قدامة التمكين، وهو أن يمهد الناثر لسجعة فقرته، أو الناظم لقافية بيته، تمهيداً تأتي القافية به متمكنة في مكانها، مستقرة في قرارها، مطمئنة في موضعها، غير نافرة ولا قلقة، متعلقاً معناه بمعنى البيت كله تعلقاً تاماً، بحيث لو طرحت من البيت اختل معناه واضطرب مفهومه، ولا يكون تمكنها بحيث يقدم لفظها بعينه في أول صدر البيت، أو معنى يدل عليها في أول الصدر، أو في أثناء الصدر، ولا أن يفيد معنى زائداً بعد تمام معنى البيت، فإن الأول يسمى تصديراً والثاني توشيحاً، والثالث إيغالاً، ولا يقال لشيء من ذلك تمكين ألبتة، وقد جاء من ذلك في فواصل الكتاب العزيز كل عجيبة باهرة، ومنه قوله تعالى: "قالوا يا شعيب أصلاتك تأمرك أن تترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء إنك إنك لأنت الحليم الرشيد" فإن هذه الآية الكريمة لما تقدم فيها ذكر العبادة والتصرف في الأموال كان ذلك تمهيداً تاماً لذكر الحلم والرشد، لأن الحلم: العقل الذي يصح به التكليف، والرشد حسن التصرف في الأموال، وكقوله تعالى: "سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون" وكقوله سبحانه: "قالوا ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون، وما علينا إلا البلاغ المبين" وكقوله تعالى: "قيل ادخل الجنة قال يا ليت قومي يعلمون" وكل فواصل الكتاب العزيز بين تمكين، وتوشيح، وإيغال وتصدير.

ومن أمثلة هذا الباب الشعرية قول أبي تمام وافر:

مسامعه بألسنة حداد

ومن يأذن إلى الواشين تسلق

وقوله أيضاً في غزل هذه القصيدة:

وسامر قبينة وقدور صاد

مذاكي حلبة وشروب دجن

وأجساد تضحخ بالجساد

وأعين ربرب كحلت بسحر

وقوله طويل:

تغطي عليها أو مساو من الصد

محاسن ما زالت مساو من النوى

وقوله أيضاً طویل:

أموسی بن إبراهیم دعوة خامس
أتانی مع الרכبان ظن ظننته
أتبع هجر القول من لو هجوته
نسیت إذا کم من ید لك شاکلت
به ظماً التثريب لا ظماً الورد
لنفت له رأسي حياء من المجد
إذا لهجاني عنه معروفه عندي
ید القرب أعدت مستهماً على البعد

ومن زمن ألبستيه كأنه
وأنتك أحکمت الذي بين فكرتي
وأصلت شعري فاعتلى رونق الضحى
وإذا ذكرت أيامه زمن الورد
وبين القوافي من نمام ومن عقد
ولولاك لم يظهر زماناً من الغمد

وكقول البحتری طویل:

فلم أر ضرغامين أصدق منهما
حملت عليه السيف لا عزمك انثنى
وكننت متى تجمع يمينك تهتك الضريبة أولاً تبق للسيف مضرباً
عراكاً إذا الهيابة النكس أكذباً
ولا یدك ارتدت ولا حده نبا

ألنت لي الأيام من بعد قسوة
وألبستني النعمى التي غيرت أخي
فلا فزت من مر الليالي براحة
وكقول المتنبي بسيط
وعاتبني لي دهري المسيء
فأعتبا
علي فأمسى نازح الود أجنباً
إذا أنا لم أصبح بشكرك متعباً

يا من يعز علينا أن نفارقهم
إن كان سرکم ما قال حاسدنا
وجداننا كل شيء بعدكم عدم
فما لجرح إذا أرضاكم ألم

ومنها:

وبيننا لو رعيتم ذاك معرفة
لئن تركز ضميراً عن ميامنا
إذا ترحلت عن قوم وقد قدروا
إن المعارف في أهل النهى ندم
ليحدثن لمن فارقتهم ندم
ألا تفارقهم فالراطلون هم

ولم نسمع لمقدم شعراً أشد تمكين قواف من قول النابغة الذبياني كامل:

جفت أعاليه وأسفله ندى

يروى بريقته من العطش الصدى

كالأقحوان غدا غب سمائه

زعم الهمام ولم أذقه بأنه

باب التوشيح

سمى هذا الباب توشيحاً لكون معنى أول الكلام يدل على لفظ آخره، فيتزل المعنى منزلة الوشاح، ويتزل أول الكلام وأخره منزلة العاتق والكشح اللذين يجول عليهما الوشاح، وهذا الباب مما فرغه قدامة أيضاً، من اثتلاف القافية مع ما يدل عليه سائر البيت، وقال: هو أن يكون في أول البيت معنى إذا علم علمت منه قافية البيت، بشرط أن يكون المعنى المتقدم بلفظه من جنس معنى القافية بلفظه، أو من لوازم لفظه. ومن ذلك في الكتاب العزيز قوله تعالى: "إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين"، فإن معنى اصطفاء المذكورين تعلم منه الفاصلة، إذ المذكورون نوع من جنس العالمين، وكقوله تعالى: "وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون"، فإنه من كان حافظاً لهذه السورة، متفطناً إلى أن مقاطع فواصلها النون المردفة، وسمع في صدر هذه الآية "وآية لهم الليل نسلخ منه النهار" علم أن الفاصلة "مظلمون"، فإن من انسلخ النهار عن ليله أظلم ما دامت تلك الحال. وكقول الراعي النميري وافر:

وجدت حصة ضريبتهم رزينا

فإن وزن الحصى فوزنت قومي

فإن السامع إذا فهم أن الشاعر أراد المفاخرة برزانة الحصى، وتحقق أن القافية مجردة مطلقة، رويها النون وحرف إطلاقها ألف، ورأى في صدر البيت ذكر الزنة، تحقق أن القافية تكون رزينا ليس إلا. ومن عجائب أمثلة هذا الباب، ما حكى عن عمر بن أبي ربيعة المخزومي أنه أنشد عبد الله بن العباس رضي الله عنهما متقارب:

تشط غدا دار جيراننا

فقال له عبد الله:

وللدار بعد غد أبعد

فقال عمر: هكذا والله قلت، فقال له ابن العباس: وهكذا يكون ويقرب من هذه القصة قصة عدي بن الرقاع العاملي حين أنشد الوليد ابن عبد الملك بحضرة جرير والفرزدق كلمته التي مطلعها كامل:

عرف الديار توهماً فاعتادها

حتى انتهى إلى قوله:

تزجي أغن كأن إبرة روقه

ثم شغل الوليد عن الاستماع، فقطع عدي الإنشاد، فقال الفرزدق لجريز: ما تراه يقول؟ فقال جريز: أراه يستلب منها مثلاً، فقال الفرزدق، يالكع، إنه سيقول كامل:

قلم أصاب من الدواة مدادها

فلما عاد الوليد إلى الاستماع وعاد عدي إلى الإنشاد قال:

قلم أصاب من الدواة مدادها

قال جريز للفرزدق: أكان قلبك محبوباً في صدره؟ فقال الفرزدق: شغلني سبك عن جيد الكلام، فقال الفرزدق: والله لما سمعت صدر بيته رحمته، فلما أنشد عجزه انقلبت الرحمة حسداً وعندني أن بين ابن العباس رضي الله عنه وبين الفرزدق في استخراج العجزين كما بينهما في مطلق الفضل في كل فن، لأن بيت عدي من جملة قصيدة تقدم سماع معظمها، قد علم أنها دالية مردفة بألف موصولة مخرجة قصيدة تقدم سماع معظمها، قد علم أنها دالية مردفة بألف موصولة مخرجة قصيدة تقدم سماع معظمها، قد علم أنها دالية مردفة بألف موصولة مخرجة قصيدة تقدم سماع معظمها، قد علم أنها دالية مردفة بألف موصولة مخرجة بقافية تسوق خشفاً لها، قد أخذ الشاعر في تشبيه طرف قرنه، مع العلم بسواده ما دل على عجز البيت، بحيث يسبق إليه من هو دون الفرزدق من حذاق الشعراء، وبيت عمر بيت مفرد لم تعلم قافيته من أي ضرب هي من القوافي ولا رويه من أي الحروف، ولا حركة رويه من أي الحركات، فاستخراج عجزه ارتجالاً في غاية العسر ونهاية الصعوبة، لولا ما أمد الله تعالى به هؤلاء القوم من المواد التي فضلوا بها غيرهم، ومن حذق عبد الله بن العباس رضي الله عنهما ودقيق معرفته باختيار الكلام، جعله قافية للعجز الذي أتى بعد "أبعد" ولم يجعلها "أنزح" وكان ذلك ممكناً له، لكون "أبعد" أسرع ولوجاً في السمع، وأسبق إلى الذهن، وأدخل في القلب، وأكثر استعمالاً وأعرف عند الكافة، وبها جاء القرآن العزيز دون "أنزح" وهي أخف على اللسان، وأولى بالبيان، وربما اختلط التوشيح بالتصدير لكون كل منهما يدل صدره على عجزه. والفرق بينهما أن دلالة التصدير لفظية، ودلالة التوشيح معنوية.

والفرق بين التوشيح والتمكين أن التوشيح لا بد أن تتقدم القافية معنى يدل عليها، ولا كذلك التمكين، ولا تكون كلمة التوشيح إلا في أول الصدر، وإن لم تكن كذلك فلا توشيح والله أعلم.

باب الإيغال

مسمى هذا النوع إيغالاً، لأن المتكلم أو الشاعر أوغل في الفكر حتى استخراج سجعته أو قافية تفيد معنى زائداً على معنى الكلام.

وأصله من الإيغال في السير وهو السرعة، فإن الإيغال في السير يدخل السائر في المكان الذي يقصده بسرعة، يقال: أوغل في الأرض الفلانية أي بلغ منتهاها، أو ما قاربه فكأن المتكلم قد تجاوز حد المعنى الذي هو آخذ فيه، وبلغ إلى زيادته عن الحد، كما أن من دخل العريش مثلاً من أرض مصر فقد دخل مصر، فإذا أوغل في مصر فوصل إلى الصعيد يقال: قد أوغل في مصر لتجاوزه الحد بالزيادة عليه، فكذلك المتكلم إذا تم معناه ثم تعداه عند الإتيان بسجعة أو قافية بزيادة عليه، فقد أوغل في ذلك المعنى، ولا يكون موغلاً حتى ينتهي معناه إلى آخر البيت وهذا الباب مما فرعه قدامة أيضاً من إتلاف القافية مع ما يدل عليه سائر البيت، وفسره بأن قال: هو أن يستكمل الشاعر معنى بيته بتمامه قبل أن يأتي بقافيته، فإذا أراد الإتيان بما ليكون الكلام شعراً أفاد بما معنى زائداً على معنى البيت نحو قول ذي الرمة طويل:

قف العيس في آثار مية وأسأل رسوماً كأخلاق الرداء المسلسل

فتم كلامه قبل القافية، فلما احتاج إليها أفاد بما معنى زائداً. وكذلك صنع في البيت الثاني حيث قال:

أظن الذي يجدي عليك سؤالها دموعاً كتبذير الجمان المفصل

فإنه تم كلامه بقوله: كتبذير الجمان، واحتاج إلى القافية فأتى بها تفيد معنى زائداً، ولو لم يأت بها لم يحصل.

وقد حكى عن الأصمعي أنه سئل عن أشعر الناس فقال: الذي يأتي إلى المعنى الخسيس فيجعله بلفظه كبيراً، وإلى الكبير فيجعله خسيساً أو ينقضي كلامه قبل القافية، فإن احتاج إليها أفاد بما معنى، فقيل له: نحو من؟ فقال: نحو الفاتح لأبواب المعاني امرئ القيس حيث قال طويل:

كأن عيون الوحش حول خباتنا وأرحلنا الجزع الذي لم يتقّب

فإنه انقضى كلامه عند قوله: "الجزع" ثم أفاد بالقافية معنى زائداً، إذ قال: "لم يتقّب" لأن عيون البقر غير مثقبة.

ونحو زهير حيث يقول طويل:

كأن فتات العهن في كل منزل نزلن به حب الفنان لم يحطم

فإن حب الفنا أحمر الظاهر، أبيض الباطن، فهو لا يشبه الصوف الأحمر إلا ما لم يحطم، وقد يكون

الإيغال تتميماً كيبتي امرئ القيس وزهير، ولكن ذلك لا يسمى إلا إيغالاً لانتهاه المعنى إلى آخر البيت، وهذا إيغال الاحتياط، وهو دون إيغال المبالغة من جهة الاصطلاح لكونه لم يفد إلا الاحتياط من الدخل دون الإتيان بمعنى زائد على معنى الكلام، والإيغال الذي ليس بتتميم في بيتي ذي الرمة هو إيغال المبالغة. وأعظم ما وقع في هذا الباب قول الخنساء بسيط

وإن صخرأ لتأتم الهداة به كأنه علم في رأسه نار

وعندي أن هذا البيت لو أفرد بالتمثيل في هذا الباب لأغنى عما ساقه قدامة في باب ائتلاف القافية مع ما يدل عليه سائر البيت من بابي التوشيح والإيغال، لأن صدره يدل على عجزه دلالة التوشيح، ومعنى جملة البيت كامل دون قافيته وفيه بوجودها زيادة لم تكن له قبلها، فإن هذه المرأة لم ترض لأخيها بأن تأتم به عليه الناس، حتى جعلته علماً يأتم به أئمة الناس، وهذا تتميم أدمج في صدر لفظ التوشيح، ولم ترض تشبيهه بالعلم، وهو الجبل المرتفع المعروف بالهداية، حتى جعلت في رأسه ناراً. وإذا وصلت إلى بلاغة القرآن العزيز، وصلت إلى الغاية القصوى، وذلك قوله تعالى: "ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين" فإن المعنى قد تم بقوله سبحانه: "ولا تسمع الصم الدعاء" ثم أراد وهو يعلم تمام الكلام بالفاصلة فقال: "إذا ولوا مدبرين" فإن قيل: فما معنى مدبرين؟، وقد أغنى عنها قوله: "إذا ولوا" قلت لا يغني عنها قوله: "ولوا" فإن التولي قد يكون بجانب دون جانب، بدليل قوله تعالى: "أعرض ونأى بجانبه" وإن كان ذكر الجانب هنا مجازاً، ولا شك أنه سبحانه لما أخبر عنهم أنهم صم لا يسمعون، أراد تتميم المعنى بذكر توليهم في حال الخطاب، لينفي عنهم الفهم الذي يحصل من الإشارة، فإن الأصم يفهم بالإشارة ما يفهمه السميع بالعبارة، ثم علم أن التولي قد يكون بجانب من المتولي، فيجوز أن يلحظ بالجانب الذي لم يتول به، فيحصل له إدراك لبعض الإشارة، فجعل الفاصلة مدبرين ليعلم أن التولي كان بجميع الجوانب، بحيث صار ما كان مستقبلاً مستديراً، فاحتجب المخاطب عن المخاطب، إذ صار من ورائه، فخفيت عن عينيه الإشارة، كما صم أذناه عن العبارة، فحصلت المبالغة في عدم الإسماع بالكلية وهذا الكلام وإن بولغ فيه بنفي الإسماع بته، فهو من إيغال الاحتياط الذي أدمجت فيه المبالغة في نفي الإسماع، قد يأتي الاحتياط في غير المقاطع من مجموع جمل متفرقة في ضروب من الكلام شتى يجمعها معنى واحد كقوله تعالى: "قل لئن اجتمعت الإنس والجن الآية، وقوله سبحانه: "قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات" وقوله: "فأتوا بسورة من مثله" كما يقول الرجل لمن يجحده: ما يستحق علي درهماً ولا دانقاً ولا حبة، ولا كثيراً ولا قليلاً، ولو قال: ما يستحق علي شيئاً، لأغنى في الظاهر عن ذلك، لكن التفصيل والتزل دل على الاحتياط وعلى شدة الاستبصار في الإنكار.

ومن إيغال الكتاب العزيز أيضاً قوله تعالى: "اتبعوا من لا يسألكم أجراً وهم مهتدون"، فإن المعنى تم بقوله سبحانه: "من لا يسألكم أجراً" ثم أراد الفاصلة لمناسبة رءوس الآي، فأوغل بها كما ترى، حيث أتى بها تفيد معنى زائداً على معنى الكلام، وجاء في الكلام إيغال حسن بعد تميم ولقد أحسن ابن المعتز في قوله لابن طباطبا العلوي متقارب:

ونحن بنو عمه المسلم

فأنتم بنو بنته دوننا

فإنه أعطى بني عمه حقهم من الشرف، واعترف لهم من فضل الأبوين بما اعترف، ثم فطن إلى أنه إن اقتصر على ذلك فضلهم على بنته، فتحيل على المساواة، إذ لا طريق له إلى التفضيل بأن قال:

ونحن بنو عمه المسلم

فجعل هذا الفضيلة قبالة تلك، وهذا القسم من الإيغال يحسن أن يسمى إيغال التخيير، فإنه تخير من القوافي التي تفيد الإيغال قافية يكون ما تفيده موفياً بمقصوده من غير معارضة، فإنه لو قال: "بنو عمه الأفضل" لكونه مسلماً لعورض بحمزة رضي الله عنه، وهو إيغال الاحتياط، لكونه تميمياً للمعنى؛ وقد ذهب بعض النقاد إلى أنه بهذا الإيغال أراد الاستدلال على استحقاق بني العباس الخلافة وسوى بين بيته، وبيت مروان بن أبي حفصة وهو قوله كامل:

لبنّي البنات وراثّة الأعمام

أنّي يكون وليس ذاك بكائن

وبين البيتين بون بعيد في الجودة وصحة المعنى، فإن بيت ابن المعتز أصر وزناً وأصح معنى، وأعذب ألفاظاً، وأوجز جملاً، وأخف محملاً مع ما وقع فيه من التلطف لبلوغ الغرض من غير مجاهرة بلفظ ولا مواجهة بمضض، فأما صحة معناه بالنسبة إلى بيت مروان فمن جهة أن مروان زعم أن بني الأعمام أحق بالفضل من بني البنات. فأخذ بعموم هذا الاستدلال، وذهل عن أن هذه القضية التي هو أخذ فيها خارجة من هذا العموم، لأن بني علي بنو بنات وبنو أعمام، وما ذكره مروان لا يتناول إلا من لم يكونوا بني أعمام من بني البنات، فأما من لم يمت بالقربة من طرفيه ويدلي بالاستحقاق من جهة أبويه، فخارج عما ذكر، ولا يقال هذا ما يرد على مروان، لأنه صرح بالإرث، ولا الأعمام أحق بالإرث من بني البنات، فإني أقول: إن لم يرد بالإرث الفضل فكلامه محال، إذ لا يصح أن يريد إرث المال ولا إرث الخلافة، أما المال فلأن النبي صلى الله عليه وسلم لا يورث، وسيأتي بيان ذلك.

وأما الخلافة، فلأن الخلافة لو كانت بالإرث لما وصلت لأبي بكر وعمر رضي الله عنهما قبل العباس رضي الله عنه فإذا أحسن الظن بمروان حمل قوله وراثّة الأعمام على وراثّة الفضل، وحينئذ يأتي ما ذكرناه، ولم يرد بالأعمام إلا بني الأعمام، وببني البنات إلا بني علي رضي الله عنهم فإنه مدح بالقصيدة

الرشيد، وعرض بيحيى بن عبد الله بن الحسن بن علي، والأول بنو أعمام فقط، والآخر بنو أعمام وبنو بنات، فكانت للأول مزية لم تكن للآخر، قابلها ابن المعتز بأن أباه بنو العم المسلم فكانت هذه بتلك، فحصلت المساواة، فثبت الفضل لبيته على بيت مروان وما يستكثر مثل هذا الجهل من مروان وهو يقول في هذه الأبيات للرشيد كامل:

يا بن الذي ورث النبي محمداً دون الأقارب من ذوي الأرحام

فليت شعري ما الذي ورثه العباس رضي الله عنه من رسول الله صلى الله عليه وسلم دون ذوي رحمه، وكيف يقال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يورث؟ وهذا أفضل الصحابة وأفقههم يحتج على فاطمة عليها السلام في أمر فدك والعوالي، بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "نحن معاشر الأنبياء لا نورث، ما تركناه صدقة" فإن كان النبي صلى الله عليه وسلم يورث فلم منعت فاطمة ما ادعت وإن كان لا يورث فلم يدعي هذا الجاهل أن العباس رضي الله عنه ورثه دون ذوي رحمه؟ وأصل الحديث يروون أن أبا بكر رضي الله عنه أعطى علياً عمارة رسول الله صلى الله عليه وسلم وسيفه دون العباس، ثم لم يقنع مروان بهذا حتى قال: كامل:

ما للنساء مع الرجال فريضة نزلت بذلك سورة الأنعام

فما أدري على ماذا أحسده، أعلى معرفته بالفرائض، أم على حفظه للقرآن؟ وما أعلم من أين في سورة الأنعام ذكر شيء من الفرائض، أو حكم من أحكام الموارث، أو ذكر نسب أو شيء مما يقارب هذا الشأن، وليتني أعرف في أي موضع من القرآن ذكر أن النساء لا فريضة لهن مع الرجال؟ ومن يقع في مثل هذا لا يستعظم منه خطؤه في البيت الذي ذكرناه له أولاً، هذا الفساد من جهة المعنى. وأما ترجيح اللفظ فإن بيت ابن المعتز من محذوف المتقارب، حروفه ستة وثلاثون حرفاً، وبيت مروان من مقطوع الكامل، حروفه اثنان وأربعون حرفاً، إلى سهولة سبكه، وجودة تركيبه، وإيجاز جملة وخفة مفرداته، وكثرة استعمال كلماته، "فاعتبروا يا أولي الأبصار" ولم أر من أمثلة هذا الباب ممثل بيت من بيتي الحماسة أغفله النقاد وهو طويل:

وما شنتا خرقاء واهيتا الكلى سقى بهما ساق ولما تبللا

بأضيع من عينيك للدمع كلما توستت داراً أو ترستت منزلاً

والبيت الأول أردت، فإنه وقع الإيغال فيه بعد ثلاث جمل: في كل جملة تميم، الأولى قوله: شنتا، فإن السنة المزادة العتيقة، وإضافتهما إلى خرقاء التي هي ضد الصناع، يريد أن خرزهما غير محكم، فهما

يضيعان الماء أبداً، فصار ذلك تميمين، ثم قال بعد ذلك واهيتا الكلى أي كلاهما مخروقتان، ثم أوغل بقوله:

سقى بهما ساق ولما تبللا

فإن المزايدة إذا ابتلت تمدد أديمها، وانتفخت سيورها، وانسد أكثر بثوقها، وإذا كانت يابسة عدت ذلك كله، فكانت للماء أضيع منها وهي مبتلة، ثم في مجموع البيتين بعد ذلك تفرع حسن، وستعلم حقيقة التفرع في بابه، فتقدر ما وقع في هذين البيتين منه قدره. ومن أعجب إيغال وقع في الشعر قول عبد الله بن الزبير الأسدي طويل:

هما خطنا خسف نجاؤك منهما ركوبك حولياً من الثلج أشهباً

فإن هذا البيت وقع فيه الاستعارة، والتورية، والترشيح، والإيغال. لاحتياج المسافر للركوب، والتورية في قوله حولياً ولو لم يرشح بلفظه الركوب لما حصلت التورية في لفظ حولي، وشرح بمجموع الاستعارة والتورية للإيغال، إذ لو لم يذكر الركوب والحولي، لما حسن أن يقول: أشهباً وقد وقع من الإيغال في الكتاب العزيز قوله تعالى: "أفحكم الجاهلية ييغون ومن أحسن من الله حكماً" ثم احتاج الكلام إلى فاصلة تناسب القرينة الأولى، فلما أتى بها أفاد مجيئها معنى زائداً. والفرق بين التميم والإيغال من ثلاثة أوجه: أحدهما أن التميم لا يرد إلا على كلام ناقص شيئاً ما، إما حسن معنى أو أدب، أو ما أشبه ذلك، كالببت الذي تقدم، فإن المعنى بدون قوله: ويعطوه ناقص. والإيغال لا يرد إلا على معنى تام من كل وجه.

والثاني اختصاص الإيغال بالمقاطع دون الحشو مراعاة لاشتقاقه، لأن الموجل في الأرض هو الذي قد بلغ أقصاها أو قارب بلوغه، فلما اختص الإيغال بالطرف لم يبق للتميم إلا الحشو. والثالث أن الإيغال لا بد وأن يتضمن معنى من معاني البديع، والتميم قد يتضمن وقد لا يتضمن، وأكثر ما يتضمن الإيغال التشبيه، والمبالغة، حتى لو قيل: إنه لا يتعدى هذين الضريين لكان حقاً، والتميم يتضمن طوراً المبالغة، ويتضمن حيناً الاحتياط، ويأتي مرة غير متضمن شيئاً سوى تميم ذلك المعنى؛ والله أعلم.

تمت أبواب قدامة بتمام هذا الباب، بعد أبواب ابن المعتز، وجميعها ثلاثون باباً وهي الأصول.

الجزء الثاني

ومن هاهنا نبتدئ في سياقه: أبواب المتأخرين بعدهما، فأولها:

باب الاحتراس

وهو أن يأتي المتكلم بمعنى يتوجه عليه دخل، فيفطن له، فيأتي بما يخلصه من ذلك، والفرق بين الاحتراس، والتكميل، والتميم أن المعنى قبل التكميل صحيح تام، ثم يأتي التكميل بزيادة يكمل بها حسنه إما بفن زائد أو بمعنى، والتميم يأتي لتمام نقص المعنى ونقص الوزن معاً والاحتراس لاحتمال دخل على المعنى، وإن كان تاماً كاملاً، ووزن الكلام صحيحاً، وقد جعل ابن رشيح الاحتراس نوعاً من التميم، وسوى بينهما، وقد ظهر الفرق بينهما، فجعلهما في باب واحد غير سائغ.

والفرق بينه وبين المواربة بالراء المهملة أيضاً، أن الاحتراس يؤتى به وقت العمل عند ما يتفطن المتكلم لموضع الدخل، والمواربة يؤتى بها وقت العمل، وبعد صيرورة الكلام، والمواربة بالراء المهملة، تكون بالتصحيح والتحريف واهتمام الكلمة، والزيادة والنقص، والاحتراس بزيادة الجمل المفيدة المتضمنة معنى الانفصال عما يحتمله الكلام من الدخل، والمواربة تكون في نفس الكلام وتكون منفصلة عنه.

والاحتراس لا يكون إلا في نفس الكلام، وسيأتي بيان المواربة وأمثلتها في بابها. والفرق بين الاحتراس، والمناقضة والانفصال، أن الاحتراس هو ما فطن له الشاعر أو الناثر وقت العمل فاحترس منه. والانفصال ما لم يفطن له حتى يدخل عليه، فيأتي بجمله من الكلام، أو بيت من الشعر ينفصل به عنه ذلك الدخل.

والفرق بين المواربة والانفصال، أن المواربة تكون كما تقدم في كلمة من الكلام، أو في كلام منفصل عنه، والانفصال لا يكون إلا ببيت مستقل، أو جملة منفردة، عن سياق الكلام متعلقة به، داخله فيه.

من أمثلة الاحتراس في الكتاب العزيز قوله تعالى: "وقيل بعداً للقوم الظالمين" فإنه تعالى لما أخبر بهلاك من هلك بالطوفان، أعقبه بالدعاء على الهالكين ووصفهم بالظلم ليعمل أن جميعهم كان مستحقاً للعذاب احتراساً من ضعيف بتوهم أن الهلاك ربما شمل من لا يستحق العذاب، فلما دعا على الهالكين ووصفهم بالظلم علم استحقاتهم لما نزل بهم، وحل بساحتهم وظهر من ذلك صدق وعده لنبيه نوح عليه السلام، وأعملنا أنه قد أنجزه وعده الذي قال فيه: "ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون"، وأعجب احتراس

وقع في كتاب الله الكريم قوله سبحانه: "ما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر"، فإنه تبارك وتعالى لما نفى عن حبيبه ورسوله صلى الله عليه وسلم أن يكون بالمكان الذي قضى فيه لموسى عليه السلام الأمر، عرف المكان بالجانب الغربي، ولم يقل في هذا الموضوع، كما قال في الإخبار عن موسى عليه السلام: "ونادينا من جانب الطور الأيمن" أدباً مع نبيه وحبيبه محمد صلى الله عليه وسلم أن ينفي عنه كونه بالجانب الأيمن، ولما أخبر عن موسى عليه السلام ذكر الجانب الأيمن تشريراً لموسى عليه السلام فالج لطف هذا الاحتراس من بلاغة الكتاب العزيز جل المتكلم به.

ومثال الاحتراس من السنة قول رسول الله صلى الله عليه وسلم على لسان إحدى النسوة من حديث أم زرع، حيث وصفت زوجها فقالت: "المس مس أرنب، والريح ريح زرنب، وأغلبه والناس يغلب" فقولها: والناس يغلب احتراس حسن، لأنها لو سكنت على قولها: وأغلبه، لقليل لها: إن رجلاً تغلبه امرأة لمغلب ضعيف، فاحترست من ذلك فقالت: والناس يغلب، فناسب بين قرائنها بجملة تتضمن معنى الاحتراس مما يتوجه على معنى المدح من الدخول الذي ينقص به المعنى، فحصل في الكلام احتراس مدمج في موضع إيغال. ومتى وقع الاحتراس والتتيميم في موضع الإيغال أوهم أنه إيغال، فيجب أن نعرف أن الإيغال كون القافية تفيد الكلام معنى زائداً بعد تمام معناه وصحته، والإيغال يفارق التكميل بأمرين: بجيئه في القافية فقط، واختصاصه بالمعاني دون الفنون.

ومن أمثال هذا الباب الشعرية قول الخنساء في أخيها صخر وافر:

على إخوانهم لقتلت نفسي

ولولا كثرة الباكين حولي

ثم تخيلت أن قائلاً قال لها: لقد ساويت أحاك بالهالكين من إخوان الناس، فيكف أفرطت في الجزع عليه دونهم؟ فاحترست من ذلك بقولها وافر:

أعزي النفس عنه بالتأسي

وما يبكون مثل أخي ولكن

باب المواربة

براء مهملة

وهي من ورب العرق بفتح الواو والراء: إذا فسد، فهو ورب بكسر الراء، فكأن المتكلم أفسد مفهوم ظاهر الكلام بما أبداه من تأويل باطنه. وحققتها أن يقول المتكلم قولاً يتضمن ما ينكر عليه بسببه، لبعد ما يتخلص به منه، هذا إن فطن له وقت العمل وإلا ارتجل حين يجبه به ما يخلصه منه من جواب حاضر، أو حجة بالغة، أو تصحيف كلمة أو تحريفها، أو زيادة في الكلام أو نقص، أو نادرة معجبة، أو ظرفة

مضحكة.

فأما شاهد ما وقع من المواربة بالتحريف، فقول عتبان الحروري طويل:

وعمرو ومنكم هاشم وحبیب

فإن يك منكم كان مروان وابنه

ومنا أمير المؤمنين شبيب

فمنا حصين والبطين وقعب

فإنه لما بلغ الشعر هشاماً، وظفر به قال له: أنت القائل:

ومنا أمير المؤمنين شبيب

فقال: لم أقل كذا وإنما قلت:

ومنا أمير المؤمنين شبيب

فتخلص بفتح الراء بعد ضمها، وهذا أَلطف مواربة وقعت، ودونها قول نصيب طويل:

فوا كمدي من ذا يهيم بها بعدي

أهيم بدعد ما حبيت فإن أمت

وقيل له: اهتممت بمن يفعل بها بعدك، فقال: لم أقل كذا، وإنما قلت:

فوا كمدي ممن يهيم بها بعدي

فتخلص بإبدال كلمة من كلمة، فهذا وأشباهه يحتمل أن يكون الدخيل وقع فيه للشاعر وقت العمل، ويحتمل ألا يكون وقع له، وارتجل التخلص عند سماعه، والذي لا يحتمل أن يكون فطن له حتى قيل له قول الأخطل طويل:

إلى الله منها المشتكى والمعول

لقد أوقع الجحاف بالبشر وقعة

يكن عن قريش مستماز ومزحل

فإلا تغيرها قريش بملكها

فقال له عبد الملك بن مروان: إلى أين يا بن اللخناء؟ فقال: إلى النار، فضحك منه، وسكت عنه، فتخلص بهذه النادرة.

وقد تكون المواربة من غير هذين النمطين، كقوله عليه السلام للعباس بن مرداس حين أنشد رسول الله صلى الله عليه وسلم متقارب:

أتجعل نهبي ونهب العبيد بني عيينة والأفرع

يفوقان مرداس في مجمع

وما كان حصن ولا حابس

ومن تضع اليوم لا يرفع

وما أنا دون امرئ منهما

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا علي، اقطع لسانه عني، فقبض علي عليه السلام على يده وخرج به، فقال: أقاطع أنت لساني يا أبا الحسن؟ فقال: إني لمض فيك ما أمر.. فهذه أحسن موارد سمعتها في كلام العرب، ثم مضى به إلى إبل الصدقة فقال: خذ ما أحببت أو كما قال. ومن الموارد متصل ومنفصل، وقد أتينا بأمثلة القسمين، فالمتصل منها ما كان تخلصه في نفس الكلام، المنفصل ما كان التخلص فيه من كلام آخر، كالذي تقدم لعلي عليه السلام والأخطل. ومن أوضح أمثله قصة كثير مع عبد الملك بن مروان، وقد أنشده طويل:

على ابن أبي العاصي دلاص حصينة **أجاد المسدي نسجها فأذالها**

فقال له عبد الملك: قول الأعشى في صاحبه خير من قولك هذا في حيث يقول كامل:

كنت المقدم غير لابس جنة **بالسيف تضرب معلماً أبطالا**

فقال: الأعشى وصف صاحبه بالخرق، ووصفتك بالحزم.

باب التردد

وهو أن يعلق المتكلم لفظة من الكلام بمعنى، ثم يردّها بعينها ويعلقها بمعنى آخر، كقوله سبحانه وتعالى: "حتى يأتى مثل ما أوتي رسل الله والله أعلم حيث يجعل رسالاته" فالجلالة الأولى مضاف إليها، والثانية مبتدأ بها وقوله: "ولكن أكثر الناس لا يعلمون، يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا" وكقوله عز وجل: "لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه، فيه رجال يحبون أن يتطهروا".

ومن التردد نوع يسمى التردد المتعدد، وهو أن يتردد حرف من حروف المعاني، إما مرة أو مراراً، وهو الذي يتغير فيه مفهوم المسمى لتغير الاسم: إما لتغاير الاتصال؛ أو تغاير ما يتعلق بالاسم. ومثال هذا النوع قوله تعالى: "ومن يتولهم منكم فإنه منهم" فإن اتصال من بضمير المخاطبين الغائبين في الموضعين مع ما تضمنت من معنى الشرط أصارت المؤمنين كافرين عند وقوع الشرط، وقد يرتد حرف الجر في الجملة من الكلام والبيت من الشعر مراراً عدة في جمل متغايرة المعاني، ومثله قول الشاعر بسيط

يريك في الروع بدرأ لاح في غسق **فليث عريسة في صورة الرجل**

وربما كان المتردد غير حرف الجر، كحرف النداء أو غيره، ومثاله قول المتنبي منسرح:

يا بدر يا بحر يا غمامة يا **ليث الشرى يا حمام يا رجل**

ومثال المتردد من الجمل غير المتعددة قول أبي نواس بسيط

صفراء لا تنزل الأحزان ساحتها **لو مسها حجر مسته سراء**

فقوله: مسها، ومستته ترديد حسن.

وقد يلتبس الترديد الذي ليس تعددا من هذا الباب بباب التعطف؛ والفرق بينهما: أن هذا النوع من الترديد يكون في إحدى قسمي البيت تارة وفيهما معاً مرة، ولا تكون إحدى الكلمتين في قسم والأخرى في آخر، والمراد بقرئهما أن يتحقق الترديد، والتعطف وإن كان ترديد الكلمة بعينها، فهو لا يكون إلا متباعداً، بحيث تكون كل كلمة في قسم. والترديد يتكرر، والتعطف لا يتكرر، والترديد يكون بالأسماء المفردة، والجمل المؤتلفة والحروف، والتعطف لا يكون إلا بالجملة غالباً، والفارق بين الترديد والتكرار أن اللفظة التي تكرر في التكرار لا تفيد معنى زائداً، بل الأولى هي تبين للثانية وبالعكس، واللفظة التي تتردد تفيد معنى غير معنى الأولى منهما، واشتقاقهما مشعر بذلك، لأن الراد من وجه لا يبلغ إلا الموضع الذي أراده، والكار هو الذي انتهى إلى الموضع المراد، وكر راجعاً، ومنه الكر والفر وقول امرئ القيس: مكر مفر وأنه لا يكر إلا بعد الفرار وبيت أبي نواس الذي قدمناه مما جاء الترديد في عجزه دون صدره. وأما ما جاء في الصدر والعجز فكقول أبي تمام طويل:

كسونك شجواً هن منه عوار

ديار نوار ما ديار نوار

ومثال ما جاء في الصدر والعجز معاً قول أبي نواس خفيف:

قبله ثم قبل ذلك جده

قل لمن ساد ثم ساد أبوه

ومن الترديد نوع آخر يسمى ترديد الحبك، ويسمى بيته المحبوك، وهو أن تبني البيت من جمل ترد فيه كلمة من الجملة الأولى في الجملة الثانية، وكلمة من الثالثة في الرابعة، بحيث تكون كل جملتين في قسم، والجملتان الأخيرتان غير الجملتين الأوليين في الصورة، والجملة كلها سواء في المعنى، كقول زهير بسيط

ضارب حتى إذا ما ضاربوا اعتقوا

يطعنهم ما ارتموا حتى إذا طعنوا

فقد ردد كلمة من الجملة الأولى في الجملة الثانية، وردد كلمة من الجملة الثالثة في الجملة الرابعة ثنتان في كل قسم، وكل جملتين متفتقتان في الصورة غير أنهما مختلفتان، إذا نظرت إلى كل قسم وجملته، وإن اشتركا في المعنى، فإن صورة الطعن غير صورة الضرب، ومعنى الجميع واحد، وهو الحماسة في الحرب، والبيت أعني بيت زهير مع كونه من شواهد الترديد المحبوك، فإنه يصلح أن يكون من شواهد صحة التقسيم، لأنه استوفى فيه أقسام حالات المحارب، وإن جاءت صحة التقسيم مدججة في الترديد، والله أعلم.

باب التعطف

وقد سماه قوم المشاكلة

وقد تقدم أن التعطف كالترديد في إعادة اللفظة بعينها في البيت، وأن الفرق بينهما بموضعهما وباختلاف التردد، وثبت أن التعطف لا بد وأن تكون إحدى كلمتيه في مصراع والأخرى في المصراع الآخر، ليشبه مصراعاً البيت في انعطاف أحدهما على الآخر بالعطفين في كل عطف منهما يميل إلى الجانب الذي يميل إليه الآخر.

ومن أمثله قول زهير بسيط

يلق السماحة منه والندى خلقا

من يلق يوماً على علاته هرما

وكقول عقيل بن علفة طويل:

فحل الموالي بعده بمسيل

فتى كان مولاه يحل بفجوة

وكقول أبي تمام كامل:

ولقيت بين يدي مر سؤاله

فلقيت بين يديك حلو عطائه

وكقول المتنبي طويل:

وسقت إليه المدح غير مذمم

فساق إلى العرف غير مكدر

وهذا البيت أفضل بيت سمعته في هذا الباب، فإنه انعطفت فيه ثلاث كلمات من صدره على ثلاث كلمات من عجزه، ففيه بهذا الاعتبار ثلاث تعطفات، وذلك قوله: فساق، فإنها انعطفت على قوله في العجز: وسقت، وقوله: إلي فإنها انعطفت على قوله في العجز: إليه وقوله غير، فإنها انعطفت على قوله في العجز غير، ثم في البيت من المناسبة ما لم يتفق في بيت غيره، فإن كل لفظ في صدره على الترتيب وزن كل لفظ في عجزه: وكل جملة كقوله فساق وسقت وإلي وإليه والعرف، والشكر، وغير مكدر، ومذمم فهذه مفردات الألفاظ، وأما الجمل المركبة فيها فانظراني قوله فساق إلي وسقت إليه والعرف والشكر، وغير مكدر، وغير مذمم، ولم أر مثل هذا اتفق إلا لأبي تمام في البيت الذي قدمته على هذا البيت، لأنه ساوى بيت المتنبي في التعطفات الثلاثة، والمناسبة الناقصة، وفضله بيت أبي تمام بالمناسبة التامة والطباق، وله فضيلة سبق، فثبت له التقدم هذا وقد أتى به توطئة لقوله كامل:

من جاهه فكأنها من ماله

وإذا امرؤ أهدى إليك صنيعه

وقد جاء من التعطف في الكتاب العزيز قوله تعالى: "قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين ونحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا فتربصوا إن معكم متربصون" فإن التعطف في هذه الآية الكريمة في موضعين. وكذلك جاء في قول سبحانه: "وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم"، وكقوله سبحانه: "وهم عن الآخرة هم غافلون" والله أعلم.

باب التفويف

اشتقاق التفويف من الثوب الذي فيه خطوط بيض، وأصل الفوف: البياض الذي في أظفار الأحداث، والحنة البيضاء في النواة، وهي التي تنبت منها النخلة، والفوفة القشرة البيضاء التي تكون على النواة، والفوف: الشيء، والفوف: قطع القطن، وبرد مفوف: أي رقيق، فكأن المتكلم خالف بين جمل المعاني في التقفية كمخالفة البياض لسائر الألوان، لأن بعده من سائر الألوان أشد من بعد بعضها عن بعض، إذ هو بسيط بالنسبة إليهما، وكلها مركبة بالنسبة إليه، لأنه قابل لجميع الألوان، وجميع الألوان تقبل التغير إلى لون آخر بحسب التركيب، والشدة والضعف إلا السواد، فإنه لا يقبل تركيباً ألبتة، فهو ضد البياض ونقيضه، ولا جرم أن الجمع بينهما في الكلام يسمى مطابقة، بخلاف بقية الألوان، والتفويف في الصناعة: عبارة عن إتيان المتكلم بمعان شتى من المدح أو الغزل، أو غير ذلك من الفنون والأغراض، كل فن في جملة من الكلام منفصلة من أختها بالتجميع غالباً، مع تساوي الجمل المركبة في الوزنية، ويكون بالجمل الطويلة والمتوسطة والقصيرة.

فمثال ما جاء منه بالجمل الطويلة، قول النابغة الذبياني طويل:

فله عيناً من رأى أهل قبة
وأعظم أحلاماً وأكبر سيداً
أضر لمن عادى وأكثر نافعا
وأفضل مشفوعاً إليه وشافعا

وأحسب أن أول من نطق بالتفويف المركب من الجمل الطويلة عنتره، فقال كامل:

إن يلحقوا أكرر، وإن يستلحموا
أشدد، وإن نزلوا بضنك أنزل

ومثال ما جاء منه في الجمل المتوسطة قول أبي الوليد بن زيدون بسيط

ته أحتمل، واحتكم أصبر، وعز آهن
ودل أخضع، وقل أسمع، ومر أطمع

ومثال ما جاء منه بالجمل القصيرة قول المتنبي بسيط

أقل أنل أقطع احمل عل سل أعد
زد هش بش تفضل أدن سر صل

وقد جاء من التفويف المركب من الجمل الطويلة في الكتاب العزيز قوله تعالى: "الذي خلقني فهو يهدين، والذي هو يطعمني ويسقين، وإذا مرضت فهو يشفين، والذي يميتني ثم يحيين، والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين" وفي الجمل المتوسطة قوله سبحانه: "تولج الليل في النهار، وتولج النهار في الليل، وتخرج الحي من الميت، وتخرج الميت من الحي"، ولم يأت من الجمل القصيرة شيء في فصيح الكلام. والله أعلم.

باب التسهيم

هو من الثوب المسهم، وهو الذي يدل أحد سهامه على الذي يليه، لكون لونه يقتضي أن يليه لون مخصوص له، بمجاورة اللون الذي قبله أو بعده.

وهذا الباب عرفه من تقدمي بأن قال: وأن يكون ما تقدم من الكلام دليلاً على ما يتلو، ورأيت هذا التعريف وإن روعي فيه الاشتقاق لا يخص هذا الباب من البديع، بل يدخل معه غيره. والذي عندي أن هذا الباب من مشكلات هذا الفن، ويصلح أن يعرف بقول القائل هو أن يتقدم من الكلام ما يدل على ما تأخر منه، أو يتأخر منه ما يدل على ما تقدم. بمعنى واحد أو بمعنيين، وطوراً باللفظ، كأبيات جنوب أخت عمرو ذي الكلب، فإن الحذاق بنية الشعر وتأليف النثر يعلمون أن معنى قولها متقارب:

فأقسم يا عمرو لو نبهاك

يقتضي أن يكون تمامه:

إذا نبها منك داء عضالاً

وليثاً غضوباً أفعى قتولاً، وموتاً ذريعاً، وسمماً وحيماً، وغضباً صقيلاً، كرباً شديداً، وغماً طويلاً، إلى أشياء يعز حصرها، لكن معنى البلاغة تقتضي اقتصارها من ذلك كله على الأول، لكونه أبلغ، وإنما قلت: إنه أبلغ، لأن الليث الغضوب، والأفعى القتل، يمكن مغالبتهما وغلبهما، والسيف الصقيل يمكن التوقي منه، والحيدة عنه، وما كل جريح يتوقع موته، ولا يئس من برئه، والكرب الشديد، والغم الطويل، يرجى انكشافهما، والسم الوحي، والموت الذريع، يريحان صاحبهما، فأشد من الجميع الداء العضال الذي لا يميت فيريح، ولا يأمل صاحبه مداواته فيستريح، لذلك علم الحذاق باختيار الكلام وبنية أن قولها:

فأقسم يا عمرو لو نبهاك

يقتضي أن يكون تمامه:

إذا نبها منك داء عضالاً

دون كل ما ذكرت وما لم أذكر، فإن ما ذكرت هو دليل على ما لم يذكر، إذ لا يخرج ما لم يذكر عن أن يكون أمراً يمكن مغالبتة وغلبه، أو شيئاً يرجى انكشافه وزواله، أو شيئاً يريح بسرعة كالسم الوحي، والموت الذريع وكما يدل الأول على الثاني كما ذكرت كذلك، يدل الثاني على الأول، فإنه لو قيل لحاذق بما يصلح أن يوطأ لقولها إذا نبها منك داء عضالاً فإنه لا يجد إلا قولها: فأقسم يا عمرو لو نبهاك،

فهذا ما يدل الأول فيه على ما بعده دلالة معنوية.

وأما ما يدل فيه الأول على الثاني دلالة لفظية فقوله:

مفتياً مفيداً نفوساً ومالاً

إذن نبها ليث عريسة

فإن العارف ببنية الشعر إذا سمع قولها: مفتياً مفيداً، تحقق أن هذا اللفظ يوجب أن يتلوه قولها نفوساً ومالاً، وكذلك قولها:

بوجناء حرف تشكى الكلالا

وخرق تجاوزت مجهوله

وكننت دجى الليل فيه الهلالا

فكننت النهار به شمسه

والبيت الثاني أردت، وإن كان البيت الأول فيه من التسهيم ما فيه لكن الثاني أوضح، لأن قولها، يقتضي أن يتلوه:

وكننت دجى الليل فيه الهلالا

فكننت النهار به شمسه

ومن جيد أمثلة التسهيم قول عمرو بن كلثوم وافر:

وأوفاهم إذ عقدوا يمينا

ونوجد نحن أحماهم ذمراً

واستخراج التسهيم من هذا البيت عسر جداً، وهو مما ينبغي أن يسأل عنه من يتعاطى هذه الصناعة، وطريق استخراجه منه أن يقال: لما قدم في صدر بيته الفخر بصفات المدح في الحرب، أوجبت عليه البلاغة أن يكمل الفخر بصفات المدح في السلم، والسلم لا يكون إلا بالعهود والأيمان، وهذان لا يمدح الإنسان فيها إلا بالوفاء بهما، إذ ليس من المدح أن تقول: حلف فلان ولا استحلف بل تقول: فلان وفي بعده ويمينه، فلما اقتضى المعنى تكميل المدح في حالة السلم بالأمر الذي هو أس السلم وأصله، كما مدح في حالة الحرب بما هو من صفات المدح في الحرب، اقتضى اللفظ أيضاً أن يكون ما يأتي به من الألفاظ مناسباً لما قدمه، وقد قال في صدر البيت: ونوجد نحن أحماهم، فتعين لمراعاة المناسبة أن يقول في العجز وأوفاهم، لا سيما وهي تعطي المعنى الذي يكمل به المدح، وقال: إذا عقدوا يمينا يريد الحالة التي هي أشد أحوال الخالف، فإنه لو قال: إذا حلفوا لم يعط من المعنى البليغ ما يعطيه عقدوا إذ الخالف قد يحلف لغواً، وتعقيد اليمين يدل على النية والتصميم، قال الله سبحانه: "لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان" فقد اقتضى صدر هذا البيت من جهة اللفظ والمعنى أن يكون تمامه ما ذكره والله أعلم.

ومن أمثلة هذا الباب للمحدثين قول البحري، وهو مما جاءت دلالته لفظية أيضاً طويلاً:

وليس الذي حرمته بحرام

فليس الذي حللته بمحلل

وكقول الآخر خفيف:

وقدود كأنهن غصون

من غصون كأنهن قدود

وهذا البيت لا يصلح أن يكون شاهداً للتسهم، لكون أوله لا يقتضي آخره لأنه لو قال:

ذات نور مثل الثغور العذاب

من غصون كأنهن قدود

أو ذات ورد كأنه الوجنات، حسن أن يكون تماماً له، ومتى كان التقدير كذلك انخرم ضابط التسهم، وإنما ذكرته سهواً كما سها من ذكره قبلي ثم فطنت لذلك بعد إثباته.

والفرق بين التسهم والتوشيح من ثلاثة أوجه: أدها أن التسهم يعرف به من أول الكلام آخره، ويعلم مقطعه من حشوه من غير أن تتقدم سجة النثر ولا قافية الشعر، والتوشيح لا تعرف السجة والقافية منه إلا بعد أن تتقدم معرفتهما. والآخر أن التوشيح لا يدلك أوله إلا على القافية فحسب، والتسهم يدل تارة على عجز البيت وطوراً على ما دون العجز، بشرط الزيادة على القافية، وما حكيناه عن ابن العباس رضي الله عنه في بيت عمر بن أبي ربيعة، وعن الفرزدق في بيت عدي بن الرقاع فنادر لا يقاس عليه. والثالث أن التسهم يدل تارة أوله على آخره، وطوراً آخره على أوله بخلاف التوشيح. وقد جاء من التسهم في الكتاب العزيز قوله تعالى: "أفأيتم ما تحرثون، أنتم تزرعون أم نحن الزارعون، لو نشاء لجعلناه حطاماً فظلمتم تفكهن" وقوله: "أفأيتم الماء الذي تشربون" إلى آخر الآية.

فانظر إلى اقتضاء أول كل آية آخرها اقتضاء لفظياً ومعنوياً، وائتلاف الألفاظ مع معانيها، ومجاورة الملائم بالملائم، والمناسب بالمناسب، لأن ذكر الحرث يلائم الزرع، وذكر الحطام يلائم التفكك ومعنى الاعتداد بالزرع يقتضي الاعتداد بصلاحه وعدم فساده، فحصل التفكك، وكذلك في بقية الآيات، فإذا علمت ذلك بهرج النقد عندك ما تقدم من الأشعار الفصيحة. والمعاني البليغة.

باب التورية

ويسمى التوجيه، وهي أن تكون الكلمة تحتمل معنيين، فيستعمل المتكلم أحد احتمالها ويهمل الآخر، ومراده ما أهمله لا ما استعمله، كقول علي عليه السلام في الأشعث بن قيس: وهذا كان أبوه ينسج الشمال باليمين، لأن قيساً كان يحوك الشمال التي واحدتها شملة. ومن شواهد هذا الباب الشعرية قول عمر بن أبي ربيعة خفيف:

عمر ك الله كيف يجتمعان

أيها المنكح الثريا سهيلاً

هي شامية إذا ما استقلت

وسهيل إذا استقل يمان

فذكر عمر الثريا وسهيلاً ليوهم السامع أنه يريد النجمين المشهورين، لأن الثريا من منازل القمر الشامية، وسهيلاً من النجوم اليمانية، وهو يريد صاحبتة الثريا، وكان أبوها قد زوجها برجل من أهل اليمن يسمى سهيلاً، فتمكن لعمر أن وري بالنجمين عن الشخصين، ليبلغ من الإنكار على من جمع بينهما ما أراد، وهذه أحسن تورية وقعت في شعر لمتقدم مرشحة، فإن قوله المنكح ترشيح للتورية على قلتها في أشعار المتقدمين وكثرها في أشعار المحدثين، وخصوصاً شعراء العجم العصريين كالأرجاني وأمثاله، وأما البيت الثاني فإنه أبدع من البيت الأول، إذ أخرجه مخرج التعليل، للإنكار الذي وقع في عجز البيت الأول، وجاء فيه مع التعليل تنكيت حسن مدمج في تجنيس الازدواج، فإن قوله إذا ما استقلت وإذا استقل تجنيس ازدواج، والنكته في ترجيح استقلت على أخواتها فيما يقوم مقامها إشارته بها إلى أن الزوج يبعد بالزوجة عن أهلها ووطنها، فيكون ذلك أشد تأنيباً له على تزويجه، وأدعى لندامته على ذلك، وكان من الاتفاق الحسن أن الرجل يمانى القبيلة والبلد، والمرأة شامية، فحصل الاتفاق مدجماً في الاستخدام، فإنه استعمل في هذا البيت احتمالي كل لفظ من قوله: شامية ويمان، وختم البيت بالتوشيح، وهو دلالة معني صدر البيت على قافيته، فجاء في البيت سبعة أضرب من البديع: وهي التعليل، والاتفاق، والاستخدام، وتجنيس الازدواج في استقلت واستقل والإدماج والتنكيت، والتوشيح.

وما رأيت لعربي ولا لعجمي مثل تورية وقعت للقاضي عياض صاحب الشفا في تعريف حقوق المصطفى صلى الله عليه وسلم وصاحب الإكمال في شرح مسلم، وغيرهما في بيتين وصف فيهما صيغة نادرة أنشد فيهما الفقيه الإمام الحافظ المتقن العلامة زكي الدين أبو محمد عبد العظيم بن عبد القوي بن عبد الله المنذري نفع الله به، وبلغه من خير الدارين كما بلغه من العلم نهاية مطلبه بالسند المتصل بقائلهما رحمه الله تعالى وهما بسيط

كأن كانون أهدى من ملابسه

لشهر تموز أنواعاً من الحلل

أو الغزاة من طول المدى خرفت

فما تفرق بين الجدي والحمل

وإذا وصلت إلى ما وقع من التورية في الكتاب العزيز وصلت إلى الغاية القصوى، وهي قوله تعالى: "قالوا تالله إنك لفي ضلالك القديم" فانظر إلى كون الضلال له محملان، وهما الحب وصد الهدى وكيف أهمل أحد الاحتمالين، وهو الحب، واستعمل دلالته على ضد الهدى، والمراد ما أهمل لا ما استعمل فستجده أوجز لفظ وأحلاه، والله أعلم.

باب الترشيح

وهو أن يؤتى بكلمة لا تصلح لضرب من المحاسن حتى يؤتى بلفظة تؤهلها لذلك كما حكيناها عن علي عليه السلام في قوله للأشعث بن قيس: "وهذا كان أبوه ينسج الشمال باليمين"، فإنهن عليه السلام لو قال ينسج الشمال بيده أو ينسج الشمال وسكت لم يكن في لفظة الشمال تورية ألبتة فلما قصد التورية عدل عن لفظ اليد، وعن الاقتصار على ما قبلها وأتى بلفظ اليمين ليرشح لفظة الشمال للتورية، ولا ينتقد علينا مجيء الآية الواحدة، والبيت الواحد شاهداً على عدة أبواب من المحاسن، فإن ذلك بحسب ما يكون في الكلام من البديع، فإن قيل: فما الفرق بين الترشيح والاستعارة، والتورية، وقد جعلت مثالهما واحداً؟ قلت: الفرق بينهما من ثلاثة أوجه:

أحدها أن من التورية ما لا يحتاج إلى ترشيح، وهي التورية المحضة.

والثاني أن الترشيح لا يخص التورية دون بقية الأبواب، بل يعم الاستعارة والطباق وغيرهما من كثير من الأبواب، ألا ترى إلى قول أبي الطيب كامل:

وخفوق قلب لو رأيت لهيبه يا جنتي لظننت فيه جهنما

فإن قوله: يا جنتي رشحت لفظة جهنم للمطابقة، ولو قال مكانها يا منيتي لم يكن في البيت طباق ألبتة.

الثالث: أن لفظة الترشيح في الكلام المورى غير لفظة التورية فإن التورية في قول علي عليه السلام في لفظة الشمال، والترشيح في لفظة اليمين، فإن قيل: لفظنا الثريا وسهياً رشحت كل واحدة منهما أختها للتورية، فإنه لولا ذكر سهيل لم تصلح الثريا للتورية، ولولا ذكر الثريا لم يصلح سهيل للتورية، كما أن لفظة اليمين هي التي رشحت الشمال للتورية، فلم يعقل الفرق إذاً بين التورية والترشيح.

قلت: كل من لفظي الثريا وسهيل لا يفتقر في التورية بهما إلى صاحبتهما، بخلاف لفظة اليمين، وذلك أن عمر لو قال خفيف:

أيها المنكح الثريا زياداً عمرك الله كيف يجتمعان

لصحت التورية بدون ذكر سهيل؛ لأن الثريا يقع على النجم وعلى المرأة، والنجم لا يجتمع ورجل أبدأ، وكذلك لو عكس فقال:

أيها المنكح الخلوب سهيلاً عمرك الله كيف يجتمعان

لصحت التورية أيضاً، لأن سهياً يقع على الكوكب، وعلى الرجل، والكوكب والمرأة لا يجتمعان، ولا كذلك لفظة اليمين، فإنها لو لم يؤت بها لم يكن في الشمال تورية أصلاً ورأساً، وإنما الواقعة التي وقعت لعمر اتفق له فيها موافقة اسم الزوجين لاسمي النجمين فتهياً له من التورية ما لم يتهياً لغيره، وتم المعنى كون الثريا التي هي النجم، وصاحبته شاميين، وسهيل وزوجها يمانيين، فتم لعمر ما أراده من الإنكار

عليهما، وعلى من جمع بينهما، وحصل في بيتيه التورية والاتفاق، فلذلك حسناً جداً ومما يبين أن التورية المحضة لا تحتاج إلى ترشيح قول القاضي السعيد ابن سناء الملك رحمه الله تعالى مجزوء الكامل:

يا هذه لا تستحي مني قد انكشف الغطاء

فإن في قوله: قد انكشف الغطاء تورية غير مفتقرة إلى ترشيح، لأن ظاهر اللفظ يدل على أنه أراد انكشاف الأمر، وهو يريد انكشاف العضو فقصد الثاني وورى بالأول، ولا كذلك قول أبي تمام كامل:

كشف الغطاء فأوقدى أو أخدمى

فإن لفظة كشف الغطاء لا تحمل إلا معنى واحداً، وهو الذي قصده أبو تمام من انكشاف الأمر. ومن الترشيح للتورية في الكتاب العزيز قوله تعالى: "أذكرني عند ربك فأنساه الشيطان ذكر ربه"، فإن لفظة ربك رشت لفظة ربه، لأن يكون تورية، إذ يحتمل أن يراد بها الإله سبحانه والملك، فإنه لو اقتصر على قوله تعالى: "فأنساه الشيطان ذكر ربه" لم تدل لفظة ربه إلا على الإله، فلما تقدمت لفظة ربك صلحت للمعنيين.

وأما ترشيح الاستعارة ففي قول بعض العرب طويل:

إذا ما رأيت النسر عز ابن داية وعشش في وكريه طارت له نفسي

فإنه شبه الشيب بالنسر لاشتراكهما في البيض، والشعر الأسود بابن داية، وهو الغراب لاشتراكهما في السواد، واستعار التعشيش من الطائر للشيب لما سماه نسرًا، ورشح به إلى ذكر الطيران الذي استعاره من الطائر لنفسه، فقد رشح باستعارة إلى استعارة. وأما ترشيح التشبيه فكقول النابغة الذبياني طويل:

إذا استنزلوا عنهن للطعن أرقلوا إلى الموت إرقال الجمال المصاعب

فإنه رشح بالاستعارة في قوله: أرقلوا إلى التشبيه في قوله: إرقال الجمال، فإنه تشبيه بغير أداة، وفحول النقاد تسمى هذا النوع من التشبيه استعارة، والله أعلم.

باب الاستخدام

وهو أن يأتي المتكلم بلفظة لها معنيان، ثم يأتي بلفظتين تتوسط تلك اللفظة بينهما، ويستخدم كل لفظة منهما لمعنى من معنى تلك اللفظة المتقدمة، وربما التبس الاستخدام بالتورية الضماً من كون كل واحد من البابين مفتقراً إلى لفظة لها معنيان.

والفرق بينهما أن التورية استعمال أحد لمعنيين من اللفظة، وإهمال الآخر، والاستخدام استعمالهما معاً. ومن أمثله قول البحري كامل:

فسقى الغضا والساكنيه وإن هم شبوه بين جوانح وقلوب

فإن لفظة الغضا محتملة الموضع والشجر والسقيا الصالحة لهما، فلما قال والساكنية استعمال أحد معني اللفظة، وهو دلالتها بالقرينة على الموضع، ولما قال: شبوه: استعمال المعنى الآخر، وهو دلالتها بالقرينة أيضاً على الشجر.

وفي الكتاب العزيز من الاستخدام قوله تعالى: "لكل أجل كتاب، يحو الله ما يشاء ويثبت"، فإن لفظة كتاب يراد بها الأمد المحتوم، والكتاب: المكتوب، وقد توسطت بين لفظي أجل ويحو، فاستخدمت أحد مفهوميها وهو الأمد، واستخدمت يحو لمفهوم الآخر، وهو المكتوب والله أعلم.

باب التغاير

وهو تضاد المذهبين إما في المعنى الواحد بحيث يمدح إنسان شيئاً بدمه، أو يذم ما مدحه غيره، أو يفضل شيئاً على شيء، ثم يعود فيجعل المفضول فاضلاً، أو يفعل ذلك مع غيره، فيجعل المفضول عند غيره فاضلاً، وبالعكس. فإما التفضيل بين الشيئين المتغايرين من كل وجه فلم يقل به إلا ضياء الدين بن الأثير رحمه الله تعالى، وسنأتي بتفصيل مذهبه في آخر هذا الباب، وأما مدح الإنسان ما ذمه غيره فلم أسمع فيه كقول الإمام علي عليه السلام في خطبة له مدح فيها الدنيا مغايراً لنفسه في ذمها عليها، أم هي المترجمة عليك؟ متى استهوتك، أم متى غرتك؟ كم غرتك؟ بمصارع آباك من البلى، أم بمضاجع أمهاتك تحت الثرى؟ كم عللت بكفيك، وكم مرضت بيديك، تبغي لهم الشفاء، وتستوصف لهم الأطباء، لم ينفع أحدهم إشفافك، ولم تسعف فهي بطلبتك، ولم تدفع عنه بقوتك، قد مثلت لك به الدنيا نفسك ومصرعه مصرعك، وإن الدنيا دار صدق لمن صدقها، ودار عافية لمن فهم عنها، ودار غنى لمن تزود منها، ودار موعظة لمن اتعظ بها، مسجد أحياء الله، ومصلى ملائكته ومهبط وحي الله، ومتجر أولياء الله، اكتسبوا فيها الرحمة، وربحوا فيها الجنة، فمن ذا يذمها، وقد آذنت بينها ونادت بفراقها، ونعت نفسها وأهلها فمثلت لهم ببلائها الإبلاء، وشوقتهم بسرورها إلى السرور، راحت بعاقبة، وابتكرت بفجيعة، ترغيباً وترهيباً، وتخويفاً وتحذيراً، فذمها رجال غداة الندامة، وحدها آخرون يوم القيامة، ذكروا فذكروا، وحدثهم فصدقوا، ووعظتهم فاتعظوا، فقلت ناظماً لمعاني هذه الخطبة على أحد طريقي البلاغة، وهو الإيجاز خفيف:

من يذم الدنيا بظلم فإني
وعظمتنا بكل شيء لو أنا
وأرتنا الوجهين منها فهمنا
نصحتنا فلم نر النصح نصحاً
أعلمتنا أن المآل يقينا
كم أرتنا مصارع الأهل والأح
ولكم مهجة بزهرتها اغتر
أتراها أبقت على سبأ من
يوم بؤس لها ويوم رخاء
وتيقن زوال ذلك وهذا
دار زاد لمن تزود منها
مهبط الوحي والمصلى التي كم
متجر الأولياء قد ربحوا الجن
رغبت ثم رهبت ليرى كل
فاذا أنصفت تعين أن يث
بطريق الإنصاف أتى عليها
حين جدت في الوعظ من مصطفيتها
للهمى بالبيان من وجهيها
حين أبدت لأهلها ما لديها
للبلى حين جدت عصريها
باب لو نستفيق بين يديها
رت فأدمت ندامة كفيها
قبلنا حين بدلت جنتيها
فتزود ما شئت من يومئها
تسل عما تراه من حادثيها
وغرور لمن يميل إليها
عفرت صورة بها خديها
نة فيها وأوردوا عينيها
ل لبيب عقباه من حالتها
نى عليها ذو البر من ولديها

وأما قوله مغايراً لنفسه فإنه في أكثر كلامه يذم الدنيا، ومنه قوله: يا دنيا أي تعرضت، أم إلي تشوفت؟ هيهات هيهات، غري غيري، قد بنتك ثلاثاً لا رجعة لي فيك، فعمرك قصير، وعيشك حقير، وخطرك كبير، آه من قلة الزاد، وبعد السفر، ووحشة الطريق.

وروى له عليه السلام في ذلك سريع:

يا مؤثر الدنيا على دينه
أصبحت ترجو الخلد فيها وقد
هيهات، إن الموت ذو أسهم
لا يشرح الواعظ صدر امرئ
والتائه الحيران في قصده
أبرز ناب الموت عن حده
من يرمه يوماً بها يرده
لم يعزم الله على رشده

وأما ما جاء من ذلك في الشعر، فقول بعض العرب يمدح قومًا بالأنفة كامل:

لا يشربون دماءهم بأكفهم

إن الدماء الشافيات تكال

فإنه وصف هؤلاء القوم بالأنفة من أخذ الدية عن قتلاهم، فيصير حاصل ما يأخذونه شربهم اللبن، فكأنهم شربوا دماءهم، ثم قال: إن مثل هذا الدم لا يشفي، وإنما يشفي من الدماء ما أخذه مكايلة صاعاً بصاع، يعني دمماً بدم كفاء، فحاصل معناه أن الدماء تكال؛ وقال الآخر مغايراً لهذا المعنى وقد قتل بقتيله دونه معتدراً عن ذلك، مغايراً للمعنى الأول طويل:

فيقتل خير بامرئ لم يكن له

وفاء ولكن لا تكايل بالدم

ويروى: لم يكن له بواء بباء موضع الفاء، أي كفاء مأخوذ من قولهم لمن يقتلونه في دم: يؤبدم فلان، فذهب هذا القائل إلى أن قتيله لا نظير له، فلو ذهب إلى أنه لا يقبل به إلا كفاءه لطاح دمه هدرأ، إذ لم يجد له كفواً، فلهذا اضطر إلى قتل من دونه، ثم قال: لا تكايل بالدم، مستدلاً بذلك القول على صحة ما أتاه، لكون أرباب الدماء متفاوتي الدرجات، فلا تتكافأ دماؤهم، هذا مذهب الجاهلية، قد أتى الإسلام بخلافه، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "المسلمون تتكافأ دماؤهم" ولهذا قال عمر رضي الله عنه لجبله: الإسلام ساوى بينكما فتغاير المعنيان، وهما مع المغايرة صحيحان، وقد أتى حكم الله في كتابه العزيز مغايراً هذا الحكم، فقوله تعالى: "ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً فلا يسرف في القتل" وقوله: "الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى" مما يصحح قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "تتكافأ دماؤهم"؛ وقد غايرت أحكام القرآن العزيز أحكام الجاهلية في عدة مواضع، وذم من ابتغى حكم الجاهلية، ومن ذلك ذم الظلم وأهله، وقد كانت العرب تمدحه وتمدح به وأشياء غير ذلك. ومن هذا قول أبي تمام يغاير جميع الناس في تفضيل التكرم على الكرم، بقوله لأبي سعيد الثغري خفيف:

قد بلونا أبا سعيد حديثاً

وبلونا أبا سعيد قديماً

ووردناه سائحاً وقلبياً

ودعيناه بارضاً وجميماً

فعلمنا أن ليس إلا بشق الن

نفس صار الكريم يدعى كريماً

ثم غايره المتنبي فقال على الطريق المألوف منسرح:

لو كفر العالمون نعمته

لما عدت نفسه سجاياها

كالشمس لا تبتغي بما صنعت

منفعة عندهم ولا جاها

وهذا المعنى من قول أبي تمام بسيط

لا يتعب الناقل المبدول همته

وكيف يتعب عين الناظر النظر

وكل ذلك من قول بشار خفيف:

ليس يعطيك للرجاء لو الخو ف ولكن يلذ طعم العطاء

وأبو تمام أخذ معناه الذي غاير فيه الناس من قبل إبراهيم بن سيار، النظام، لأنه غاير فيه جميع العلماء في استدلاله على أن شكر المنعم لا يجب عقلاً ولا شرعاً، وقال في نظم الدليل كلاماً نقحته وحررته فقلت: المعطي لا يعدو بعطائه أحد أربعة أقسام حاصرة: إما للخوف، وإما للرجاء، وإما لطلب الثناء، وإما للعشق في العطاء.

فأما المعطي للخوف، فحته على ذلك العطاء اتقاؤه ما خافه بعطائه، فلا يجب شكره، والمعطي للرجاء إما أن يرجو المكافأة عن عطائه ممن أعطاه، أو يرجو بذلك ثواب الله، وهو في كلتا حالتيه لا يجب شكره، والمعطي لطلب الثناء حق عطائه أن يثنى عليه، فإذا أثنى عليه، فقد سقط حقه، فلا يجب شكره، والمعطي للعشق في العطاء، مسكن بعطائه غليل قلبه، ومنفس به من كربه، فلا يجب شكره، ووجه الرد على النظام أن يقال: المعطي لطلب الثناء، إما أن يكون عطاؤه موجباً للثناء عليه، أو لا يكون، فإن كان الأول فقد وجب شكر المنعم، وإن كان الثاني فقد فسد التقسيم الأول، وصار للعطاء قسم خامس لغير العلل التي علل بها، ولم تبق علة لهذا التقسيم من العطاء سوى التبذير والعبث، وهذا القسم مرفوض لا يستحق الكلام عليه، فإن قيل المعطي للثناء قد يثنى عليه وقد لا يثنى فإن أثنى عليه فقد سقط حقه، فلا يجب شكره، وإن لم يثن عليه خلا عطاؤه عن الفائدة.

قلت: القعود عن أداء الواجب لا يسقط الواجب، فإن تارك الصلاة لا يسقط إخلاله بهذا الواجب وجوباً، ولا يخلو المثني على المعطي لطلب الثناء إما أن يكون فعل واجباً، فقد وجب شكر المعطي، وإما أن يكون ما فعله غير واجب فقد صار العطاء لا للثناء. ثم أقول: المعطي رغبة في الثناء لا يخلو إما أن يكون المثني فعل بثنائه واجباً أولاً، فإن كان الأول فقد وجب شكر المنعم، وإن كان الثاني، فإما أن يكون عدم الثناء عليه من جهة تقصير المعطي، فقد بينا أن الإخلال لا يسقط وجوب الشكر، فإن قلت: إنما أثنى المثني عليه تفضيلاً. قلت: هذا محال لأنه تقدم منه العطاء ليشتري به الثناء، فثناء المعطي ثمن لإنعام المعطي، فكيف يعد تفضيلاً! فقد ثبت وجوب شكر المنعم، وفسد تقسيم النظام، ثم قول القائل: لا يخلو المعطي للثناء، إما أن يثنى عليه وإما أن لا يثنى عليه لازم في جميع الأقسام، فإن المعطي لطلب المكافأة. إما أن يكافأ، وإما أن لا يكافأ، وكذلك المعطي للخوف، ولم يبق قسم لا يدخله هذا الاحتمال، سوى المعطي للعشق في العطاء، فإنه وإن لم يجب شكره على نفس العطاء لكونه مسكناً به غليل قلبه، ومشبعاً غرض نفسه، فهو مشكور على عشق أحسن الخلال، وأكرم الفعال، وكيف لا يستحق المنعم الشكر، والمنعم

على كل تقدير أحد رجلين: رجل مطبوع على العطاء مجبول عليه، فهو مشكور على كرم طبع، وسماحة جبلته، ورجل غير مطبوع على ذلك فهو يجاهد نفسه، ويغلب طبعه على التكرم حتى يتعمد العطاء ويتكلف الحباء، وهذا كما قال سيد المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم: "إنما الصدقة أن تتصدق وأنت صحيح شحيح، تخاف الفقر وتأمل الغنى". ومن هنا قال أبو تمام خفيف:

فعلمنا أن ليس إلا بشق الن **نفس صار الكريم يدعى كريما**

ولقد أحسن المتنبي حين أخذ هذا المعنى من أبي تمام، وزاد عليه ونقله من فن المدح إلى فن الأدب، فقال مخرجاً ذلك مخرج المثل بسيط

لولا المشقة ساد الناس كلهم **الجود يفقر والإقدام قتال**

ومن التغاير تفضيل القلم على السيف، والمعتاد عكس ذل، ويدل عليه قول البحتري في صاحب خراسان المعروف بابن هرمة بسيط

تعنو له وزراء الملك راغبة **وعادة السيف أن يستخدم القلما**

وما سمعت في هذا المعنى مثل قول ابن الرومي بسيط

إن يخدم القلم السيف الذي خضعت **له الرقاب ودانت خوفه الأمم**

فالموت والموت لا شيء يعادله **ما زال يتبع ما يجري به القلم**

كذا قضى الله للأقلام مذ بريت **أن السيوف لها مذ أرهفت خدم**

وغيره المتنبي فقال على الطريق المؤلف بسيط

حتى رجعت وأقلامي قوائل لي **المجد للسيف ليس المجد للقلم**

أكتب بها أبداً قبل الكتاب بنا **فإنما نحن للأسياف كالخدم**

فانظر إلى تقصير المتنبي في المعاني وسبكها، وإلى كونه قليل الابتكار لا يتوكأ إلا على المعاني المطروقة، ولا يرى فيها إلا تابعاً مقصراً، فإنه أخذ هذا المعنى من قول أبي تمام بسيط

السيف أصدق أنباء من الكتب

فإن حاصل بيت المتنبي مأخوذ من هذا الصدر، ليس في بيته زائد على ما في الصدر، سوى ما أخذه من ابن الرومي وقصر وهو قوله في العجز:

فإنما نحن للأسياف كالخدم

لأن ابن الرومي جعل السيف خدماً للأقلام، والمتني جعلها كالخدم، وفرق بين عين الشيء وبشبهه، ولا يقال: إن صدر بيت المتني هو المأخوذ من صدر بيت أبي تمام، فلم قلت: إن بيت المتني كله مأخوذ من صدر بيت أبي تمام، لأني أقول: صدر بيت المتني مفتقر لما قبله، أو لتقديم ما بعده، لما فيه من الضمائر الظاهرة والمستترة التي متى أفرد لا يوجد فيه ما يعود عليه، فلا يكمل معناه الذي أخذه من بيت أبي تمام حتى يقدر تقديم العجز، فيصير تقدير البيت: نحن للأسياف كالخدم فإكتب بالأسياف قبل أن تكتب بنا، وحاصل هذا كله قول أبي تمام:

السيف أصدق أنباء من الكتب

فلم يرض أبو تمام أن يقول: السيف أصدق أنباء من القلم حتى قال: من الكتب التي لا تكتب إلا بالقلم، والدواة والقرطاس، والكاتب المطلق اليد واللسان والجنان فالخط الفرق بين كلامه، وكلام المتني لتعلم مقدار ما بينهما.

وقد غاير ابن الرومي الناس في إبطال فائدة التناسي حيث قال خفيف:

ومعز عن الشباب مؤس
بمشيب اللدات والأتراب
قلت لما انتحى يعد أساة
من مصاب يشيبه ومصاب
ليس تأسو كلوم غيري كلومي
ما بهم ما بهم وما بي ما بي
فإنه غاير القائل طويل:

ولولا الأسى ما عشت في الناس بعده
ولكن متى ما شئت جاوبني مثلي
وأمثاله كثير، وكل ما أتيت به مما غاير فيه الشعراء بعضهم بعضاً.
وأما ما يغاير الشاعر فيه نفسه، فكقول الفرزدق طويل:

ألم تسمعا يا بني حكيم حنينها
إلى السيف تستبكي إذا لم تعقر
فذكر أن إبله تحن إلى السيف لإلفها به إذا لم يعقرها للضيفان.
وقال يصفها بالجزع من الموت طويل:

ترى النيب من ضيفي إذا ما رأينه
ضموراً على جراتها ما يجيرها
وهذا من قول بعض الشعراء يمدح رسول الله صلى الله عليه وسلم كامل:

وأبيك حقاً إن إبل محمد
عزل نوائح أن تهب شمال

وإذا رأين لدى الفناء غريبة

فدموعهن على الخدود سجال

يقول هذا الشاعر: إذا هبت الشمال، وهي من ريح الشتاء، وهبوبها من علامات المحل، أيقنت هذه الإبل أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ينحرفها للضيفان والجيران، فهي نوائح لذلك، واستعار لها لفظة عزل: من الرجال الذين لا سلاح معهم يدفعون به عنهم، أي هي لا تمنع؛ ثم قال في البيت الثاني: وإذا رأين ناقة غريبة عرفن أنها ناقة ضيف فتذرى كل واحدة دمعها لا تدري أهى المنحورة أم غيرها؟ وقوله حقاً بعد القسم ليست من الحشو الذي تسد به الأبيات لإقامة الوزن، وإنما هي مؤكدة لصدق القسم، إذ المدح في رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولو كان في غيره لكانت حشواً لا يفيد إلا إقامة الوزن، وهذا من دقيق ما في الشعر، وهو من لطيف المدح، وقل كل مدح في حق رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومثل هذا التميم الذي وقع لهذا الشاعر رضي الله عنه في المدح تميم وقع للأخطل في المهجاء حيث قال بسيط

وأقسم المجد حقاً لا يحالفهم

حتى يحالف بطن الراحة الشعر

ومن التغاير ما قاله زبان بن منظور الفرزي، وقد اتفق مع النابغة على الغزو، فوقعت جواده على النابغة، فتطير بما ورجع، ومضى زبان فغنم وسلم، فقال النابغة وافر:

تعلم أنه لا طير إلا

على متطير وهو الثبور

بلى شيء يوافق بعض شيء

أحاييناً وباطله كثير

ومن ينزح به لا بد يوماً

يجيء به نعي أو بشير

فغاير النابغة معظم العرب في ذلك، وأعجبي مقاله لموافقته قول رسول الله صلى الله عليه وسلم "لا هامة ولا طيرة ولا صفر".

وهذه أمثلة التغاير في المعنى الواحد.

وأما تغاير المعنيين المتضادين فإن الترجيح بينهما راجع إلى النظر في مفردات الألفاظ وتركيبها لتعلم كم في كل كلام منهما من ضروب العيوب، وأنواع المحاسن، ويقابل كل ضرب بضرب مثله: فما كانت محاسنه، أكثر وعيوبه أقل كان أفضل من الآخر، وهذا هو الذي أشار إليه ضياء الدين بن الأثير، ووعدت في أول هذا الباب بذكره، فإنه أيضاً غاير النقاد في هذا المكان، إذ عادتهم ألا يرجحوا بين الكلامين إلا إذا اشتركا في معنى واحد والله أعلم.

ومثال ما تقع فيه المفاضلة بين الكلامين المختلفي المعنى قول الله سبحانه وتعالى: "وقيل يا أرض ابلعي ماءك" وقال عز وجل: "إن الله يأمر بالعدل والإحسان" الآية، فإن الأولى في الطبقة العليا من البلاغة

والفصاحة، والثانية في الطبقة الوسطى بالنسبة إليها، لأن الثانية وإن كانت بليغة فالأولى أبلغ، وإن كنت كثيرة المعاني، فالأولى أكثر، فالأولى أفضل مع كون مقصد الاثنتين مغايراً مختلفاً، وعلى هذا فقس ترشد والله عز وجل أعلم.

باب الطاعة والعصيان

هذا النوع استنبطه أبو العلاء المعري عند نظره في شعر أبي الطيب المتنبي وشرحه له من قوله طويل:

يرد يداً عن ثوبها وهو قادر ويعصي الهوى في طيفها وهو راقد

وسماه الطاعة والعصيان، أعني المعري، وفسره بأن قال: وهو أن يريد المتكلم معنى من معاني البديع، فيستعصي عليه لتعذر دخوله في الوزن الذي هو آخذ فيه، فيأتي موضعه بكلام غيره يتضمن معنى كلامه، ويقوم به وزنه، ويحصل به معنى من البديع غير المعنى الذي قصده، كهذا البيت الذي ذكرته للمتنبي، فإنه أراد أن يكون في البيت مطابقة، فيحتاج لأجلها أن يقول:

يرد يداً عن ثوبها وهو مستيقظ

حتى إذا قال:

ويعصي الهوى في طيفها وهو راقد

يكون في البيت مطابقة فلم يطعه الوزن فأتى بقادر مكان مستيقظ. لتضمنه معناه، فإن القادر لا يكون إلا مستيقظاً، وزيادة فقد عصاه في البيت الطباقي، وأطاعه الجناس، لأن بين قادر وراقد تجنيس عكس. هذا كلام المعري على هذا البيت، وهذا المعنى من البديع، ولم يأت بشاهد غيره، وتبعه الناس بعد، فأثبتوا هذا الباب وتكلموا فيه. يمثل هذا الكلام، واستشهدوا بهذا البيت، ولم يأت أحد منهم بغيره، وأضربوا جميعهم عن النظر فيه، إما لحسن ظنهم بالمعري وموضعه من الأدب، واعتقادهم فيه العصمة من الخطأ والسهو فيه، وإما أن يكونوا قد مر عليهم ما مر عليه في هذا البيت.

والذي ذهب عليهم أن البيت ليس فيه شيء أطاع الشاعر، ولا شيء عصاه، ودليل ذلك أن قول المعري إن المتنبي أراد مستيقظاً، ليحصل منها ومن لفظة راقد طباقي، فعصته لفظة مستيقظ لامتناعها من الدخول في هذا الوزن، فيحكم على المتنبي، لأنه لو أراد أن يكون في بيته طباقي فحسب، كان له أن يقول: يرد يداً عن ثوبها وهو ساهر أو ساهد، ويحصل له غرضه من الطباقي بالجمع بين ساهر وراقد، ولا يكون عصاه شيء وأطاعه غيره وإنما المتنبي قصد أن يكون في بيته طباقي وجناس، فعدل عن لفظة ساهر وساهد

إلى لفظة قادر، لأن القادر ساهر وزيادة، إذ ليس كل ساهر قادراً، والقادر لا بد أن يكون ساهراً، ليحصل بين قادر وراقد طباق معنوي، وجناس عكس، لأن الطباق أنواع: منه المعنوي، كما أن الجناس أنواع: منه جناس العكس، وكما لم يأت بأول نوع من الجناس، كذلك يم يأت بأول نوع من الطباق، وهو الطباق اللفظي، وأتى بالطباق المعنوي، لأن مذهبه ترجيح المعاني على الألفاظ، لا سيما وبالعدول عن الطباق اللفظي حصل في البيت الطباق والجناس معاً، وما كان فيه طباق وجناس أفضل مما ليس فيه سوى الطباق فقط، ولو عدل المتنبّي إلى ما ذكره المعري من الإتيان بشاهد مثلاً لفاته هذا الفضل، وأتى في بيته ما دل على عدم تدقيق النقد، إذ يأتي فيه بأول نوع من الطباق، ولم يقابله بأول نوع من الجناس، مع ثبوت نيته الجمع بينهما، والله أعلم.

فقد تبين من هذا البحث أن بيت المتنبّي هذا لا يصلح أن يكون شاهداً على هذا الباب، لأنه لم يعصه فيه شيء ولم يطعه غيره، ولا بد إذ قد أثبت هذا الباب لرشاقة تسمية من الإتيان بشاهد يليق به؛ والذي يليق به من الشواهد قول عوف بن محلم السعدي سريع:

إن الثمانين وبلغتها قد أحوجت سمعي إلى ترجمان

لأننا نعلم أن أول ما يقصده المتكلم إخراج معناه في لفظ مساو له، إذ هو خير ضروب البلاغة لكونه وسطها، وخير الأمور أوسطها، ولذلك وصف به كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال هند بن أبي هالة في صفتة: ويتكلم بجوامع الكلم قولاً فصلاً، لا فضلاً ولا تقصيراً؛ وقالت أم معبد في صفة كلامه أيضاً: حلوا المنطق فصل لا نزر ولا هذر، كأن منطقهم خزرات نظم يتحدرن، وهذا المعنى بلفظه أخذه ذو الرمة فقال طويل:

لها بشر مثل الحرير ومنطق رخيخ الحواشي لا هراء ولا نزر

فإذا اضطر الوزن إلى الزيادة على اللفظ أو النقص منه اضطراراً، فقد عصته المساواة وأطاعه غيرها مما يأتي في كلامه من البديع بعد الزيادة والنقص الذي استقام بهما الوزن، بشرط أن يكون عدوله عن المساواة إلى غيرها من البديع اضطراراً لا اختياراً.

وقد يعدل المتكلم عن المساواة اختياراً، ولا تكون المساواة عصته إلا في ظن من يرى ظاهر كلامه فيجد فيه ما يوهم بأنه زيادة، ويكون عدوله لمعنى أجل من المساواة، فيكون قد أطاعه ذلك المعنى، ومن ذلك في الكتاب العزيز قوله تعالى: "قل رب احكم بالحق" فإن ظاهر اللفظ يوهم أن لفظة بالحق مستغنى عنها، للعلم بأن الله سبحانه لا يحكم إلا بالحق، فإنه قد ثبت أنه موصوف بالعدل بالدليل العقلي، فعدل عن

المساواة، وأتى بهذه الزيادة ليضمن الكلام ضرباً من المحاسن يسمى الافتنان، فإن المراد تعجيل ما يستحقه الكفار من العذاب، ولذلك حصل في الكلام افتنان، وهو الجمع بين الأدب والهجاء، لأن من يستحق الدعاء عليه بالعقوبة ملوم، والله أعلم.

وقد أفردت لهذه الآية الكريمة تأليفاً استخرجت منها ستة عشر ضرباً من البديع، خفت من سياقتها في هذا الكتاب من الإطالة، فعلى هذا يكون مراد عوف في بيته الذي قدمناه عند ما وقع المعنى في نفسه، وقصد إخراجها من القوة إلى الفعل أن يقول: إن الثمانين قد أحوجت سمعي إلى ترجمان، وعلم أن الوزن لا يستقيم إلا بزيادة كلمة على ذا اللفظ المساوي معناه، فأتى بها متضمنة معنى الدعاء للمدوح، ليحصل بها في الكلام ضرب من البديع، وهو التتميم، نظراً إلى نقص الوزن، والتكميل نظراً إلى كون المعنى تاماً، وليكون عوضاً مما فاته من المساواة حدقاً منه، ولو أتى بها لا يفيد إلا إقامة الوزن فحسب، كانت عيباً فليسوغ أن يقال: إن في هذا البيت طاعة وعصياناً، لكون الشاعر عصته فيه المساواة التي قصدها وقت الشروع في سبكه وبنيته، وأطاعه التتميم، وعلى هذا يكون كل بيت من شواهد التتميم، وقع التتميم الذي فيه زائداً على معناه غير متمم لنقصه شاهداً للطاعة والعصيان، ومثل هذا هو تتميم الوزن لا تتميم المعنى، والله أعلم.

باب التسميط

وهو أن يعتمد الشاعر تصوير بعض مقاطع الأجزاء، أو كلها في البيت على سجع يخالف قافية البيت، كقول مروان بن أبي حفصة طويل:

هم القوم إن قالوا أصابوا، وإن دعوا أجابوا، وإن أعطوا أطابوا، وأجزلوا

فأنت بعض أجزاء هذا البيت مسجعة على خلاف قافيته، لتكون القافية بمثلة السمط، والأجزاء المسجعة بمثلة حب العقد، لكون التسميط يجمع حب العقد ويربطه، والفرق بين التسميط والتفوييف، تسجيع بعض أجزاء بيت التسميط، وخلو كل أجزاء بيت التفوييف من السجع بته، والمراد بأجزاء التسميط بعض أجزاء التقطيع، ويسمى تسميط التبويض.

ومن التسميط نوع آخر يسمى تسميط التقطيع، وهو أن يسجع جميع أجزاء التفعيل على روى يخالف روى القافية، كقولي بسيط

وأسمر مثمر بمزهر نضر من مقمر مسفر عن منظر حسن

فجاءت جميع أجزاء التفعيل في هذا البيت من سباعيها وخماسيها مسجعة على خلاف سجعة الجزء الذي هو قافية البيت، والله أعلم.

باب المماثلة

وهو أن تتماثل ألفاظ الكلام أو بعضها في الزنة دون التقفية، كقول الله سبحانه وتعالى: "وما أدراك ما الطارق النجم الثاقب، إن كل نفس لما عليها حافظ" فالطارق والثاقب وحافظ متماثلات في الزنة دون التقفية، وقد تأتي بعض ألفاظ المماثلة مقفاة من غير قصد، لأن التقفية في هذا الباب غير لازمة، كقول امرئ القيس متقارب:

فتور القيام، قطوع الكلام
تفتر عن ذي غروب خصر
كأن المدام، وصبوب الغمام
وريح الخزامى، ونشر القطر
يعل به برد أنيابها
إذا غرد الطائر، المستحر

وكقول الشاعر على أصل الباب في التزام الزنة دون التقفية متقارب:

صفوح، كريم، رصين إذا
رأيت العقول بدا طيشها
نداه سحوح على أنفس
به اخضر لما سقى عيشها

والبيت الأول أردت.

والفرق بين المماثلة والمناسبة توالي الكلمات المستويات في المماثلة، وتفارقها في المناسبة ومن أمثلة المماثلة قول أبي ذؤيب وافر:

معتقة، مصفقة، عقار
شامية، إذا جليت مروح

فقوله: معتقة، مصفقة، شامية متماثلة لتساوي الكلام في الزنة، وهذا البيت من أقوى دليل على أن التقفية في المماثلة غير لازمة، إذ لو كانت لازمة لأتى بشامية على سجع معتقة مصفقة.

لكنه لما لم يأت بأول العجز على سجع أول الصدر، علم أن التقفية في هذا الضرب غير لازمة. ومثله قول أوس بن حجر متقارب:

مليح، نجيح، أخو ماقط
يكاد يخبر بالغائب

باب التجزئة

وهو أن الشاعر يجزئ البيت من الشعر جميعه أجزاء عروضية، ويسجعها كلها على رويين مختلفين، جزء يجزء، إلى آخر البيت الأول من الجزأين، على روى مخالف لروى البيت، والثاني على روى البيت كقول الشاعر "رمل":

هندية لحظاتها، خطية خطراتها، دارية نفحاتها

ومثال الثاني الذي سجع كل ثان من أجزاءه زائداً على قافيته قول أبي تمام طويل:

تجلى به رشدي، وأثرت به يدي وطاب به ثمدي، وأورى به زندي

وكقول المتنبي بسيط

فنحن في جدل، والروم في وجل والبر في شغل؛ والبحر في خجل

والتجزئة تفارق التسميط من وجهين: أحدهما تقسيم بيتها على ثلاثة أجزاء مسجعة إن كان سداسياً، أو أربعة مسجعة إن كان ثمانياً.

والثاني التزام السجع في الأجزاء على قافية البيت والله أعلم.

باب التسجيع

وهو أن يتوخى المتكلم أو الشاعر في أجزاء كلامه، بعضها غير مترنة بزنة عروضية ولا محصورة في عدد معين، بشرط أن يكون روي الأسجاع روي القافية، والفرق بينه وبين التسميط كون أجزاءه على روى قافيته، وبينه وبين التجزئة اختلاف زنة أجزاءه، ومجيئها على غير عدد محصور معين، ومثاله قول أبي تمام طويل:

تجلى به رشدي، وأثرت به يدي وطاب به ثمدي، وأورى به زندي

وقول ديك الجن كامل:

حر الإرهاب وسميه، بر الإيا ب كريمه، محض النصاب صميمه

والأجزاء المسجعة من هذا البيت التي هي بعض أجزاءه غير مترنة بزنة عروضية، وإن تماثلت في زنة بعضها لبعض، والفرق بينه وبين المماثلة، كون أجزاءه المسجعة اتزنت زنة غير زنة عروضية، وأنت مفرقاً ما بينها، وأتى تسجيعها على روي بيتها، بخلاف أجزاء المماثلة، وتسجيع أجزاء المماثلة على غير روي بيتها والله أعلم.

باب الترصيع

الترصيع كالتسجيع في كونه يجزئ البيت إما ثلاثة أجزاء إن كان سداسياً، أو أربعة إن كان ثمانية وسجع على ثاني العرويين دون الأول، وأكثر ما يقع الجزءان المسجع والمهمل في الترصيع مدججين إلا أن أسجاع التسجيع على قافية البيت، والفرق بينه وبين التسميط المسمى تسمى التبويض أن المسجع من قسمي التسميط معاً هي أجزاء عروضية، والمسجع من الترصيع أجزاء غير عروضية لوقوع السجع في بعض الأجزاء، ومثال الترصيع قول أبي صخر من أناشيد قدامة بسيط

وتلك هيكله خرد مبتلة	صفراء رعبلة في منصب سنم
عذب مقبلها خدل مخلخلها	كالدعص أسفلها مخضوبة القدم
سود ذوائبها، بيض ترائبها	محض ضرائبها، صيغت على الكرم
سمح خلانقها، درم مرافقها	بيروي معانقها من بارد شيم
كأن معتقة، في الدن مغلقة	صفراً مصفقة من رابئ ودم
شبيبت بموهبة، من رأس مرقة	جرداء مهيبة، في حالق شمم
خالط طعم ثناياها وريققتها	إذا يكون توالي النجم كالنظم

فهذا القسم من الترصيع يحسن أن يسمى الترصيع المدمج، لا، كل جزء مسجع من أجزائه مدمج في الجزء الذي قبله فرقاً بينه وبين ما ليس كذلك من الترصيع، فإن من الترصيع ما أجزاؤه المسجعة غير مدجة فيما قبلها، ومثاله قول مسلم بن الوليد بسيط

كأنه قمر، أو ضيغم هصر

أو حية ذكر، أو عارض هطل

وهذا القسم من الترصيع بلتبس بالتسميط التباساً شديداً، والفرق بينهما أن التسجيع في التسميط على الجزء الأول من الأجزاء العروضية، وفي الترصيع على ثاني العرويين، ألا ترى التسجيع من التسميط في بيت مروان جاء في الخماسي لما كان من بحر طويل، وجاء التسجيع من الترصيع في بيت مسلم في الخماسي أيضاً لما كان البيت من بحر البسيط، لكون الخماسي أول الجزأين من الطويل والخماسي ثاني الجزأين من البسيط، وهذا الوضع مما يسأل عنه من يدعي هذا العلم. ويتنخل من ذلك أن الفرق بين التسميط والترصيع من وجهين: أحدهما كن الترصيع يكون بأجزاء مدجة وغيرها، والتسميط لا يقع فيه الإدماج ألبتة.

والثاني أن ما لا إدماج في أجزائه من الترصيع يقع التسجيع منه في ثاني العرويين، ومن التسميط في أولهما، والله أعلم.

باب التصريح

التصريح على ضربين: عروضي، وبديعي، فالعروضي عبارة عن استواء عروض البيت وضربه في الوزن والإعراب والتقفية، بشرط أن تكون العروض قد غيرت عن أصلها لتلحق الضرب في زنته. والبديعي استواء آخر جزء في الصدر، وآخر جزء في العجز في الوزن والإعراب والتقفية، ولا يعتبر بعد ذلك أمر آخر، وهو في الأشعار كثير، لا سما في أول القصائد، وكثير ما يأتي في أثناء قصائد القدماء؛ ويندر مجيئة في أثناء قصائد المحدثين، ووقوعه في الأعشار دليل على غزر مادة الشاعر، وحكمه في الكثرة والقلة حكمن بقية أنواع البديع، إذ كل ضرب من البديع متى كثر في شعر سمح، كما لا يحسن خلو الكلام منه غالباً، وكل ما جاء منه متوسطاً من غير تكلف فهو المستحسن، وقد يأتي بعض أوائل القصائد مصمتاً، ويأتي التصريح في أثناءها بعد ذلك. وقد قسمه أهل الصناعة قسمين: قسم سموه تصريح التكميل، وقسم سموه تصريح التشييطر، ورأيت منهم من جعل هذا القسم الثاني باباً مفرداً يسميه التشييطر من غير أن يضيف إليه لفظة التصريح.

ومثال التصريح العروضي قول امرئ القيس طويل:

ألا عم صباحاً أيها الظلل البالي وهل يعمن من كان في العصر الخالي

ومثال التصريح البديعي قوله في أثناء هذه القصيدة:

ألا إنني بال على جمل بال يقود بنا بال ويتبعنا بال

وقوله أيضاً بعد تصريح أول القصيدة المعلقة، وإن كان إطلاق التصريح عليها إطلاقاً بديعياً، لا عروضياً، إذ أولها عند العروضين مقفى لا مصرع طويل:

ألا أيها الليل الطويل ألا انجلي بصبح وما الإصباح منك بأمتل

ومثال ما وقع في أثناء القصيدة وأولها مصمت قوله متقارب:

تروح من الحي أم تبتكر وماذا يضيرك لو تنتظر

فإن أول هذه القصيدة على أصح الروايتين

لا وأبيك ابنة العامري لا يدعي القوم أني أفر

ثم والى التصريح بعد قوله:

تروح من الحي أم تبتكر

فقال

أم القلب في إثرهم منحدر

وفيمن أقام من الحي هر

أمرخ خيامهم أم عشر

وشافك بين الخليط الشطر

وأهل البديع يسمون التقفية تصريعاً، إذ لا يعتبرون الفرق بينهما. والتصريع في أثناء القصائد والإصمات في أوائلها يستحسن من القدماء، ويستحسن من المحدثين، لأنه من العرب يدل على قوة العارضة وغزر المادة، وعدم الكلفة وتخلية الطبع على سجيته، وهو من المحدثين دليل على قوة التكلف غالباً، ولا يحسن التصريع لأنه لا يأتي منهم إلا مقصوداً، ولا يحسن التصريع إلى ابتداء شعر غير الشعر الذي تقدم ... ألا ترى إلى كون امرئ القيس لما فرغ من ذكر الحماسة في القصيدة الرائية التي ذكرنا منها الأبيات المتقدمة، وشرع في ذكر النسيب صرع، وإذا استقرت أشعارهم وجدت أكثرها كما ذكرت لك.

باب التشطير

هذا أن يقسم الشاعر بيته شطرين، ثم يصرع كل شطر من الشطرين، لكنه يأتي بكل شطر مخالفاً لقافية الآخر ليتميز من أخيه، فيوافق فيه الاسم المسمى، وذلك كقول مسلم بن الوليد بسيط

كأنه أجل، يسعى إلى أمل

موف على مهج، في ويم ذي رهج

وكقول أبي تمام بسيط

لله مرتغب، في الله مرتقب

تدبير معتصم، بالله منتقم

وعندي أن بيت أبي تمام أولى من بيت مسلم بهذا الباب، لأنه عمد إلى كل شطر قدره بيتاً وصرعه تصريعاً صحيحاً، وبيت مسلم شطره الأول مصرع تصريعاً صحيحاً، وشرطه الثاني ليس بمصرع لمخالفة روي وسطه روي آخره في الإعراب، اللهم إلا أن يجعل الشطر على ضربين: ضرب يصرع فيه أحد الشطرين دون الآخر، وضرب يصرعان فيه معاً. والله أعلم.

باب التعليل

وهو أن يريد المتكلم ذكر حكم واقع، أو متوقع فيقدم قبل ذكره علة وقوعه، لكون رتبة العلة أن تقدم على المعلول، كقوله سبحانه: "لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم" فسبق الكتاب من الله علة في النجاة من العذاب. وكقوله تعالى: "ولولا رهطك لرجمناك"، فوجود رهطه علة في سلامته من قومه، وكقول الرسول صلى الله عليه وسلم: "لولا أخاف أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عند

كل صلاة" فخوف المشقة على الأمة هو العلة في التخفيف عنهم من الأمر بالسواك عند كل صلاة.
ومن الأمثلة الشعرية في ذلك قول البحري متقارب:

ولو لم تكن ساخطاً لم أكن **أذم الزمان وأشكو الخطوباً**

فوجود سخط الممدوح هو العلة في شكوى الشاعر الزمان، وكقول أبي القاسم بن هانئ الأندلسي
طويل:

ولو لم تصافح رجلها صفحة الثرى **لما كنت أدري علة للتييم**

فعلل درايته علة التيمم بمصافحة رجل صاحبه صفحة الثرى وهذا من غلو ابن هانئ المعروف فلحق الله
غلوه كيف يقول: إنه لم يدر علة التيمم إلا بما ذكر، وقد وردت علة التيمم من نص الكتاب والسنة: أما
نص الكتاب فقوله تعالى: "فتيمموا صعيداً طيباً" وما نص السنة فقوله صلى الله عليه وسلم: "وجعلت لي
الأرض مسجداً وطهوراً" وحديث عمار بن ياسر في التيمم مشهور وأخرجه مسلم.
أراد ابن هانئ الإغراب في هذا المعنى، فوقع فيما عاداته أن يقع فيه من الغلو، وأحسن من قوله قول ابن
رشيق القيرواني في تعليل قوله عليه السلام: "وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً" حيث قال وافر:

سألت الأرض لم جعلت مصلى **ولم كانت لنا طهراً وطيباً**

فقلت غير ناطقة لأنني **حويت لكل إنسان حبيباً**

فتخلص مما وقع فيه ابن هانئ لكونه ذكر أنه سأل الأرض عن العلة التي بسببها جعلها الله تعالى لرسوله
عليه السلام مسجداً وطهوراً، وتلطف في استخراج علة مناسبة لا حرج عليه في ذكرها بنفسه، فكيف
وقد ذكرها على لسانها في جواب سؤاله، وأبو تمام الذي فتح له باب هذا المعنى ونبهه على استخراج هذه
العلة بقوله طويل:

رباً شفعت ريح الصبا بنسيمها **إلى الغيث حتى جادها وهو هامع**

كان السحاب الغر غيبين تحتها **حبيباً فما ترقا لهن مدامع**

والبيت الثاني، أردت لأن أبا تمام تلطف لمعناه غاية التلطف، إذ جعل دوام مطر السحاب على هذا الربا
إنما كان بامتزلة البكاء من ثاكل دفن محبوباً له، فهو دائم البكاء على قبره، فكأنه جعل العلة في دوام السقيا
كون الحبيب تحت تلك الأرض المسقية، ومن هاهنا جعل ابن رشيق العلة في كون الأرض مسجداً
وطهوراً لكافة الناس الذين بعث إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم كونها حوت لكل بشر حبيباً،
وهذه كلها أمثلة الكلام الذي جاء على وجهه في تقديم علة حكمه على الحكم، وأما ما جاء منه متقدم
المعلول على العلة إغراباً وطرفة، فكقول مسلم بن الوليد بسيط

يا واثيا حسنت فينا إساءته

نجى حذارك إنساني من الغرق

فإن هذا البيت لم يسمع في هذا الباب مثله، لأنه مسلماً أغرب في معناه بتلطفه في تحسين إساءة الوشي، لإنجائه إنسان عينه من الغرق بالدمع، لامتناعه من البكاء لحذره منه، فغاير في ذلك الناس، أعني استحسان الإساءة، وكأنه سئل عن استحسانه إساءة الواشي، ففسر ذلك بنجاة إنسانه من الغرق، وأدمج في هذا المعنى معنى الاعتذار عن عدم البكاء، وتبيين العلة في ذلك من جهة حذره من الواشي بحبه، وفي ذلك فضيحة محبوبه، واحترس من توهم متوهم أن جمود عينه لغلبة جلده على حبه، وصبره على جزعه، إذ ذلك مناف لصحة مذاهب الناس في الغزل، وجاء في ضمن ذلك الإدماج بالمبالغة، إذ مفهوم كلامه وملزومه أنه لولا حذره من الواشي لبكى بدمع يغرق إنسانه بحيث لا ينحسر عنه الماء أبداً، فإنه أطلق عليه لفظ الغرق، وهذا حكم كل غريق، هذا إلى ما وقع في البيت من مساواة معناه للفظه، واتلافه معه ومع وزنه، وحصول المطابقة اللفظية فيه، وعذوبة ألفاظه، وسهولة سبكه، وقرب متناوله، وصحة دلالاته، وتمكين قافيته، فاشتمل هذا البيت على ثلاثة عشر نوعاً من البديع، وهي الإغراب والطرفة، والتعليق، والإدماج، والاحتراس، والمبالغة، والتعليل، والمطابقة، والمساواة، والتغاير، والتفسير، واتلاف اللفظ مع المعنى، واتلاف اللفظ مع الوزن، والتمكين، وقد تشبث القاضي السعيد رحمه الله بأذيال مسلم في هذا المعنى، وأحسن اتباعه باختيار بعض هذه الأنواع حيث قال خفيف:

علمتي بهجرها الصبر عنها

فهي مشكورة على التقبيح

فالجامع بين هذا البيت والبيت الذي قبله وقوع الإحسان من الإساءة، فبيت السعيد وإن شارك بيت مسلم في المساواة، والتعليق، واتلاف اللفظ مع المعنى، واتلاف اللفظ مع الوزن، وتمكين القافية، والتفسير والتعليل، فقد أعوزه الإغراب والمغايرة والمطابقة والاحتراس والإدماج والمبالغة، على أن صريح بيت السعيد مأخوذ من قول القائل منسرح:

أعتقني سوء ما صنعت ال

رق فيا بردها على كبدي

فصرت عبداً للسوء فيك وما

أحسن سوء قبلي إلى أحد

وهذان البيتان في معناهما من أحسن ما سمع، وأكمل وأمتن شعر وأفضل، ولولا الإفراط في الإطالة بينت مانيهما، والله أعلم

باب التطريز

وهو أن يتدئ المتكلم أو الشاعر بذكر جمل من الذات غير مفصلة، ثم يخبر عنها بصفة واحدة من الصفات مكررة بحسب العدد الذي قدره في تلك الجملة الأولى، فتكون الذوات في كل جملة متعددة تقديراً والجمل متعددة لفظاً والصفة الواحدة المخبر بها عن تلك الذوات متعددة لفظاً، وعدد الجمل التي وصفت بها الذوات لأعداد الذوات عدد تكرار واتحاد لا تعداد تغير، وذلك كقول ابن الرومي وافر:

عجاب في عجاب في عجاب

أموركم بني خاقان عندي

صلاب في صلاب في صلاب

قرون في رؤوس في وجوه

وكقوله وافر:

خليق أن يلقب بالخلق

وتسقينني وتشرب من رحيق

عقيق في عقيق في عقيق

كأن الكأس في يده وفيها

ومثل ذلك قول القائل، وأنا أشك هل هو لأبي نواس أو ابن المعتز وافر:

شقيق في شقيق في شقيق

فثوبي والمدام ولون خدي

باب التوشيع

هو من التوشيع، وهي الطريقة في البرد المطلق، فكأن الشاعر أهمل البيت كله إلا آخره، فإنه أتى فيه بطريقة تعد من المحاسن.

وهو عند أهل الصناعة عبارة عن أن يأتي المتكلم أو الشاعر باسم مثنى في حشو الجز، ثم يأتي تلوه باسمين مفردين هما عين ذلك المثنى، يكون الأخير منهما قافية بيته أو سجعة كلامه، كأنهما تفسير ذلك. وقد جاء من ذلك في السنة ما لا يلحق بلاغة، وهو قوله عليه السلام: "يشب ابن آدم وتشب فيه خصلتان: الحرص، وطول الأمل".

ومن أمثلة هذا الباب في الشعر قول الشاعر بسيط

يرثي لي المشفقان الأهل والولد

أمسى وأصبح من تذكركم وصباً

واعتادني المضيان الوجد والكد

قد خدد الدمع خدي من تذكركم

وخانني المسعدان: الصبر والجد

وغاب عن مقلتي نومي لغيبتم

وتحتنه المضرمان: القلب والكبد

لا غرو للدمع أن تجري غواربه

ينتابها الضاريان: الذئب والأسد

كأنما مهجتي شلو بمسبعة

فدى لك الباقيان: الروح والجسد

لم يبق غير خفي الروح في جسدي

وهذه الأبيات جيدة، لو لم يقع في البيت الأول منها تقصير عما يجب في مثله على الطريقة المحمودة من طرائق النسيب حيث قال: "يرثي لي المشفقان"، فإنه ليس من الكلام البليغ قول من يشكو محنة قد رثي لي المشفق منها، وأبلغ منه قول من يقول رثي لي العدو ورق لي الصخر، وأشبه ذلك وما بشعر قلته في هذا المعنى من بأس، وهو بسيط

رثي لي القاسيان: الحب والحجر

بي محتنان ملام في هوى بهما

أودى بي المرديان: الشوق والفكر

لولا الشفيقان من أمنية وأسى

ويحسن أن يسمى ما وقع في بيتي تطريف التوشيع، إذ وقع التوشيع في طرفي كل بيت في أوله وآخره، والله أعلم.

باب العكس والتبديل

وهو أن يأتي الشاعر إلى معنى لنفسه، أو لغيره فيعكسه، فمثال ما عكس الشاعر من المعاني لغيره قول أبي العتاهية يشبه الرايات بالسحاب وافر:

تمر كأنها قطع السحاب

ورايات يحل النصر فيها

فعكسه علي بن الجهم فقال يشبه السحابة بالرايات طويل:

جنود عبيد الله ولت بنودها

فمرت تفوق الطرف حتى كأنها

وما أدري كيف وصف ابن الجهم جنود ممدوحه بالتولي في الحرب! وهو من صفات الدم، فقال الله سبحانه وتعالى: "فلا تولوهم الأدبار". وقال علي عليه السلام وقد قيل له ورثي عيه درع وهي صدر بلا ظهر: ألا وقيت ظهرك، فقال إن وليت فلا وألت هذا الإنكار وقع مني على ما روى لي عنه، فإن الذي روى لي البيت له ذكر أن عبيد الله المذكور فيه هو ممدوحه بهذه القصيدة، والعهد على الراوي، ومن هذا القسم قول الشاعر بسيط

وقد يكون مع المستعجل الزلل

قد يدرك المتأني بعض حاجته

فعكسه غيره فقال بسيط

مع التأني وكان الحزم لو عجلوا

وربما فات بعض القوم أمرهم

ومن القسم الثاني، وهو عكس الشاعر معنى نفسه قول الأول خفيف:

كان للدر حسن وجهك زينا

وإذا الدر زان حسن نساء

ومثله قول الآخر طويل:

بأحسن مما زينتها عقودها

منعمة الأطراف زانت عقودها

ولبعض الشعراء فيمن مدحه، فتغير عليه ومطله بسيط

وقد تعفت معاني وجهه الحسن

ها قد غدا من ثياب الشعر في كفن

فصرت أعرض عنه حين يبصرني

وكان يعرض عني حين أبصره

والبيت الثاني أردت: ومن هذا الباب قول بعضهم وافر:

فإني في خياركم كثير

فإن أك في شراركم قليلاً

ويروي للرشيد هارون متقارب:

ودمعي بسرى نوم مذيع

لساني كتوم لأسراركم

ولولا الهوى لم تكن لي دموع

فلولا دموع كتمت الهوى

والبيت الثاني أردت، هو كقول أبي نواس كامل:

وكأنما قدح ولا خمر

فكأنما خمر ولا قدح

ومن مליح العكس والتبديل قول عبد الله بن الزبير الأسدي وافر:

بمقدار سمدن له سمودا

رمى الحدثنان نسوة آل حرب

ورد وجوههن البيض سودا

فرد شعورهن السود بيضاً

وقد استشهد قوم بهذا البيت على المطابقة، وهو بهذا الباب أولى لما فيه من عكس مطابقة عجزه لصدره،
وتبديل الطباق في العجز.

ومن باب العكس في الكتاب العزيز قوله تعالى "ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم
من شيء" والله أعلم.

باب الإغراق

الإغراق فوق المبالغة، ودون الغلو، ولا يقع شيء من الإغراق والغلو في الكتاب العزيز، ولا الكلام
الصحيح الفصيح إلا مقروناً بما يخرج من باب الاستحالة، ويدخله في باب الإمكان، مثل كاد وما يجري

مجرها.

ومن أمثله قول ابن المعتز طويل:

صببنا عليها ظالمين سياطنا فطارت بها أيد سراع وأرجل

فموضع الإغراق من البيت قوله: ظالمين يعني أنها استفرغت جهدها في العدو، فيما ضربناها إلا ظلماً، ولا جرم أنها خرجت من الوحشية إلى الطيرية، ولو لم يقل: ظالمين لما حسن قوله فطارت ولكنه بذكر الظلم صارت الاستعارة كأنها حقيقة. وقد أنشد بعض المؤلفين بيتين في هذا الباب مستحسناً لهما وهما متقارب:

أليس عجباً بأن امراً شديد الجدل دقيق الكلم

يموت وما علمت نفسه سوى علمه أنه ما علم

وعندي أن هذين البيتين ليس فيهما إغراق ألبته، بل لو قيل إنهما ليس فيهما مبالغة لما رد هذا القول، لأن الشاعر أخبر عن نفسه أو نفس من قصده بذلك أنه عارف بجهله، وأنه يموت وما علم سوى ذلك من نفسه، وهذا أصدق الشعر الذي استحسنته أكثر الفحول، وجاءت أكثر أشعارهم عليه، ولو كان قال: إنه يموت وما علم بجهله لكان ذلك إغراقاً، فلا تثبت له مبالغة إلا بوجه بعيد، وذلك أنه أثبت لنفسه الجهل الخض، ونفى عنها العلم بته، وهو لا بد وأن يكون عالماً بشيء ما، فنفيه كل العلم عنه وهو يعلم بعضه إنما هو من جهة المبالغة.

ولي في هذا المعنى بيت من أبيات ما به من بأس، وهو من أمثلة الباب طويل:

جهلت ولم تعلم بأنك جاهل فمن لي بأن تدري بأنك لا تدري

وبيت امرئ القيس في صفة النار الذي قدمت ذكره في باب المبالغة هو بالإغراق أولى، وقد أشرت إلى ذلك متقدماً عند ذكره وهو طويل:

تنورتها من أذرع وأهلها بيثرب أدنى دارها نظر عالي

باب الغلق

وقد رأيت من لا يفرق بين الغلو والإغراق، ويجعل التسميتين لباب واحد، وعندني أن معنى البابين مختلف باختلاف اسميهما، إلا أن الإغراق أصله في الترع، وأصل الغلو بعد الرمية، وذلك أن الرامي ينصب غرضاً يقصد إصابته، فيجعل بينه وبينه مدى يمكن معه تحيقي ذلك الغرض، فإذا لم يقصد غرضاً معيناً، ورمى السهم إلى غاية ما ينتهي إليه بحيث لا يجد مانعاً يمنعه من استيفاء السهم قوته في البعد سميت هذه

الرمية غلوة فالغلو مشتق منها، ولما كن الخروج عن الحق إلى الباطل يشبه خروج هذه الرمية عن حد الغرض المعتاد إلى غير حد سمي غلواً، قال الله سبحانه وتعالى: "قل يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق" وهو لا يعد من المحاسن إلا إذا اقترن به ما يقربه من الحق، كقد للاحتمال، ولو ولولا للامتناع، وكاد للمقاربة، وأداة التشبيه، وآلة التشكيك، وأشابه ذلك من القرائن اللفظية.

وقد يكون الغلو حقاً من جهة المعنى، كالغلو في الدين، فإنه قسمان: حق وباطل، فالحق فحص الإنسان عن دينه، وإفراط ورعه وتخرجه، كقول بعضهم: إنما الزهد في الجلال، والغلو: الباطل، كقول النصارى في المسيح عليه السلام.

وفي قوله تعالى "لا تغلوا في دينكم غير الحق" دليل على أن من الغلو ما هو حق، وهو ما أشرنا إلهي، وإن كان الغلو في الدين دين الله قد يكون في بعض الأحيان حقاً فالتوسط خير منه كقول رسول الله صلى الله عليه وسلم "خير الأمور أوسطها".

ومن شواهد المستحسنة قول مهلهل وافر:

صليل البيض تفرع بالذكور

فلولا الريح أسمع من بحجر

وقد قيل: إن هذا البيت أكذب بيت قالته العرب، وإن بيت امرئ القيس في صفة النار أقرب منه إلى الحق، لأن فيه ما يخلص به من الطعن وهو اعترافه ببعد مسافة النار، وأنها لم يدها إلا النظر العالي، وقالوا: حاسة البصر أقوى من حاسة السمع، لأن أقوى سمع وأصحه إنما يسمع أعظم صوت من ميل واحد، بشرط حمل الريح ذلك الصوت إلى جهة السامع في الليل عند هدوء الأصوات وسكون الحركات، وحاسة البصر تبصر الجواهر الشفافة، والأجسام الصقيلة، والأجرام المضيئة من بعد يتجاوز الحد بغير واسطة، ورؤية النيران العظيمة المرتفعة مواقدها للناظر المرتفع مكانه ممكنة من البعد ما لم يمنع من ذلك ضوء النهار، ويجول مخروط ظل الأرض دونها، وقد كانت زرقاء اليمامة ترى الجيوش خيلها ورجلها، وتحزر أعدادها من مسيرة ثلاثة أيام، وتنذر به قومها، ويقع الأمر على ما أخطرت به، وقد تواتر الخبر عنها بذلك، وضرب بها المثل، وقد تقدم ذكر النابغة لها في قصة الحمام، فلهذا رجحوا بيت امرئ القيس على بيت مهلهل، وعندني أن بيت مهلهل أقرب إلى الصدق والاستحسان من بيت امرئ القيس على شرطهم، فإنهم شرطوا أن كل كلام تجاوز المتكلم فيه حد المبالغة إلى الإغراق والغلو، واقترن بما يقربه من الإمكان خرج من حد الاستقباح إلى حد الاستحسان، وقد تقدم في بيت مهلهل لولا، وهي من الحروف التي زعموا أن الكلام باقترانه بها يعد من العيب بته، وليس في بيت امرئ القيس شيء من ذلك، مع أنه قد

صرح في البيت الذي قبله أن النار إنما شبت في وجه النهار، عند رجوع المغيرة، من المغار حيث قال: "نشب لقفال"، وضوء النهار يمنع من رؤية النيران والكواكب وجميع الأجرام المضيئة، وهذا القدر يدخل بيت امرئ القيس في باب الاستحالة، مع خلوه مما يقربه من الإمكان، والبيت الذي هو عندي من عيوب هذا الباب لمجيء الإفراط فيه غير مقترن بما يخلصه به من ذلك، وليس مما يحتمل تأويلاً يقربه من الصدق ميت النمر بن تولب الذي يشبه فيه نفسه بالسيف حيث قال بسيط

أبقى الحوادث والأيام من نمر

أسباد سيف صقيل أثره باد

تظل تحفر عنه إن ضربت به

بعد الذراعين والساقين والهادي

وقد تأول بعضهم هذا البيت تأويلاً لو صح تخلص به قائله من العيب، وهو أن قوله:

بعد الذراعين والساقين والهادي

لم يرد أنك تحفر عنه بعد حفرك على هذه الأعضاء، لأنه لم يرد إلا أعضاء المضروب لا أعضاء الضارب، يعني بعد قده الذراعين والساقين والهادي، وهذا عندي لا يخلصه، فإنه على هذا التأويل لم يخرج عن كونه غلواً غير مقترن بما يخلص. والذي هو أقرب منه بحيث لا يجوز أن يؤتى به في باب الغلو ولا يخرج عن كونه مبالغة قول النابغة في صفة السيوف طويل:

تقد السلوقي المضاعف نسجه

ويوقدن في الصفاح نار الحباب

وما تجاوز حد المبالغة فهو غلو، لا سيما وهو غير مقترن، وإذا ثبت أن بيت النابغة أحسن أحواله أن يعد من المبالغة لا من الإغراق، وأن بيت النمر قد تجاوز حدث فهو من الغلو ولما كان ما جاء من الغلو مستحسنًا، لا يكون إلا باقترائه بما تقدم، وما جاء منه غير مقترن كان مستقبحاً. وجاء بيت النمر غير مقترن علم أنه من الغلو المستقبح. والله أعلم.

باب القسم

وهو أن يريد الشاعر الحلف على شيء، فيحلف بما يكون له مدحاً، وما يكسبه فخراً، أو ما يكون هجاء لغيره، أو ويعداً له، أو جارياً مجرى التغزل والترقق.

فأما الأول فمثاله قول الأشر النخعي كامل:

بقيت وفري وانحرفت إلى العلا

ولقيت أضيافي بوجه عبوس

إن لم أشن على ابن هند غارة

لم تخل يوماً من نهاب نفوس

وأبيات الأشتر تضمنت فخراً له، ووعيداً لغيره، فحصل فيها الأفتان مقترناً بالقسم، وكقول أبي علي البصير كامل:

أكذبت أحسن ما يظن مؤملي وهدمت ما شادته لي أسلافي
وعدمت عاداتي التي عودتها قدما من الإتلاف والإخلاف
وصحبت أصحابي بعرض معرض متحكم فيه ومال واف
وغضضت من نارى ليخفي ضوءها وقريت عذراً كاذباً أضيفي
وإن لم أشن على علي خلة تضحى قذى في أعين الأشراف

وقد يقسم الشاعر بما يزيد الممدح مدحاً، كقول القائل كامل:

آثار جودك في الخطوب تؤثر وجميل بشرك بالنجاح يبشر
إن كان لي أمل سواك أعده فكفرت نعمتك التي لا تكفر

وأما ما جاء من القسم في النسب فكقول الشاعر طويل:

جنى وتجنى والفؤاد مطيعه فلا ذاق من يجني عليه كما يجني
فإن لم يكن عندي كعيني ومسمعي فلا نظرت عيني ولا سمعت أذني
ومما جاء في الغزل من القسم قول ابن المعتز بسيط.

لا والذي سل من جفنيه سيف ردى قدت له من عذارية حمائله
ما صارمت مقلتي دمعاً ولا وصلت غمضاً ولا سالمت قلبي بلابله

وهذا أحسن ما وقع في الغزل من القسم، إذ القسم والمقسم عليه كله داخل في باب الغزل.

ومن أحسن ما سمعت في القسم على المدح قول ابن خرداذبة طويل:

حلفت بمن سوى السماء وشادها ومن مرج البحرين يلتقيان
ومن قام في المعقول من غير رؤية بأثبت من إدراك كل عيان
لما خلقت كفاك إلا لأربع عقائل لم تعقل لهن ثوان
لتقبيل أفواه وإعطاء نائل وتقليب هندي وحبس عنان

وإذا انتهيت إلى بلاغة الكتاب العزيز، انتهيت إلى نهاية البلاغة.

ومنه قوله تعالى: "فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون" فإنه قسم يوجب الفخر لتضمنه

التمدح بأعظم قدرة، وأكمل عظمة للحاصل من ربوبية السماء والأرض، وتحقق الوعد بالرزق، حيث أخير سبحانه أن الرزق في السماء، وأنه رب السماء، فيلزم من ذلك قدرته على الرزق الموعود به دون غيره، فعلم أن لا رازق سواه، وأنه لا يحرم رزقه من خلقه، وأما ما حصل من الإيغال إذ قال في الفاصلة سبحانه بعد تمام المعنى: "مثل ما أنكم تنطقون" فمثل هذا الوعد بما هو واقع معلوم ضرورة لا يرتاب منها أحد، وكقوله تعالى: "لعمرك إهم لفي سكرتهم يعمهون" أقسم سبحانه بحياة نبيه صلى الله عليه وسلم ليعرف الناس عظمته عنده، ومكانته لديه سبحانه، وأخبره بعد القسم بحياته أن المعرضين عنه في سكرتهم تسلية له، كما قال له في غير موضع: "ولا يحزنك الذين يسارعون في الكفر" وقوله: "قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون"، وهذه نهاية المحبة وغاية الملاحظة، إذ فداه بآيته، وقد كانوا كذلك، فإنه روى أن أبا جهل قال للنبي صلى الله عليه وسلم: "إن لا نكذبك، ولكن نكذب ما جئت به" والله أعلم.

باب الاستدراك والرجوع

وهو على قسمين: قسم يتقدم الاستدراك فيه تقرير لما أخطر به المتكلم وتوكيد. وقسم لا يتقدمه ذلك، فمن أمثلة الأول قول القائل وافر: هو ابن الرومي:

وإخوان تخذتهم دروعا
فكانوها ولكن للأعادي
وخلتهم سهاماً صائبات
فكانوها ولكن في فؤادي
وقالوا قد صفت منا قلوب
لقد صدقوا ولكن من ودادي

ولم أسمع في هذا الباب أحسن من أبيات ابن الدويذة المغربي فيمن أودعت عنده ودیعة فادعی ضیاعها فقال فيه كامل:

إن قال قد ضاعت فيصدق أنها
ضاعت ولكن منك يعني لو تعي
أو قال قد وقعت فيصدق أنها
وقعت ولكن منه أحسن موقع

ومن هذا الباب قول القاضي الأرجاني، وهو لطيف جداً "رمل":

غالطنتي إذ كست جسمي ضنى
كسوة أعرت عن اللحم العظاما
ثم قالت أنت عندي في الهوى
مثل عيني صدقت لكن سقاما

والبيت الثاني أردت، وقد لطف القائل في شكوى الزمان طويل:

ولي فرس من نسل أعوج سابق
ولكن على قدر الشعير يحمم

علواً ولكن عند من أتقدم

وأقسم ما قصرت فيما يزيدني

هذه كلها شواهد القسم الأول من الاستدراك وأما شواهد القسم الثاني منه، وهو الذي لا يتقدم الاستدراك فيه تقرير ولا توكيد، فمثله قول زهير طويل:

ولكنه قد يهلك المال نائله

أخو ثقة لا تهلك الخمر ماله

باب الاستثناء

الاستثناء استثناءان: لغوي وصناعي، فاللغوي؛ إخراج القليل من الكثير، وقد فرغ النحاة من ذلك مفصلاً في كتبهم.

الصناعي هو الذي يفيد بعد إخراج القليل من الكثير معنى زائداً، يعد من محاسن الكلام، يستحق به الإيتان في أبواب البديع، ومتى لم يكن في الاستدراك والاستثناء معنى من المحاسن غير ما وضعه له، لا يعدان من البديع.

فمن الاستدراك قول زهير طويل:

ولكنه قد يهلك المال نائله

أخو ثقة لا تهلك الخمر ماله

لأن العرب كانت تعد إتلاف المال في الخمر من المدح البليغ، قال شاعرهم كامل:

شريب خمر مسعر لحروب

فإنه لو اقتصر على صدر البيت دل على أن ما له موفور، وتلك صفة ذم، فاستدرك ما يزل هذا الاحتمال، وتخلص الكلام للمدح المحض، ومن ذلك في القرآن قوله تعالى: "قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا" فإنه سبحانه لو اقتصر على قوله: "ولم تؤمنوا" لكان فيه تنفير لكونهم ظنوا الإقرار بالشهادتين من غير اعتقادهما إيماناً، فأوجبت البلاغة أن يستدرك ما استدركه، ليعلمهم أن حقيقة الإيمان موافقة الجنان للسان بالتصديق، بدليل قوله: "ولما يدخل الإيمان في قلوبكم" فلما تضمن الاستدراك إيضاح ما أشكل عليهم عد من المحاسن، إذ صار الكلام به موصوفاً بحسن البيان لما أقام من الحجة عليهم. وهذا من الباب الذي قبل هذا، وإنما ذكرته هاهنا لما ذكرت أن الاستدراك والاستثناء الصناعيين لا بد أن يكون في كل واحد منهما معنى زائد غير ما وضع له يدخله في المحاسن.

والاستثناء كقوله تعالى: "فسجد الملائكة كلهم أجمعون، إلا إبليس" فإن في هذا الكلام معنى زائداً على مقدار الاستثناء، وذلك تعظيم أمر الكبيرة التي أتى بها إبليس من كونه خرق إجماع الملائكة، وفارق جميع

الملا الأعلى، بخروجه مما دخلو فيه من السجود لآدم، وذلك بمثابة قولك: أمر الملك بكذا وكذا فأطاع أمره جميع الناس من أمير ووزير إلا فلاناً، فإن الإخبار عن معصية هذا العاصي بهذه الصيغة مما يعظم أمر معصيته، ويفخم مقدار كبريته بخلاف قولك: أمر الملك بكذا وكذا فعصاه فلان، وفي ضمن ذلك وصف الله سبحانه وتعالى بالعدل فيما ضربه على إبليس من خزي الدنيا وحثمه عليه من عذاب الآخرة. ومثال ذلك قوله سبحانه وتعالى: "فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً" فإن في الإخبار عن المدة بهذه الصيغة تمويلاً على السامع لتمهيد عذر نوح عليه السلام في الدعاء على قومه، وحكمة الإخبار عن المدة بهذه الصيغة تعظيم المدة لكون أول ما يباشر السمع ذكر الألف، واختصار اللفظ، فإن لفظ القرآن أخصر من قولنا تسعمائة سنة وخمسون عاماً كيفما قدرت اللفظتين، فلأن لفظ القرآن يفيد حصر العدد المذكور، ولا يحتمل الزيادة عليه، ولا أن ينقص منه، فإن إخبارك عن سكن دار ثلاثين يوماً، بأنه سكن عشرين يوماً صادق لأنه سكن العشرين وزيادة، بخلاف قولك: سكن أربعين إلا عشرة أيام، فإن هذا اللفظ لا يحتمل الزيادة. وكقوله سبحانه "فأما الذين شقوا ففي النار لهم فيها زفير وشهيق، خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك إن ربك فعال لما يريد، وأما الذين سعدوا ففي الجنة خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك عطاء غير مجذوذ" فإنه سبحانه هذا لما علم أن وصف الشقاء يعم المؤمن العاصي، والكافر المسيء، استثنى من حكم مجلوده في النار بلفظ مطمع، حيث أثبت الاستثناء المطلق وأكده بقوله، "إن ربك فعال لما يريد"، أي أنه لا اعتراض عليه في إخراج أهل الشقاء من النار، ولما علم أن أهل السعادة لا خروج لهم من الجنة، أكد خلودهم بعد الاستثناء بما يرفع احتمال الاستثناء، حيث قال: "عطاء غير مجذوذ" أي غير منقطع، ليعلم أن عطاءه لهم الجنة غير منقطع، وهذه المعاني زائدة على الاستثناء اللغوي.

من أمثلة الاستثناء البديعي في الشعر قول النميري طويل:

فلو كنت بالعنقاء أو بأطومها **لخلتك إلا أن تصد تراني**

فإن هذا الاستثناء يتضمن زيادة مدح المادح الممدوح، وذلك أن هذا الشاعر يقول: إنني لو كنت في حال عدم البحث لأن العرب تضرب المثل بالعنقاء لكل شيء متعذر الوجود لخلتك متمكناً من رؤيتي، ليس لك مانع يمنعك منها إلا من جهتك، فأنت في القدرة على غير مغالب، وهذا نهاية المدح. وكقول أبي نواس طويل:

لمن ظلل عاري المحل دفين **عفا آيه إلا خوالد جون**

فهذا الاستثناء تضمن تعظيم الشاعر لما فيه من تعظيم أحبائه، ودل على شرف نفسه وعلو همته، إذ لا يسمو إلا لحب الكرماء من الناس، وذلك أنه استثنى من آيات الطلل ذكره الخوالد الجون وهو يريد الأثافي، فكونه وصفها بالخلود يدل على عظمها دليل على عظم القدور، وعظم القدور دليل على عظم الكرم، وأكد ذلك بجعلها جوناً أي سوداً لكثرة الوقود عليها، وإن كان الجون يطلق على الأبيض والأسود ولكن القرينة هاهنا خلصته إلى السواد فتم للشاعر من الفخر إلى أه لهذا الطلل ما أراد، وهذا مثل قول عمر بن أبي ربيعة طويل:

بعيدة مهوى القرط إما لنوفل **أبوها وإما عبد شمس وهاشم**

ومن الاستثناء نوع وقع لي فسميته استثناء الحصر، وهو غير الاستثناء الذي يخرج القليل من الكثير، كقول القائل طويل:

إليك وإلا ما تحت الركائب **وعنك وإلا فالمحدث كاذب**

فإن خلاصة هذا البيت قول الشاعر للممدوح: لا تحت الركائب إلا إليك، ولا يصدق المحدث إلا عنك، ولا يحصل هذا الحصر من الاستثناء الأول، فإن قوله تعالى: "فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً" لا يمنع أن يقال: إلا خمسين عاماً وعماماً، لولا توخي الصدق في الخبر، وقوله ورهطه، لولا مراعاة الصدق، ولأن الصيغ التي قدرها المعترض لا يقع مثلها في الكلام الفصيح، فإنها عبارة أهل العي والفهم، فإن قلت: كل الاستثناء موضوع للحصر، فلا اختيار لهذا الاستثناء على الأول، وما قدرته في الاستثناء الأول يلزم مثله في هذا الاستثناء إذا أزلت منه التقديم والتأخير، وأتيت بالكلام على استقامته، قلت: الذي ميز هذا الاستثناء على الأول: هو ما فيه من التقديم والتأخير، فإنه على الصورة التي جاء عليها يفيد حصراً أشد من حصر جنس الاستثناء كله. والله أعلم.

باب الاشتراك

وهو قسمان: معنوي ولفظي، وكل من هذين القسمين معيب، وغير معيب وحسن: فالمعيب المعنوي كقول الفرزدق طويل:

وما مثله في الناس إلا مملك **أبو أمه حيي أبوه يقاربه**

فإن لفظة حي مشتركة بين ضد الميت وبين القبيلة، فلما لم يميز بينهما في البيت بقرينة، أو ما يخلصه من الاشتراك ولا يبينه فيما بعد عد اشتراكاً معيياً، على أن البيت معيب من وجه آخر، وهو تعسف السبك،

وقد مضى ذكره.

ومثال المعنوي الذي ليس بمعيب ولا يحسن قول كثير طويل:

وأنت التي حببت كل قصيرة إلي ولم يشعر بذاك القصائر

عزيت قصيرات الحجال ولم أرد قصار الخطى شر النساء البحائر

فإن لفظة قصيرة مشتركة، فلو اقتصر على البيت الأول كان الاشتراك معيباً، لكنه لما أتى بالبيت الثاني زال العيب فبقي الاشتراك ليس بمعيب ولا بحسن، والذي منعه أن يعد حسناً ما في البيتين من التضمين، فإن ذلك جعل له مترلة بين مترلتين.

وأما الاشتراك الحسن المعنوي فهو اشتراك الشعراء في معنى واحد، إذا شارك الأخير الأول اشتراكاً يوجه له دون الأول، كسائر المعاني التي يتناولها الشعراء بعضهم من بعض.

وأما الاشتراك اللفظي الذي ليس بمعيب مثل اشتراك الناس في مفردات الألفاظ، فإنها ليس أحد أحق بها من أد، فلا يعد الاشتراك في الألفاظ المفردة سرقة، فإن تضمنت معنى من معاني النفس، أو معاني اللفظ عد تناولها سرقة، ومثال الأول قول أبي نواس طويل:

تري العين تستعفيك من لمعانها وتحسر حتى ما تقل جفونها

فلفظة الاستعفاء مشتركة بينه وبين الأبيرد في قوله يرثي أحاه أو ابنه طويل:

وقد كنت أستعفي الإله إذا اشتكى من الأجر لي فيه وإن عظم الأجر

فمثل هذا هو الاشتراك الحسن ومن الاشتراك الحسن اشتراك الشعراء في عمل شعر، وتسميه العرب التمليط بحيث يصنع كل واحد قسيماً، كما حكى عن امرئ القيس والتوءم إذ قال له: ملط أنصاف أبيات آتيك بها، ثم قال وافر:

أحار ترى بريقاً هب وهنا

فقال التوءم:

كنار مجوس تستعر استعاراً

فقال امرؤ القيس:

أرقت له ونام أبو سريج

فقال التوءم:

إذا ما قلت قد هدأ استطارا

وأما الاشتراك المعيب فكقول الأسود بن يعفر في صفة الفرس كامل:

بمقلص عبل جهير شده قيد الأوابد والرهان جواد

فلفظ قيد الأوابد مشترك بين الأسود وامرئ القيس في قوله:

قيد الأوابد هيكل

وهذا الضرب مما يعد سرقة لتضمن اللفظ معنى الإرداف لا سيما والبيتان من باب الوصف للفرس. والاشترك الذي ليس بمعيب ولا بحسن تناول الشاعر اللفظ المتضمن معنى من معاني البديع بحيث ينقله من فنن إلى فن، وذلك أن يأتي المتكلم بلفظ "قيد الأوابد" مثلاً في غير صفة الفرس وهذا وإن لم يقع فذكره مثال يقاس عليه.

وكل هذه الأقسام التي قدمت ذكرها ليست من البديع في شيء، وإنما هي أقسام أحد ضربي الاشتراك. وأما الضرب الثاني منه، وهو الذي يتعلق بكتابتنا، فهو مثل قول امرئ القيس طويل:

كبكر مقاناة البياض بصفرة غذاها نمير الماء غير المحلل

وقول ذي الرمة بسيط

كحلاء في برج صفراء في دعج كأنها فضة قد مسها ذهب

فوقوع الاشتراك بينهما في وصف المرأة بالصفرة، غير أن الأول شبه الصفرة ببيضة النعام، والآخر بالفضة المموهة، فنقل الثاني لكونه من أهل المدر، متأخر الزمان، وقد رأى الخلف والملوك التشبيه العربي إلى التشبيه الملوكي.

والفرق بين الاشتراك اللفظي الذي ليس بمعيب وبين الإيضاح أن الاشتراك في الألفاظ، والإيضاح في المعاني. والله أعلم.

هذا الباب مما ظننت أنني استخرجته ولم أسبق إليه، فلما عثرت عليه بعد إتياني به لغيري غيرته باب سميته باب الفرائد فليترل موضعه؟ ويعد هذا في أبواب من تقدمني، وموضعه بعد باب الاستثناء، وقد أتيت بالباب، فلينقل باب الاشتراك إلى موضعه.

باب التلقيب

وهو أن يقصد المتكلم التعبير عن معنى خطر له أو سئل عنه، فيلف معه معنى آخر يلازم كلمة المعنى الذي سئل عنه، كقول الله تعالى مخبراً عن موسى عليه السلام وقد قال سبحانه له: "وما تلك بيمينك يا موسى،

قال هي عصاي أتوكأ عليها وأهش بها على غنمي ولي فيها مآرب أخرى" وكقول الرسول عليه السلام وقد سئل عن البحر في حديث أوله: إنا نركب البحر، فحواه السؤال عن ماء البحر هلا تجوز به الطهارة؟ فقال: هو الطهور ماؤه الحل ميتته.

باب جمع المختلفة والمؤتلفة

رأيت من المؤلفين من فسر هذه التسمية بما لا يليق بها، وقد استشهد عليها بشواهد من جنس ما فسر به، فاطرحت ذلك وفسرتها بما يليق واستشهدت عليها بشواهد مطابقة لتفسيري، وكذلك فعلت في أكثر الأبواب، ومن وقف على كتابي وكتب الناس في هذا الشأن علم صدق دعواي. والذي أقول في هذه التسمية: إنها عبارة عن أن يريد الشاعر التسوية بين ممدوحين، فيأتي بمعان مؤتلفة في مدحهما، ويروم بعد ذلك ترجيح بمعان تخالف معاني التسوية، كقول الخنساء في أخيها، وقد أرادت مساواته بأبيها مع مراعاة حق الوالد بزيادة فضل لا ينقص بها حق الولد كامل:

جاري أباه فأقبلا وهما
ويتعاوران ملاءة الحضر
وهما وقد برزا كأنهما
صقران قد حطا إلى وكر
حتى إذا نزلت القلوب وقد
لزت هناك العذر بالعذر
وعلا هتاف الناس أيهما
قال المجيب هناك: لا أدري
برقت صفيحة وجه والده
ومضى على غلوائه يجري
أول فأولى أن يساويه
لولا جلال السن والكبر

وأول من فتح باب هذا المعنى فيما أظن زهير حيث قال بسيط

هو الجواد فإن يلحق بشأوهما
على تكاليفه فمثله لحقا
أو يسبقاه على ما كان من مهل
فمثل ما قدما من صالح سبقا

لكن لشعر الخنساء من الفضل في هذا المعنى ما ليس لغيره، وتداول الناس هذا المعنى بعدها، وابتدله الشعراء، فكان فيه أول تابع من المولدين أبو نواس حيث يقول منسرح:

ثم جرى الفضل فانتنتى قدماً
دون مداه بغير ترهيق
فقبل راشا سهماً تراد به ال
غاية والنصل سابق الفوق

وقال البحثري لابن أبي سعيد الثغري كامل:

جد كجد أبي سعيد إنه
قاسمته أخلاقه وهي الردى
ترك السماك كأنه لم يشرف
للمعتدي وهي الندى للمعتني
فإذا جرى من غاية وجريت من
أخرى التقى شأوكما في المنصف

ومعنى البحترى هذا خالف فيه معاني من تقدمه من أبي نواس والخنساء وزهير، فإنهم رجحوا الأول في الفضل على الثاني ترجيحاً لا ينقص من فضل الثاني ولا يغيض منه، والبحترى ساوى بين الثاني والأول من غير ترجيح، وكذلك قوله أيضاً كامل:

وإذا رأيت شمائل ابني صاعد
كالفرقدين إذا تأمل ناظر
أدت إليك شمائل ابني مخلد
لم تعل رتبة فرقد عن فرقد

ومقطوعتا البحترى ليستا من شواهد هذا الباب لما فيهما من المساواة دون الترجيح، وإنما ساق ذكرهما ذكر المعنى الذي ألم به البحترى من المعنى الأول، والله أعلم. ومن جمع المختلفة والمؤتلفة ضرب يأتي الشاعر فيه بأسماء مؤتلفة ثم يصفها بصفات مختلفة، كقول الشاعر بسيط

لله ليلتنا إذ صاحباى بها
إن الهوى والهواء الطلق معتدلا
بدر وبدر سماوي وأرضي
هذا وهذا ربيع طبيعي
بتنا جميعاً وكل في السماع وفي
أسقى وأسقي نديماً غاب ثالثنا
شرب المدام حجازي عراقي
فالدور منا يميني شمالي

ومن جمع المختلفة والمؤتلفة قو العباس بن الأحنف طويل:

وصالكم صرم وحبكم قلى
وعطفكم صد وسلمكم حرب

فإن الوصل والحب، والعطف والسلم من المؤتلفة، والصرم والقلى والصد والحرب من المختلفة. وقد جاء الكتاب العزيز من باب المختلفة والمؤتلفة. معجز لا يلحق سبقاً وهو قوله تعالى: "وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين. ففهمناها سليمان وكلاً آتينا حكماً وعلماً" فإن القرآن ساوى بين داود وسليمان في المنصب إذ أخبر أن كلاً منهما مرشح للحكم وأهل له، ثم رجح سليمان إذ أخبر عنه بأنه سبحانه فهمه القضية القاطعة للحكم بالعدل، ثم عاد إلى المساواة مراعاة لحرمة الوالد وفضله على الولد بقضية صرح فيها بالمساواة، إذ جعل فهم سليمان وجه

المعدلة في الحكم فناله فضل الأبوة، فكان بمعنى الخنساء الذي أخرجته مع فصاحتها وشدة بلاغتها في عدة أبيات مسوقاً في آية وبعض أخرى، هذا إلى ما تضمن القرآن من الزيادة التي لم تقع للخنساء، وهي النكتة في قوله تعالى "وكنا لحكمهم شاهدين" إذ جمع الضمير الذي أضيف إليه الحكم، ومن حقه أن يكون مثنى لعلمه سبحانه أن الحكم من نواذر الأحكام المعادلة، ومثله يتبع ويعمل به، فأخبر أنه سبحانه شهد عليهما في هذا الحكم، وعلى كل من يحكم به تشريعاً لحكم العدل، وإن كان شهيداً على العدل والجور، ولكنه سبحانه يخص العدل بشهادته تشريعاً للعدل، كما قال تعالى "تلك حدود الله ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها" نظراً لمن يعمل بحكم الله تعالى في الوصايا، ومن يتبعه، وأن حكم العدل يقتدي به، والخطأ ليس بقدوة، ولهذا قال: "ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله ناراً خالداً فيها" والله أعلم.

باب التوهيم

وهو أن يأتي المتكلم في كلامه بكلمة يوهم ما بعدها من الكلام أن المتكلم أراد تصحيحها، ومراده على خلاف ما يتوهمه السامع فيها، كقول المتنبي متقارب:

لتحسد أرجلها الأروس

وإن الفئام التي حوله

فإن لفظة الأرجل أوهمت السامع أن لفظة الفئام بالقاف لا بالفاء، ومراد الشاعر الفئام بالفاء التي هي الجماعات، هكذا روى البيت، والمبالغة تقتضيه، إذ القيام بالقاف يصدق على أقل الجمع من العدد، والفئام بالفاء: الجماعات، وأقل ما تكون كل جماعة أقل الجمع فمفهومها أكثر من مفهوم الأول، وما في ذكر القيام بالقاف من تعظيم الممدوح بقيام الناس على رأسه حاصل في عجز البيت في قوله:

لتحسد أرجلها الأروس

فإن مفهوم ذلك قيام من عاد الضمير من أرجلها عليه.

ومن التوهيم قسم آخر، وهو أن يأتي المتكلم بلفظة يوهم بها أن في كلامه لحناً، فإذا انتقد من جهة المعنى وجد فيه جناس من البلاغة يصححه ويمشيه على طريق الإعراب، كقول الرسول عليه السلام: "وما من أيام العمل الصالح فيهن أحب إلى الله تعالى من هذه الأيام العشر" فإن لفظة العشر توهم أنها جاءت على غير الصواب، إذ كانت مؤنثة، والمعدود بها مذكر.

والانفصال عن هذا الإشكال أنه لما كان العمل في العشر لا يخص الأيام دون الليالي، والمراد التحضيض

على العمل فيها، اقتضت البلاغة الإتيان بما يدل عليهما فصرح بلفظ الأيام ليدل بها على ظرف الصيام، وأبدل منها لفظاً مؤنثاً ليدل به على ظرف القيام، ولما كان لفظ الأيام مؤنثاً ساغ أن يبدل منه المؤنث لكون الصناعة لفظية، ولهذا الموضع من البدل نظائر في القرآن: منها قوله تعالى: "أياماً معدودات" وقوله تعالى: "وتلك الأيام نداؤها بين الناس" وقد تخالف طريق الإعراب لأجل صحة المعنى المراد، وفي ذلك قوله تعالى: "وإن يقاتلوكم يولوكم الأديبار ثم لا ينصرون" والقياس أن يكون ينصرون مجزومة لأنها معطوفة على مجزوم، ولكن لما كان المراد الإخبار بأنهم لا ينصرون أبداً ألغى العطف، وأبقى صيغة الفعل على حالها، لتدل على الحل والاستقبال، ولو جزم لما دل إلا على الحال.

ومن التوهيم توهيم يوهم أنه طباق أو تورية، أو غير ذلك من المحاسن وليس عند التحقيق كذلك، كقول أبي تمام طويل:

تردى ثياب الموت حمراً فما أتى لها الليل إلا وهي من سندس خضر

فإن قوله: حمر، وخضر يوهم أن ذلك طباق، وليس بطباق، إذا الأحمر لا يضاد الأخضر، فهذا شاهد توهيم المطابقة.

وأما شاهد توهيم التورية، فكقولي بسيط

رمى ولا وتر عندي قوس حاجبه قلبي فقدرت أن القوس موتور

فإن لفظة موتور توهم أن فيها تورية، وليست بتورية، لأن الصحيح أن يقال: قوس موترة لا موتورة، لأنها من فعل رباعي، والموتور هو الذي ثار لطلب وتره، والوتر والتره والتار بمعنى.

وقد جاء من التوهيم في القرآن الكريم قوله تعالى: "ومن يكرهه فإن الله من بعد إكراهه غفور رحيم" فإن لفظ "غفور رحيم" يوهم أن الغفران والرحمة للمكره له، وهما في الحقيقة له، وإنما ظهر اللفظ يوهم الأول قبل التدبر. والله أعلم.

باب الاطراد

وهو أن تطرد للشاعر أسماء متتالية يزيد الممدوح بها تعريفاً، لأنها لا تكون إلا أسماء آبائه تأتي منسوقة صحيحة التسلسل غير منقطعة، من غير ظهور كلفة على النظم، ولا تعسف في السبك، بحيث يشبه تحدرها باطراد الماء لسهولته وانسجامه، فمضى جاءت كذلك دلت على قوة عارضة الشاعر وقدرته، كقول الأعشى طويل:

أقيس بن مسعود بن قيس بن خالد وأنت الذي ترجو حباءك وائل

وأحسن من هذا البيت قول دريد لكون الأسماء المطردة جاءت في عجز البيت طويل:

قتلنا بعبد الله خير لداته ذؤاب بن أسماء بن زيد بن قارب

حتى قال عبد الملك بن مروان لما سمع هذا البيت: لولا القافية لبلغ به آدم.

ومن هذا الباب قول الحارث بن دوس الإيادي "رمل":

وشاب حسن أوجههم من إياد بن نزار بن معد وقد أربى على هؤلاء الشعراء بعض القائلين خفيف:

من يكن رام حاجة بعدت عن ه وأعيت عليه كل العياء

فلها أحمد المرجى ابن يحيى بـن معاذ بن مسلم بن رجاء فلو لم يقع في هذا البيت التضمين والفصل بين الأسماء بلفظة المرجى لكان غاية لا تدرك، وعقلية لا تملك، هكذا أعظم المؤلفون قبلي أمر هذا البيت، وأثنوا عليه بما حكته عنهم، وعندني أنه دون بيت دريد بطبقات، وهي أن دريداً اطردت له أربعة أسماء سهلة السبك، مسلسلة الألفاظ بغير فصل في أربعة أجزاء من الطويل: جزآن خماسيان، وجزآن سباعيان، وهذا الشاعر اطردت له خمسة أسماء في ستة أجزاء سباعية، من الخفيف، مع الفصل والتكليف، والتضمين، "ولي في هذا الباب بيت لا بأس به بسيط

أجل ملك إلى العلياء منسوب محمد بن أبي بكر بن أيوب

وهو وإن قلت الأسماء فيه، إلا أن كونه في ابتداء القصيدة، وهو مصرع يحسن أن يكون من أمثلة الباب. وهذه شواهد ما جاء من الاطراد بأسماء إذا فصلت من الإضافة استقل المضاف إليه بنفسه، وأما ما جاء الاطراد فيه بأسماء إذا فصلت لم يستقل المضاف إليه بنفسه، فكقول أبي تمام كامل:

طلبت ربيع ربيعة الممهي لها ووردن ظل ربيعة الممدودا

بكريها علويها صعبها ال حصنى شيبانيتها الصنديدا

ذهليها مريها مضريها يمنى يديها خالد بن يزيدا

نسب كأن عليه من شمس الضحى نوراً ومن فلق الصباح عمودا

والبيتان الأوسطان أردت. والله أعلم.

الجزء الثالث

باب التكميل

وهو أن يأتي المتكلم أو الشاعر بمعنى من معاني المدح أو غيره من فنون إذا لشعر وأغراضه، ثم يرى مدحه بالاختصار على ذلك المعنى فقط غير كامل، فيكمله بمعنى آخر، كمن أراد مدح إنسان بالشجاعة ورأى مدحه بالاختصار عليها دون الكرم مثلاً غير كامل، فكملة بذكر الكرم، أو بالبأس دون الحلم، وما أشبهه، وقد جاء منه في الكتاب العزيز قوله تعالى: "فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين" فانظر هذه البلاغة، فإنه سبحانه وتعالى علم وهو أعلم أنه لو اقتصر على وصفهم بالذلة على المؤمنين وإن كانت صفة مدح، إذ وصفهم بالرياضة لأخوانهم المؤمنين والانتقاد لأموهم كان المدح غير كامل، فكملة مدحهم بأن وصفهم بالعزة على الكافرين فأتى بوصفهم بالامتناع منهم، والغلبة لهم، وكذلك قوله سبحانه "محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم" ومثال التكميل في الشعر قول كعب بن سعد الغنوي طويل:

حليم إذا ما الحلم زين أهله مع الحلم في عين العدو مهيب

فقوله: حليم مدح حسن، وقوله: إذا ما الحلم زين أهله احتراس، لولاه لكان المدح مدخولاً، إذ بعض التغاضي قد يكون عن عجز يوهم أنه حلم، فإن التجاوز لا يكون حلماً محققاً إلا إذا كان عن قدرة، وهو الذي قصده الشاعر بقوله: "إذا ما الحلم زين أهله" ويعضد هذا التفسير قول سالم ابن ابصه: بسيط

وحلم ذي العجز ذلك أنت عارفه والحلم عن قدرة ضرب من الكرم

فحاصل قول الغنوي أن ممدوحه حليم في الموضع الذي يحسن فيه الحلم، ثم رأى أن المدح بمجرد الحلم لا يكمل به المدح، لأن من لم يعرف منه إلا الحلم، ربما طمع فيه عدوه ونال منه ما يذم بسببه، فكملة مدحه بأن قال:

مع الحلم في عين العدو مهيب

ولقد أحسن هذا الشاعر في احتراسه في صدر البيت وعجزه معاً باحتراسين حسنين. أما الذي في الصدر فقد تقدم تنبيهنا عليه، وهو قوله: "إذا ما الحلم زين أهله"، وأما الذي في العجز فقوله:

مع الحلم في عين العدو مهيب

لأن المهابة قد تكون مع الجهل.

ومن مליح التكميل قول السموع: طويل:

وما مات منا سيد في فراشه ولا ظل منا حيث كان قتيل

فإنه لو اقتصر على صدر البيت كان مدحاً غير كامل، لأن موت الجميع قتلى وإن اقتضى وصفهم بالصبر، فهو يَحتمل أن يكون عن ضعف وقلة جد في الحروب، فاحترس عن ذلك بأن قال:

وما ظل منا حيث كان قتيل

وأحسن من ذلك كله قوله: "حيث كان" فإنه أبلغ وصف في الشجاعة من التكميل في النسب قول كثير كامل:

لو أن عزة خاصمت شمس الضحى في الحسن عند موفق لقضى لها

فقوله: عند موفق تكميل حسن، غلا أنه دون الأول، وإنما كان مثل هذا تكميلاً لأنه لو قال: عند محكم لتم المعنى، لكن في قوله عند موفق زيادة كمل بها حسن البيت، والسامع يجد لهذه اللفظة من الموقع الحلو في النفس ما ليس للأولى، إذ ليس كل محكم موفقاً، فإن الموفق من الحكام من قضى بالحق لأهله، وفي ذلك إشارة إلى أن عزة تستحق الحسن دون شمس الضحى، فيكون بهذه اللفظة مع التكميل مبالغة، والتكميل هاهنا من تكميل المعاني النفسية لا تكميل المعاني البدئية ولا الفنون. ومن التكميل الحسن قول أبي الحسين المتنبى وافر:

أشد من الرياح الهوج بطشا وأسرع في الندى منها هبوبا

فإنه فطن إلى أنه لو اقتصر على وصفه بشدة البطش دون أن يضيف إلى البطش الكرم كان المدح غير كامل، فكمّل المدح في عجز البيت بذكر الكرم، ولم يتجاوز في ذلك كله وصفه الريح التي شبه ممدوحه بها في حالتي بطشه وكرمه، وما حسن بيت أبي الطيب إلا لأنه أشرقت عليه أنوار أوصاف النبوة، فإنه نظر إلى الحديث الذي يرويه ابن عباس رضي الله عنهما حيث يقول: "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أجود الناس، وكان أجود ما يكون في رمضان؛ كان كالريح المرسلة".

وما وهم فيه المؤلفون في الموضوع أنهم خلطوا التكميل بالتميم، إذ ساقوا في باب التميم شواهد التكميل، لأن كلا منهم ذكر قول عوف بن محلم السعدي سريع:

إن الثمانين وبلغتها قد أحوجت سمعي إلى ترجمان

من شواهد التتميم، ومعنى البيت تام بدون لفظة وبلغتها وإذا لم يكن المعنى ناقصاً فكيف يسمى هذا تتميماً!!، وإنما هو تكميل، وما غلطهم إلا من كونهم لم يفرقوا بين تتميم الألفاظ وتتميم المعاني، فلو سموا مثل هذا تتميماً للوزن لكان قريباً، وإنما ساقوه على أنه من تتميم المعاني البديعة ولذلك أتوا بقول المتنبي طویل:

ويحتقر الدنيا احتقار مجرب يرى كل ما فيها وحاشاك فانيا

في باب التتميم، وهو مثل الأول، وإن زاد على الأول أدنى زيادة، لما في لفظة حاشاك بعد ذكر الفناء من حسن الأدب مع الممدوح، وربما سومح بأن يجعل هذا البيت في شواهد التتميم لهذه الشبهة. وأما الأول فمحض التكميل، ولا مدخل له في التتميم اللهم إلا أن يكون مرادهم بالتتميم تتميم الوزن، لا تتميم المعنى، فيجوز بهذا الاعتبار أن يسمى كل ماورد من الحشو الحسن سوءاً كان متمماً للمعنى أو مكماً تتميماً، لأنه به تم الوزن، ويكون من قسم تتميم الألفاظ، وما قدمناه من تتميم المعاني. ومن مליح التكميل قول النابغة الذبياني في وصف حمار وأتان وحشيين طویل:

فإن هبطاً سهلاً أثاراً عجاجة وإن طلعا حزناً تشظت جنادل

فإنه لو اقتصر على وصف صلابة حوافرها بالمشي في السهل كان المدح لهما غير كامل، حتى يصفهما بالمشي في الحزن، فلا جرم أنه لما أراد تكميل المدح وأوجبت عليه الصناعة أن يقول في عجز البيت: الحزن كما قال في صدره: السهل، فوصفهما بما يوجب لهما بلوغ الغاية في صلابة الحوافر هذا ما نقلته من كلام الناس على هذا البيت، وفيه ما فيه، لأن الاقتصار على وصفهما بالمشي في السهل، وهو يريد وصفهما بصلابة الحوافر، نقص تام في المعنى المراد، فبقية البيت على هذا تتميم لا تكميل. والفرق بين التتميم والتكميل أن التتميم يرد على المعنى الناقص فيتممه والتكميل يرد على المعنى التام فيكمله، إذ كان الكمال أمراً زائداً على التمام. والتتميم لا يكون إلا في المعاني دون الفنون، أعني بالمعاني معاني النفس، لا معاني البديع، التي هي أنواعه، وأعني بالفنون أغراض المتكلم ومقاصده، والتكميل يكون فيهما معاً، هذا إذا لم يرد بالتتميم تتميم الوزن كما قدمت.

ومن أحسن التكميل تكميل وقع في قول شاعر الحماسة بسيط

لو قيل للمجد: حد عنهم وخلهم بما احتكمت من الدنيا لما حادا

فقوله: بما احتكمت من الدنيا، من التكميل العجيب، والله أعلم.

باب المناسبة

المناسبة على ضربين: مناسبة في المعاني، ومناسبة في الألفاظ، فالمعنوية أن يتدعى المتكلم بمعنى ثم يتم كلامه بما يناسبه معنى دون لفظ، كقول الله سبحانه وتعالى: "لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير" فإنه سبحانه لما قدم نفي إدراك الأبصار له، عطف على ذلك قوله: "وهو اللطيف خطاباً للسامع بما يفهم، إذ معترف العادة أن كل لطيف لا تدركه الأبصار ألا ترى أن حاسة البصر لا تدرك إلا اللون من كل متلون، والكون من كل متكون، فإدراكهما إنما هو للمركبات دون المفردات، ولذلك لما قال: "وهو يدرك الأبصار" عطف على ذلك قوله "الخبير" تخصيصاً لذاته سبحانه بصفات الكمال، لأن كل من أدرك شيئاً كان خبيراً بذلك الشيء، ومثل ذلك قوله عز وجل: "قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون" لما كان سبحانه هو الجاعل الأشياء على الحقيقة، وأضاف إلى نفسه جعل الليل سرمداً إلى يوم القيامة، صار الليل كأنه سرمداً بهذا التقدير، وظرف الليل ظرف مظلم لا ينفذ فيه البصر، لا سيما وقد أضاف الإتيان بالضياء الذي تنفذ فيه الأبصار إلى غيره، وغيره ليس بفاعل على الحقيقة، فصار النهار كأنه معدوم، إذ نسب وجوده إلى غير موجد، والليل كأنه لا موجود سواه، إذ جعل كونه سرمداً منسوباً إليه سبحانه فاقتضت البلاغة أن يقول: "أفلا تسمعون" لمناسبة ما بين السماع، والظرف الليلي الذي يصلح للإسماع ولا يصلح لإبصار ولذلك قال في الآية التي تليها: "قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون لأنه لما أضاف جعل النهار سرمداً إليه صار النهار كأنه سرمد، وهو ظرف مضيء تنور فيه الأبصار، وأضاف الإتيان بالليل إلى غيره، وغيره ليس بفاعل على الحقيقة، فصالح الليل كأنه معدوم، إذ نسب وجوده إلى غير موجد، والنهار كأنه لا موجود سواه، إذ جعل وجوده سرمداً منسوباً إليه، فاقتضت البلاغة أن يقول: أفلا تبصرون، إذ الظرف معنى صالح للأبصار، وهذا من دقيق المناسب المعنوية. ومنها قوله تعالى: "أو لم يهد لهم كم أهلكنا من قبلهم من القرون يمشون في مساكنهم إن في ذلك لآيات أفلا يسمعون، أو لم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز فنخرج به زرعاً تأكل منه أنعامهم وأنفسهم أفلا يبصرون" فانظر إلى قوله سبحانه في صدر الآية التي الموعظة فيها سمعية "أو لم يهد لهم" ولم يقل أو لم يروا، وقال تعالى بعد ذكر الموعظة "أفلا يسمعون" وكيف قال في صدر الآية التي موعظتها مرئية "أو لم يروا" وقال بعد الموعظة: "أفلا يبصرون" وكذلك قوله تعالى: "ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قوياً عزيزاً" فإن الكلام لو اقتصر فيه على قوله: "وكفى الله المؤمنين القتال" أوهم ذلك بعض الضعفاء موافقة الكفار في اعتقادهم أن الريح التي حدثت كانت سبب رجوعهم، ولم يبلغوا ما أرادوا، وربما توهموا ألا تكون من عند الله وإنما تقع اتفاقاً

كما يجري في حروب المشركين بعضهم لبعض، فأخبر في فاصلة الآية عن نفسه بالقوة والعزة، ليعلم المؤمنين ويزيدهم يقيناً وثباتاً على أنه الغالب الممتنع، وأن حزبه كذلك، وإنما هو تنوع النصر للمؤمنين ليزيدهم إيماناً بعميم قدرته، فينصرهم مرة بالقتال كيوم بدر، وتارة بالريح كيوم الأحزاب، ومرة بالرعب كبني النضير، وطوراً ينصر عليهم كيوم أحد، وحيناً يعلمهم أن الكثرة لا تغني شيئاً، وأن النصر من عنده كيوم حنين وأمثال ذلك في الكتاب العزيز كثيرة لمن استقراه.

ومن أمثلة المناسبة المعنوية في الشعر قول المتنبي طويل:

على سابح موج المنايا بنجره غداة كأن النبل في صدره وبل

فإن بين لفظة السباحة، ولفظة الموج، ولفظة الوبل تناسباً معنوياً صار البيت به متلاحماً شديداً ملائمة الألفاظ وأحسن منه قول ابن رشيق القيرواني طويل:

أصح وأقوى ما رويناها في الندى من الخبر المأثور منذ قديم
أحاديث ترويهما السيول عن الحيا عن البحر عن جود الأمير تميم

وهذا أحسن شعر سمعته في المناسبة المعنوية، لأنه ناسب فيه بين الصحة والقوة، والرواية والخبر المأثور، والقدم مناسبة معنوية إذ هذه الألفاظ يناسب بعضها بعضاً، وكذلك ناسب في البيت الثاني بين الأحاديث والرواية والعنعنة مناسبة معنوية أيضاً، وأحسن من المناسبة الواقعة في البيت الأول ما وقع في البيت الثاني من صحة ترتيب العنعنة حيث أتى بها صاغراً عن كابر، وآخرها عن أول، كما يقع سند الأحاديث، لأن السيول فرع، والحيا أصله، ولذلك جعلها تروي عن الحيا إذ هي بمرتلة الولد، وهو بمرتلة الوالد، وكذلك الحيا فرع، والبحر أصله، ولذلك جعل الحيا يروي عن البحر، إذ الحيا بمرتلة الولد والبحر بمرتلة الوالد، ثم نزل البحر بمرتلة الولد، وجود الممدوح بمرتلة الوالد له لقصد المبالغة في المدح، ولذلك جعل البحر راوياً عن جود الممدوح، وهذا الذي تقتضيه الصناعة من الأدب مع الممدوح وحسن المبالغة في وصف جوده وفي الناس من سمى المناسبة المعنوية ملائمة، لإقامة فإنه جعل الملائمة اثتلاف ألفاظ الكلام بالمعنى الذي المتكلم آخذ فيه، وقصده بذلك أن يقال في لفظة من ألفاظ المعنى: لو كان موضع هذه غيرها لكان الكلام مؤتلفاً بمعانيه وألفاظه ملائمة له وما ذكرته من المناسبة فيه زيادة على هذا المقدار، إذ غيرها من الألفاظ يوفي بما قاله الناس في تفسير الاثتلاف، ويزيد عليه زيادة معلومة عند أرباب النقد.

وأما المناسبة اللفظية فهي توحي الإتيان بكلمات مترنات، وهي على ضربين: تامة وغير تامة، فالتامة أن تكون الكلمات مع الاتزان مقفاة وأخرى ليست بمقفاة، فالتقفية غير لازمة للمناسبة.

ومن شواهد المناسبة التي ليست بتامة في الكتاب العزيز قوله تعالى: "ق والقرآن المجيد بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شيء عجيب" ومن شواهد التامة في السنة قول الرسول صلى الله عليه وسلم مما كان يرقى به الحسين عليهما السلام "أعيذكما بكلمات الله التامة، من كل شيطان وهامة، ومن كل عين لامة" فقال النبي صلى الله عليه وسلم "لامة" ولم يقل ملمة، وهي القياس، لمكان المناسبة اللفظية التامة؛ ومثله قوله عليه السلام "ارجعن مأزورات غير مأجورات" والمستعمل موزورات، لأنه من الوزر غير مهموز فلفظ به النبي صلى الله عليه وسلم مهموزاً لمكان المناسبة اللفظية التامة، وهذا من الفصاحة العجيبة.

وأما ما جاء من السنة من أمثلة المناسبة الناقصة، فكقوله صلى الله عليه وسلم: "إن أحبكم إلي وأقربكم مني مجالس يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً الموطئون أكنافاً" فناسب صلى الله عليه وسلم بين أخلاق وأكناف مناسبة اتزان دون تقفية. ومما جمع بين المناسبتين قوله عليه السلام في بعض دعائه: "اللهم إني أسألك رحمة تهدي بها قلبي، وتجمع بها أمري، وتلم بها شعثي، وتصلح بها غائي، وترفع بها شاهدي، وتركي بها عملي، وتلهمني بها رشدي، وترد بها ألفتي، وتعصمني بها من كل سوء؛ اللهم إني أسألك الفوز في القضاء، ونزل الشهداء، وعيش السعداء، والنصر على الأعداء" فناسب صلى الله عليه وسلم بين قلبي وأمري، وغائي وشاهدي، مناسبة غير تامة بالزنة دون التقفية، ثم ناسب بين القضاء والشهداء والسعداء والأعداء مناسبة تامة بالزنة والتقفية، ومن أمثلة المناسبتين الناقصة والتامة الشعرية قول أبي تمام طويل:

فنا الخط إلا أن تلك ذوابل

مها الوحش إلا أن هاتا أوانس

فناسب حبيب بين مها وقنا مناسبة تامة، وبين الوحش والخط وأوانس وذوابل مناسبة غير تامة، وهذا البيت من أفضل بيوت المناسبة لما انضم إليها فيه من المحاسن، فإن فيه مع المناسبتين التشبيه بغير أداة والمساواة، والاستثناء، والطباق الفظي، وائتلاف اللفظ مع المعنى والتمكين، فأما المناسبة فقد ذكرناها، وأما التشبيه ففي قوله: مها وقنا، فإن التقدير كمها وقتاً، فحذف الأداة ليدل على قرب المشبه من المشبه به، وأما الاستثناء البديعي ففي قوله: إلا أن هاتا أوانس وقوله: إلا أن تلك ذوابل ليثبت للموصوفات التأنيس والتحبب، وينفي عنهن النفار والتوحش، وكذلك فعل في الاستثناء الثاني، فإنه أثبت به لهن اللين واللدونة؛ ونفى عنهن ما يستهجن، وأما المطالبة ففي قوله الوحش والأوانس، وهاتا وتلك فإن هاتا للقريب، وتلك للبعيد، وأما المساواة فلأن لفظ البيت لا يفضل عن معناه، ولا يقصر عنه، وأما الائتلاف فلكون ألفاظه من واحد متوسطة بين الغرابة والاستعمال، وكل لفظة منها لائقة بمعناها، لا تكاد يصلح

موضعها غيرها، وأما التمكين فلأن قافية البيت مستقرة في موضعها، غير نافرة من محلها، ومن غير أن يتقدمها شيء من لفظها يدل عليها، كما يقع في التوشيح والتصدير وقد غلط الأمدى في تغليب أبي تمام في هذا البيت، حيث زعم أنه نفى عن النساء لين القدود، معتقداً أن الرماح سميت ذوابل للينها، والمعروف عند أهل اللسان ضد ذلك، لأن العرب تقول رمح ذابل إذا كان صلب الكعوب، ومن ذلك قولهم ذبلت شفتاه إذا ييستا، ولا تعرف العرب الذابل إلا اليابس الذي جفت رطوبته، ومن ذلك قولهم: نورة ذابلة إذا جف ماؤها وأخذت في اليبس، وأوب تمام لا يشك أحد أنه أبصر من الأمدى باللغة، وأقر منه بمعرفة اللسان العربي، ويقرب من هذا البيت قول البحري طويل:

فأحجم لما لم يجد فيك مطمعاً وأقدم لما لم يجد عنك مهرباً

فناسب بين أحجم وأقدم مناسبة تامة، وكذلك بين قوله: فيك وعنك، ومطمعاً ومهرباً، إلا أن مناسبة هاتين الجملتين غير تامة، وقد حصل في هذا اللفظ أيضاً المطابقة في أحجم وأقدم، والمساواة والانتلاف والتمكين، فقد استوى هو وبيت أبي تمام فيما ذكرنا وزاد عليه بيت أبي تمام بالتشبيه والاستثناء، ففضل بيت أبي تمام بالمعاني، وفضل بيت البحري بالألفاظ، لأن ألفاظه أكثر استعمالاً وأعذب مذاقاً، وللمناسبة التامة فيه نصاعة وظهور أكثر من المناسبة التي في بيت أبي تمام، وإذا قست ما بين البيتين بما قدمت من كلام الرسول صلى الله عليه وسلم سقطا دون كل جملة منه، إذ كل جملة منه يلي بعضها بعضاً؛ ومفردات الألفاظ تسير إلى معاني شتى، وإلا فانظر إلى قوله صلى الله عليه وسلم تهدي بها قلبي، وما يحصل بها من منافع الدنيا والآخرة، ويتوقى من مضار الدنيا والآخرة هدية القلب، وإلى قوله "وتجمع بها أمري" وما يكون من اجتماع الأمر من عدم التذبذب في كل شيء وحصول الثبوت وإلى قوله صلى الله عليه وسلم: "وتصلح بها غائبي" وما تشير هذه الجملة إليه من إصلاح الباطن، وما يكون في ذلك من الإخلاص، وكذلك قوله: وتدفع بها شاهدي، فإن من أصلح الله سبحانه باطنه أصلح الله تعالى ظاهره، وما وقع في ضمن هاتين الجملتين مع المناسبة من المطابقة بين غائبي وشاهدين وبذلك فاعتبر بقية الدعاء؛ وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم: الفوز بالقضاء فإنه رب قضاء نزل بغير صابر محتسب، فأوبقه وقل من يفوز عند نزول القضاء وكذلك قوله: ونزل الشهداء، أي قراهم أو مترلتهم، وهي أرفع المنازل، وما أعد لهم، ومثله قوله: وعيش السعداء، والنصر على الأعداء؛ فالحظ بدقيق النظر ما اشتملت عليه الألفاظ من المعاني تجدها لا تدخل تحت الإحصاء إلى سلاسة هذا النظم وعذوبة هذا اللفظ وعلوه مع كونه مستعملاً معروفاً، وفصاحته على كونه متداولاً مألوفاً، ووضوح معانيه، وحسن البيان فيه، بحيث لا يفتقر أحد إلى السؤال عن لفظ فيه قد استوى في فهمه الذكي والبليد والقريب من العل والبعيد، وما فيه من الماء

والدياجة التي لا توفى العبارة بها، ولا يقدر البليغ على أن يصفها؛ وهذا أمر يدركه كل ذي ذوق سليم،
وذهن مستقيم، والله أعلم.

باب التفریع

التفریع نوعان: أحدهما أن يبدأ الشاعر بلفظة هي إما اسم، وإما صفة، ثم يكررها في البيت مضافة إلى
أسماء وصفات يتفرع من جملتها أنواع من المعاني في المدح وغيره، كقول أبي الطيب المتنبّي متقارب:

أنا ابن اللقاء أنا ابن السخاء
أنا ابن الضراب أنا ابن الطعان
أنا ابن الفيافي أنا ابن القوافي
أنا ابن السروج أنا ابن الرعان
طويل النجاد طويل العماد
طويل القناة طويل السنان
حديد اللحاظ حديد الحفاظ
حديد الحسام حديد الجنان

وهذا النوع لم أسبق إلى استخراجه، وإنما لم أثبته فيما ابتكرته من الأبواب لكونه نوعاً من التفریع، فالذي
يجب أن يسمى به تفریع الجمع، لأن كل بيت ينطوي على فروع من المعاني شتى من المدح تفرعت من
أصل واحد؛ والنوع الآخر من التفریع وهو الذي تقدمني الناس باستخراجه وتسميته، إنما يتفرع منه معنى
واحد من أصل واحد، إما في بيت أو أبيات، وإما في جملة من الكلام أو جمل، وهو أن يصدر الشاعر أو
المتكلم كلامه باسم منفي بما خاصة ثم يصف الاسم المنفي بمعظم أو صافه اللاتقة به إما في الحسن أو
القبح، ثم يجعله أصلاً يفرع منه معنى في جملة من جار ومجرور متعلقة به تعلق مدح أو هجاء أو فخر أو
نسيب أو غير ذلك، يفهم من ذلك مساواة المذكور بالاسم المنفي الموصوف كقول الأعشى بسيط

ما روضة من رياض الحزن معشبة
غناء جاد عليها مسبل هطل
يضاحك الشمس منها كوكب شرق
مؤزر بعميم النبات مكتهل
يوماً بأطيب منها طيب رائحة
ولا بأحسن منها إذ دنا الأصل

وقد سمى بعض المتأخرين هذا القسم من التفریع النفي والجحود لتقدم حرف النفي على جملة. وأكثر ما
يقع الأصل في بيت والتفریع منه في بيت آخر إما قريباً منه، وإما بعيداً عنه، وقد يقع منه ما يكون الأصل
والفرع معاً في بيت واحد كقول أبي تمام بسيط

ما ربع مية معموراً يطيف به
غيلان أبهى رباً من ربعها الخرب
ولا الخدود وإن أدمين من خجل
أشهى إلى ناظري من خدها الترب

ومن التفریع نوع غیر النوعین الأولین، وهو تفریع معنی من معنی من غیر تقدم نفي ولا حدود، كقول ابن المعتز سریع:

ووعده أكذب من طيفه

كلامه أذع من لفظه

وهو مختص بمعاني النفس دون معاني البديع، والله أعلم.

باب التكرار

وهو أن يكرر المتكلم اللفظة الواحدة لتأكيد الوصف أو المدح أو الذم أو التهويل أو الوعيد، فأما ما جاء منه للذم فكقول عبيد بن الأبرص كامل:

دة يوم ولوا أين أيننا

هلا سألت جموع كن

وكقول مهلهل بن ربيعة أخي كليب في التهديد والوعيد مديد:

يا لبكر أين أين الفرار

يا لبكر أنشروا لي كليياً

وأما ما جاء منه للمدح فكقول كثير عزة في عمر بن عبد العزيز طويل:

وأعظم بها أعظم بها ثم أعظم

فأربح بها من صفقة لمبايع

وكقول أبي تمام خفيف:

وع منهم وباللباب اللباب

بالصريح الصريح والأروع الأروع

وأما ما جاء منه في النسب وهو لطيف جداً لبعض المحدثين متقارب:

عسى أن يلم بروحي الخيال

يقلن وقد قيل إنني هجعت

فقلت لهن محال محال

حقيق حقيق وجدت السلو

وقد يجيء التكرار بالأسماء المضمرات أو المبهمات، كما يجيء بالمظهرات كقول الهذلي طويل:

فقلت وأنكرت الوجوه هم هم

رفوني وقالوا يا خويلد لاترع

وأما ما جاء منه للمدح منه للكتاب العزيز فكقوله سبحانه: "والسابقون السابقون أولئك المقربون" وأما ما جاء منه للتهويل والوعيد فكقوله تعالى: "الحاقة ما الحاقة" وقوله عز وجل: "القارعة ما القارعة" وأما ما جاء منه للاستبعاد فكقوله تعالى: "هيئات هيئات لما توعدون" ومما جاء في السنة من التكرار قول رسول الله صلى الله عليه وسلم حكاية عن أم زرع: "أبو زرع وما أبو زرع" في معرض المدح.

باب نفي الشيء بإيجابه

وهو أن يثبت المتكلم شيئاً في ظاهر كلامه وينفي ما هو من سببه مجازاً. والمنفي في باطن الكلام حقيقة هو الذي أثبتته كقوله سبحانه وتعالى: "... أم لهم أعين يبصرون بما أم لهم آذان يسمعون بها" فإن ظاهر هذا الكلام يقتضي نفي هذه الجوارح، وملزومه يقتضي إثبات الإلهية لمن يكون له مثل هذه الجوارح؛ وباطن الكلام يوجب نفي الإلهية عمن يكون له، فضلاً عمن لا يكون له، لأنه المراد، وكقوله سبحانه: "لا يسألون الناس إلحافاً" فإن ظاهره نفي الإلحاف في المسألة، لا نفي المسألة، والباطن نفي المسألة بته، وعليه إجماع المفسرين، وهو منقول عن ابن عباس رضي الله عنهما وكقوله تعالى: "ولا شفيع يطاع" فالظاهر نفي شفيع يطاع، والمراد نفي الشفيع مطلقاً. ومن أمثلة هذا الباب الشعرية قول امرئ القيس طويل:

إذا سافه العود النباطي جرجرا

على لاحب لا يهتدي بمناره

وظاهر هذا الكلام يقتضي إثبات منار لهذه الطريق، ونفي الهداية به مجازاً، وباطنه في الحقيقة يقتضي نفي المنار جملة وتقدير المعنى أن هذه الطريق لو كان لها منار لكان لا يهدي به، فيكف لا منار لها؟ كما تقول ملن تريد أن تسلبه الخير: ما أقل خيرك، فظاهر كلامك يدل على إثبات خير قليل وباطنه نفي الخير كثيره وقليله.

ومن أمثلة هذا الباب أيضاً قول الزبير بن عبد المطلب يمدح عملية بن عبد الدار، وكان نديماً له طويل:

إذا ما انتشى لم تحضره مفاقره

صبحت بهم طلقاً يراح إلى الندى

كليلاً على وجه النديم أظافره

ضعيف يحث الكأس قبض بنانه

وظاهر البيتين يقتضي أن للممدوح مفاقر لم تحضره إذا انتشى، وأن له أظافر تخمش وجه نديمه خمشاً خفيفاً. وباطن الكلام في الحقيقة نفي المفاقر جملة والأظافر بته.

ومن هذا الباب قسم يوجب فيه المتكلم لنفسه شيئاً وينفيه بعينه عن غيره، أو ينفي عن موصوف ما صفة يوجبه لموصوف آخر، كقول السموءل طويل:

ولا ينكرون القول حين نقول

وننكر إن شئنا على الناس قولهم

وكقول الآخر طويل:

ويملاً منها كل حجل ودملج

هضيم الحشا لا يملأ الكف خصرها

باب الإيداع

هذا الباب يسميه من لا يعرف اصطلاح أهل هذه الصناعة تضميناً، وكذلك يسمى الباب الذي بعده، وقد تقدم الفرق بين هذه الأبواب في باب التضمين، وشرح هذه التسمية أن يعمد الشاعر أو المتكلم إلى نصف بيت لغيره يودعه شعره سواء أكان صدرأ أم عجزاً، وأما الناثر فإن أتى في نشره بنصف بيت لغيره سمي إيداعاً، وإن كان لنفسه سمي تفصيلاً، ومثال ما وقع من ذلك في الكتاب العزيز قوله تعالى: "يعملون له ما يشاء من محاريب وتمائيل وجفان كالجواب وقدور راسيات" وإن أوقعت الفصاحة مثل هذا غير مقصود، وكان من الأدب ألا يذكر هذا والله أعلم.

والموهم أنه مودع في الكتاب العزيز قول امرئ القيس مجزوء الرمل:

وقدور راسيات

وجفان كالجواب

إن صحت الرواية أنه كذلك، وإن روى التقديم والتأخير فبطل ذلك ومثال ما وقع من ذلك في النثر قول علي عليه السلام في جواب كتابه لمعاوية: "تم زعمت أبي لكل الخلفاء حسدت، وعلى كلهم بغيت، فإن يكن ذلك كذلك فليست بالجناية عليك، فيكون العذر إليك".

وتلك شكاة ظاهر عنك عارها

وهذا عجز بيت تمثل به أيضاً عبد الله بن الزبير وقد قال أهل الشام له: يا بن ذات النطاقين على سبيل المعيرة لها بذلك، نظر إلى أنها كانت خادمة لا مخدومة، على طريقة الجاهلية في مدح النساء وذمهم، فأنشد طويل:

وتلك شكاة ظاهر عنك عارها

وعيرها الواشون أني أحبها

لأن هذا الاسم من فخر أسماء رضي الله عنها، فإنه سماها به رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما أخرجت له ولأبيها رضي الله عنه زاد الهجرة، فأخذ الإمام عجز هذا البيت فأودعه كلامه بعد أن وطأ له توطئة لائقة به. ملائمة له.

ومن شواهد في الشعر قول أبي نواس طويل:

تعزى بصبر بعد فاطمة القلب

تغنى وما دارت له الكأس ثالثاً

وقد يجتمع الإيداع والتضمين في شعر واحد، كقول علي ابن الجهم في فضل الشاعرة، وبنان المغني مجزوء الرمل:

اسمعي أو خبرينا

كلما غنى بنان

حييت عنا يا مدينا

أنشدت فضل ألا

والندامى غافلينا

عارضت معنى بمعنى

فوقع التضمين في البيت الأول، والإيداع في البيت الثاني وكنت نظرت إلى بيت لأبي الطيب وهو طويل:

مجر عوالينا ومجرى السوابق

تذكرت ما بين العذيب بارق

فأودعت كل قسيم منه بيتاً من قصيدة مطلعها طويل:

دموعاً لتبكي فقد حي مفارق

أعر مقلتي إن كنت غير مرافقي

وشابت لتشتيت الفراق مفارقي

فقد نصبت يوم الوداع مدامعي

والبيتان منهما:

تذكرت ما بين العذيب وبارق

إذا الوهم أبدى لي لماها وثرها

مجر عوالينا ومجرى السوابق

ويذكرني من قدها ودامعي

وإن أخذ نصف بيت لغيره، فابتدأ به وثني عليه تنمة البيت لا غير فذلك تمليط.

وإن بني عليه كل ما يخطر له من أبيات لتمام غرضه، فذلك توطيد، والله أعلم.

باب الاستعانة

وهو أن يستعين الشاعر ببيت لغيره، في شعره بعد أن يوطئ له توطئة لائقة به هنا بحيث لا يبعد ما بينه وبين أبياته، وخصوصاً أبيات التوطئة له، وقد شرط بعض النقاد التنبيه عليه، إن لم يكن البيت مشهوراً، وبعضهم لم يشترط ذلك، وهو الصحيح، فإن أكثر ما رأينا ذلك في أشعار الناس غير منبه عليه، وأما الناثر فإن أتى في أثناء نثره بيت لنفسه سمى ذلك تشهيراً، وإن كان البيت لغيره سمى استعانة، كقول علي عليه السلام في خطبته المعروفة بالشقشقية: بينا هو يستقبلها في حياته، إذ عقد لآخر بعد وفاته سريع:

ويوم حيان أخي جابر

شتان ما يومي على كورها

فهذا البيت للأعشى استعان به علي عليه السلام كما ترى: ومثال الاستعانة في الشعر قول الحارثي طويل:

وقد شرقت بالماء منها المحاجر

وقائله والدمع سكب مبادر

بنا وهي منا موحشات دوائر

وقد أبصرت حمان من بعد أنسها

أنيس ولم يسمر بمكة سامر

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا

فقلت له والقلب مني كأنما

بلى نحن كنا أهلها فأبادنا

فاستعان هذا الشاعر ببني حرقه بنت تبع، وأرشق من هذا وأخصر قول أبي نواس بسيط

حتى تغني وما تم الثلاث له

يا ليت حظي من مالي ومن ولدي

ووقع لي من طريق الاستعانة أبيات هجوت بها متطبباً يهودياً طويلاً:

رأيت أبا الخير اليهودي ممسكا

وقد رش منها فوق صفحة وجهه

فقلت له: ما هذه؟ قال: بولة

قريبة عهد بالحبيب وإنما

ولا يضر تصحيف الحرف أو تحريفه من الكلام المتقدم، ليدخل في معنى الكلام المتأخر عند الاستعانة كما فعلت بيت من الحماسة حيث قلت طويلاً:

إذا ما خليل صد عنك ملالة

فلا تحتفل واستغن بالله إنه

وهبه كشيء لم يكن أو كنازح

فإن هذا البيت كان نسيباً، وكان أوله وهبها فحرفت ضمير التأنيث لضمير التذكير حتى دخل في معنائه. والفرق بين هذا القسم من الاستعانة، وبين المواربة، أن المواربة تكون في كلام المتكلم نفسه، والاستعانة لا تكون إلا بكلام غيره، وإن ابتدأ بيت غيره وبني عليه فذلك تأسيس، مشتق من أس البناء، فإن هذا الشاعر يكون قد جعل بيت غيره أساساً بني عليه شعره، والله أعلم.

باب الموازنة

وهو أن تأتي الجملة من الكلام، أو البيت من الشعر مترن الكلمات، متعادل اللفظ في التسجيع والتجزئة معاً في الغالب، كقول امرئ القيس متقارب:

أفاد، وساد، وقاد، وزاد

وشاد، وجاد، وزاد، وأفضل

وكقول الآخر متقارب:

ربيع، مرئ، رفيع الذرا

وهوب، مهيب، رحيب الفناء

والفرق بين الموازنة والمماثلة التزام التسجيع في الموازنة، وخلو المماثلة عنه، والفرق بينها أعني الموازنة وبين التجزئة مخالفة تسجيع أجزاء التجزئة، ومشابهة تسجيع أجزاء الموازنة.

باب التذييل

وهو أن يذيل المتكلم كلامه بجملة يتحقق فيها ما قبلها من الكلام، وتلك الجملة على قسمين: قسم لا يزيد على المعنى الأول، وإنما يؤتى به للتوكيد والتحقيق. وقسم يخرج المتكلم مخرج المثل السائر ليحقق به ما قبله. وإما أن يكتفي بما يتضمن من زيادة المعنى والفرق بينه وبين التكميل أن التكميل يرد على معنى يحتاج إلى الكمال، ولا كذلك معنى التذييل. ومما جاء من ذلك في الكتاب العزيز متضمناً القسمين معاً قوله تعالى: "إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله" ففي هذه الآية الكريمة تذييلان: أحدهما قوله تعالى: "وعداً عليه حقاً"، فإن الكلام قد تم قبل ذلك، ثم أتى سبحانه بتلك الجملة لتحقيق ما قبلها. والآخر قوله سبحانه: "ومن أوفى بعهده من الله"، فخرج هذا الكلام مخرج المثل السائر لتحقيق ما تقدمه، فهو تذييل ثانٍ للتذييل الأول وقد جاء في السنة من هذا الباب قوله صلى الله عليه وسلم: "من هم بحسنة ولم يعملها كتبت له حسنة، فإن عملها كتبت له عشرًا، ومن هم بسيئة ولم يعملها لم تكتب عليه، فإن عملها كتبت عليه سيئة واحدة، ولا يهلك على الله إلا هالك" فقولته صلى الله عليه وسلم: "ولا يهلك على الله إلا هالك"، تذييل في غاية الحسن، خرج الكلام فيه مخرج المثل. ومن هذا الباب في الشعر قول النابغة الذبياني طويل:

على شعث أي الرجال المهذب

ولست بمستبق أخا لا تلمه

فقوله: أي الرجال المهذب من أحسن تذييل وقع في شعر. وكقول بعض العرب كامل:

وعلام أركبه إذا لم أنزل

ودعوا نزال فكنت أول نازل

فعجز هذا البيت كله تذييل حسن، وكلا التذييلين من بيت الأعرابي وبيت النابغة من القسم الثاني من التذييل، وهو الذي خرج الكلام فيه مخرج المثل، وتذييل النابغة من القسم الوجيز من البلاغة لاختصار لفظه، وتذييل الأعرابي من القسم البسيط منهما، وإنما بسط الكلام فيه لما تضمن معنى التذييل من المطابقة في قوله أركبه وأنزل وتذييل النابغة حال من ذلك، ولقد أحسن بعض المحدثين في هذا الباب حيث قال المتقارب:

صدقتمك الود أبغي الوصال

فجاز يتموني بطول البعاد

فكل من عجز البيت تذييل من القسم الثاني، لخروج الكلام فيهما مخرج المثل. وأحسن من ذلك كله قول الخطيب طویل:

نزور فتى يعطي على الحمد ماله

ومن يعط أثمان المحامد يحمد

فإن عجز البيت كله تذييل خرج مخرج المثل في غاية الحسن، لأن صدر البيت استقل بالمعنى المراد على انفراده، وفيه مع اتصاله بالعجز تعطف حسن في قوله: يعطي ويعط، وبالتعطف صار بين العجز والصدر ملاحظة وملاءمة شديدة، ورابطة وثيقة، مع أن العجز إذا انفرد استقل مثلاً وتذيلاً، كما أن الصدر إذا انفرد استقل بالمعنى المقصود من جملة البيت، والغرض المطلوب والتمثيل أيضاً، وقل أن يوجد بيت بين صدره وعجزه مثل هذا التلاحم على استقلال كل قسم بنفسه وتمام معناه ولفظه. ومن التذييل الحسن قول أبي الشيص كامل:

وأهنتني فأهنت نفسي عامداً

ما من يهون عليك ممن أكرم

فعجز البيت كله تذييل في ضمنه مطابقة لذكره الهوان والكرامة. ومن بعيد التذييل قول ابن نباتة السعدي بسيط

لم يبق جودك لي شيئاً أوْمله

تركتني أصحاب الدنيا بلا أمل

فإنه لما انقضى ما أراه من المدح بقوله:

لم يبق جودك لي شيئاً أوْمله

ثم احتاج إلى تتميم البيت وأراد إتمامه بتكرار المعنى المتقدم فيه استحساناً له وتوكيداً، وكره التكرير لا لمعنى زائد، وعلم أن لا مزيد على معناه في بابه، فأخرجه مخرج المثل حيث قال:

تركتني أصحاب الدنيا بلا أمل

ليحصل ما أُراده من التوكيد وزيادة المعنى، لأن المدح إذا خرج مخرج المثل كان أسير في الأرض، وفي ضمن ذلك لهج الناس بالمدح الخارج مخرج المثل، وهذا البيت وإن نظر فيه إلى قول المتنبي بسيط

تمسي الأمانى صرعى دون مبلغه **فلا يقول لشيء ليت ذلك لي**

فبيت ابن نباتة أفضل من بيت المتنبي، لأنه أحسن الأدب مع ممدوحه، فلم يجعله في حيز من يتمنى شيئاً، وجعل قدرته وجوده أصاراً مادحة قد بلغ كل أمنيته فلم يبق له أمل: وإن كان في بيت المتنبي زيادة من جهة المبالغة في قوله: دون مبلغه واستعارة في اللفظ لقوله: تمسي الأمانى صرعى ففي بيت ابن نباتة أن كل ما جعله المتنبي للممدوح، جعله ابن نباتة لشاعر الممدوح من نعمته وزيادة المبالغة في المدح بكونه أخرج المدح مخرج المثل كما بينا، فهو أسير وأبقى، وإذا أنصف الناظر في البيتين وجد معنى بيت المتنبي بكماله في صدر بيت ابن نباتة لأن حاصل بيت المتنبي أن الممدوح قدر على كل الأمانى، وهذا قد استقل به صدر بيت ابن نباتة، والذي في صدر البيت هو الذي في عجزه لأنه ملزومه، أعني بيت المتنبي، وكله في قول ابن نباتة:

لم يبق جودك لي شيئاً أوْمله

وعجز بيت ابن نباتة ملزوم صدره، لأن من نال كل أمل صحب الدنيا بلا أمل، غير أن ابن نباتة لكونه أخرج العجز مخرج المثل صار كأنه قد استأنف معنى آخر مستقلاً بجميع معنى بيت المتنبي، مع كونه زاد بأن جعل للممدوح، حسن أدب معه، وبالغ بإخراج المدح مخرج المثل، فقد ترجح بيت ابن نباتة على بيت المتنبي من وجوه شتى، والله أعلم.

وقد يختلط على بعض الناس هذه الأبواب الأربعة، وهي باب الإيغال، والتكميل، والتمكين، والتذليل، وأنا أشير إلى الفرق بينها فأقول: الإيغال لا يكون إلا في الكلمة التي فيها الروي وما يتعلق بها، وهو أيضاً مما يأتي بعد تمام المعنى كالتكميل والتذليل وأما التمكين فيفارق هذه الأبواب مزون كونه عبارة عن استقرار القافية في مكانها، لكنها لا تزيد معنى البيت شيئاً، ومتى حذفت القافية نقص المعنى، مع كونها غير نافرة من البيت، والتكميل وإن أتى بعد تمام المعنى فهو يفارق الإيغال من وجهين، أحدهما: كونه يأتي في الحشو والمقاطع، والإيغال التذليل لا يكونان إلا في المقاطع دون الحشو، والإيغال والتذليل لا يخرجان عن معنى الكلام المتقدم، والتميل لا بد أن يأتي بمعنى يكمل الغرض المتقدم إما تكميلاً بديعاً أو تكميلاً عريضاً، لأنه يكون بمعنى البديع كمطابقة تكمل جناساً، أو مبالغة تكمل تشبيهاً، أو بالفنون، والفنون عند أهل الصناعة هي ما ينتجها المتكلم من الأغراض والمقاصد كالمدح، والهجاء، والرتاء، والفخر،

والوصف، وغير ذلك، والتذييل يفارق الإيغال لكونه يزيد على الكلمة التي تسمى إيغالاً، آخذاً في البيت من الجزء الذي هو الضرب إلى أول العجز والله أعلم.

باب المشاكلة

وهي أن يأتي المتكلم في كلامه أو الشاعر في شعره باسم من الأسماء المشتركة في موضعين فصاعداً من البيت الواحد، وكذلك الاسم في كل موضع من الموضعين مسمى غير الأول، تدل صيغته عليه بتشاكل إحدى اللفظتين الأخرى في الخط والفظ، ومفهوماً مختلف، ومن انشادات التبريزي في هذا الباب قول أبي سعيد المخزومي مديد:

والهوى للمرء قتال

حدق الآجال آجال

وأنشد فيه قول الشماخ بسيط

ورقاء حين دعت ساقاً على ساق

كادت تساقطني والرحل أن نطقت

وقال التبريزي: فلفظة الآجال الأولى أسراب البقر الوحشية، والثانية منتهى الأعمال، وبينهما مشاكلة في الخط واللفظ، وكذلك ساق الأولى التي هي ذكر الحمام، والثانية التي هي ساق الشجرة، وعندني أن ما أنشده التبريزي في هذا الباب داخل في أحد قسمي التحنيس المماثل، والذي ينبغي أن تفسر به المشاكلة قولنا: إن الشاعر يأتي بمعنى مشاكل لمعنى في شعر غير ذلك الشعر، أو في شعر غيره بحيث يكون كل واحد منهما وصفاً أو نسباً أو غير ذلك من الفنون، غير أن كل صورة أبرز المعنى فيها غير الصورة الأخرى، فالمشاكلة بينهما من جهة الغرض الجامع لهما، والتفرقة بينهما من جهة صورتيهما اللفظية، ومثال مشاكلة الشاعر نفسه قول امرئ القيس في صفة الفرس طويل:

بمنجرد قيد الأوابد هيكل

وقد أعتدي والطير في وكناتها

وقوله في صفة الفرس أيضاً طويل:

تقول هزيز الرياح مرت بأثأب

إذا ما جرى شوطين وابتل عطفه

فامرؤ القيس في هذين البيتين قاصد وصف الفرس بشدة العدو، غير أنه أبرز المعنى الأول في صورة الإرداف، حيث قال: قيد الأوابد فجعله يدرك الوحش إدراك المطلق للمقيد، وأبرز الثاني في صورتي وصف وتشبيهه بغير أداة، إذ شبه عدوه بعد جريه شوطين، وعرقه بهزيز الرياح تمر بهذا الشجر الذي يسمع للرياح فيه هزيز كفيف الفرس الحاد إذا حرق الرياح بشدة عدوه، فكل معنى من هذين المعنيين مشاكل

لصاحبه إذ الجامع بينهما وصف الفرس بشدة العدو، غير أن قدرة الشاعر تلاعبت به، فأبرزته في صور مختلفة، فهذا ما شاكل الشاعر فيه نفسه.

وأما ما شاكل فيه غيره فكقول جرير بسيط

قتلنا ثم لم يحيين قتلنا

إن العيون التي طرفها حور

وهن أضعف خلق الله أركاننا

يصرعن ذا اللب حتى لا حراك به

فإن مشاكلة قول عدي بن الرقاع كامل:

عينيه أحور من جآذر جاسم

وكأنها بين النساء أعارها

في عينه سنة وليس بنائم

وسنان أقصده النعاس فرنقت

فالمشكلة بين الرجلين من جهة أن كلا منهما وصف العيون بالمرض والفتور، فأبرز معناه في صورة غير الصورة الأخرى بحسب قوة عارضته في السبك، وحسن اختياره اللفظ، وجودة ذهنه في الزيادة والنقص في التفضيل بين هذين الشعرين: شعر جرير، وعدي، بحيث لا يسعه هذا المكان. وقد اعترض على بيت عدي الأول بما اعترض به على بيت أبي تمام الذي يقول فيه طويل:

فخر سريعاً بين أيدي القصائد

جذبت نداء غدوة السبت جذبة

فإن بعض الناس قال: طباء جاسم كظباء غيرها من المواضع، فليس لذكرها فائدة إلا كونها قافية ليصير بها الكلام بيتاً من الشعر، كما أن غدوة السبت في بيت أبي تمام كغدوة الأحد وغيره من الأيام، فذكرها دون غيرها لا يفيد معنى زائداً، وإذا لم يفد معنى علم أنه حشو جئ به لإقامة الوزن، وقد اعترض على قول امرئ القيس طويل:

ورضت فذلت صعبة أي إذلال

باعترض ظاهره يشبه الاعتراض على بيتي عدي وأبي تمام، وباطنه يخالفهما، فإن ابن سنان الخفاجي خطأ أبا هاشم في كونه ذهب إلى أن بيت امرئ القيس معيب بالحشو الذي لا يفيد معنى، لأنه قال: صعبة، حشو أو لفظة، فذلت، وسب أبا هاشم أقبح سب، والصواب مع أبي هاشم، لأن الذي قاله الخفاجي يردي به عليه قوله لو قال الشاعر، فرضت فذلت لم يكن في الكلام دليل على أن ثم صعوبة، وهذا عين الخطأ من الخفاجي، لأنه دل على وجود الصعوبة مرتين بقوله: فرضت، وقوله: فذلت، إذ لا يراض إلا الصعب، ولا يذل إلا ما كان ذا صعوبة، ولو لم يكن ثم صعوبة لكان قوله: فذلت، خطأ، لأن ما ليس بصعب فهو ذليل، إذ لا واسطة بين الذل والصعوبة، فبيت امرئ القيس معيب، بخلاف بيتي عدي وأبي تمام.

والرد على هذا المعترض الذي اعترض على بيتي عدي وأبي تمام بأن قال: ذكر عدي جاسم دون غيرها من المواضع لأنها معروفة بأدم الظباء، وأدمة اللون دليل على الحرارة واليبس، وذلك يوجب شدة سواد العيون ونقاء بياضها، ولهذا قال: أحور، والخور نقاء بياض العين وشدة سوادها، وكذلك ذكر أبي تمام غدوة السبت وهو الوقت الذي وقعت فيه عطية الممدوح دليل على تعظيم العطية وتفخيم أمرها وجعلها من الغرائب التي لم يقع قبلها مثلها، فلأجل ذلك أرخ يوم وقوعها، وإذ لا يؤرخ إلا الكوائن العظام، والحوادث الجسام، ولو لم يذكر وقت وقوعها معيماً باسمه لم تحصل هذه المبالغات التي تزيد الممدوح مدحاً فدل على أنه قصد بها إفادة هذه المعاني، لا إقامة الوزن، ولو قصد إقامة الوزن فحسب، لما اقتصر على غدوة السبت دون غيرها مما يسد مسدها، فإنه لو قال:

جذبت نداء بالمدائح جذبة

استقام له الوزن، لو لم يكن أراد ما ذكرت، وقد عيب من هذا البيت قوله: جذبت نداء وما ناسبها من ألفاظ البيت، فإنهم قالوا: هذا دليل على أن نداء عسر على طالبه، صعب على محاوله، كما عابوا على ليلي الأخيلية قولها كامل:

بين البيوت من الحياء سقيما

ومخرق عنه القميص تخاله

تحت اللواء على الجيوش زعيما

حتى إذا رفع اللواء رأيته

وقالوا: لا يحتاج إلى أن يجذب لقضاء الحوائج حتى تتخرق قميصه إلا متقاعد عن الحوائج، وهذا الاعتراض غير جار على طريق الحق، فإن المعطي لا بد وأن يعطي بسبب من نفسه عشقاً في العطاء، فلا يحتاج إلى أحاديث تجذبه، وإما أن يعطي بسبب من خارج، والأول مطاوع لغرض نفسه، مسكن لخليل قلبه، ليست عليه مشقة في عطية، والأجر على قدر المشقة، وقد تقدم ذكر هذا الفصل، ونحن هاهنا مفتقرون إلى إعادته، والمشكور كل الشكر من غالب نفسه الأمانة، وأرغم أنف شيطانه، وأعطى كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن المتصدق لا يخرج الصدقة حتى يفكها من لحيي سبعين شيطاناً" أو كما قال، وقال صلى الله عليه وسلم "إنما الصدقة أن تتصدق وأنت صحيح شحيح تخاف الفقر، وتأمل الغنى"، وخير المعطين من كان السبب الذي يجذبه إلى العطاء، سماع المدح والثناء، فقد ثبت أن بيتي عدي وأبي تمام ميران مما وسما به من العيب، وكذلك بيت الأخيلية، وهو يزيد عليهما بما تضمن من وصف الممدوح بالصبر على أذى أرباب الحوائج، والرضا من العيش بأدنى ملبس وأدنى عيش، مع القدرة التي دلت عليها بقولها:

..... رأيتُه

تحت اللواء على الجيوش زعيما

فلزم من ذلك أن لذته في اقتناء المحامد، لا في انتخاب الملابس، وما قيل إنه أحوج ذوي الحاجات إلى تخريق قميصه مدفوع بوصفها الممدوح بإفراط الحياء، فإن من كان بهذه المثابة كان أسرع إلى قضاء الحوائج للمحتاجين حال رؤيتهم، ويحمل تخريق القميص إما على كثرة المطالبين، وازدحام المحتاجين، أو على ما قدمناه من الرضا بأدنى العيش، والله أعلم.

باب الموارد

وهي توارد الشاعرين المتعاصرين اللذين تجمعهما طبقة واحدة على معنى واحد إما مجرداً، أو ببعض ألفاظه أو بأكثرها أو كلها، فإن كان أحدهما أقدم، أو طبقتاه أرفع، حكم له على صاحبه بالسبق، وقد رأيت من يجعل اتفاق الشاعرين من طبقتين مختلفتين في عصرين متباينين إذا تقارب ما بينهما بعض التقارب في الأمرين، أو في القوة والقدرة توارداً، فمثال الأول قول امرئ القيس طويل:

يقولون لا تهلك أسى وتجمل

وقوفاً بها صحبي على مطيهم

وقول طرفة طويل:

يقولون لا تهلك أسى وتجد

وقوفاً بها صحبي على مطيهم

ومثال ما جاء من القسم الثاني ما جرى لابن ميادة وقد أنشد محمد بن زياد الأعرابي قوله طويل:

ونواره ميل إلى الشمس ظاهر

فقال له محمد: أي يذهب بك؟، هذا للحطيئة، فقال ابن ميادة: الآن علمت أي شاعر حين وافقته، والله أعلم.

باب التهذيب والتأديب

التهذيب عبارة عن ترداد النظر في الكلام بعد عمله لينقح، ويتنبه منه لما مر على الناثر أو الشاعر حين يكون مستغرق الفكر في العمل، فيغير منه ما يجب تغييره، ويحذف ما ينبغي حذفه، ويصلح ما يتعين إصلاحه، ويكشف عما يشكل عليه من غريبه وإعرابه، ويجرر ما لم يتحرر من معانيه وألفاظه، حتى تتكامل صحته، وتروق بهجته، فإنه من رزق من أرباب البلاغة وأصحاب الفصاحة جودة ذهن، وغوص فكر، وكمال عقل، واعتدال مزاج، وحسن اختيار، ووقف على أقوال النقاد في حقيقة البلاغة، وكنه الفصاحة، وما عد من محاسن الكلام وعيوبه، ووقى شح نفسه، بحيث يسمح بطرح ما لا يقدر على

تغييره من كلامه، كان كلامه موصوفاً بالمهذب، منعوتاً بالمنقح، وإن قل ابتكاره للمعاني، وقد كان زهير معروفاً بالتنقيح، فإنه روى أنه كان يعمل القصيدة في شهر، وينقحها في أحد عشر شهراً حتى سمي شعره الحولي المحكك ولا جرم أنه قلما يسقط منه شيء، ولهذا كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه على جلالته في العلم، وتقدمه في النقد يقدمه على سائر الفحول من طبقته؛ قال ليلة لعبد الله بن العباس وهم سائرون إلى الشام: أنشدني شعر أشعر القوم، فقال: ومن ذاك؟ قال: زهير، قال: وبم استحق عندك ذلك يا أمير المؤمنين؟ قال: رأيت لا يعاضل بين الكلام، ولا يتبع حوشي الألفاظ، ولا يمدح الرجال إلا بما يكون للرجال، وما ذاك إلا لتنقيحه شعره، وترداد نظره في كلامه ولهذا المعنى أشار أبو تمام بقوله كامل:

خذها ابنة الفكر المهذب في الدجى والليل أسود رقعة الجلباب

فإنه إنما خص تهذيب الفكر بالدجى لكون الليل تهدأ فيه الأصوات، وتسكن الحركات، فيكون الفكر فيه مجتمعاً، والخاطر خالياً، ولا سمياً في وسط الليل عندما تأخذ النفس حظها من الراحة، وتنال قسطها من النوم، ويخف عليها ثقل الغذاء، فحينئذ يكون الذهن صحيحاً، والصدر منشرحاً، والقلب منبسطاً، واختياره وسط الليل دون السحر مع ما فيه من رقة الهواء، وخفة الغذاء، وأخذ النفس سهمها من الراحة، لما يكون في السحر من انتباه أكثر الحيوان الناطق والبهيم، وارتفاع معظم الأصوات وجرس الحركات، وتتشع الظلماء، بطلان الأضواء. وبعض ذلك يتقسم الفكر، ويتذبذب الخاطر ويشغل القلب، ويتفرق مجتمع الهم، ووسط الليل خال عما ذكرنا، ولهذا خص أبو تمام تهذيب الفكر بالدجى عادلاً عن الطرفين لما فيهما من الشواغل التي ذكرناها، وإنما دخلت لفظة الدجى على وسط الليل، لأنها جمع دجية، وطرف الليل لقربهما من الشمس لا يكون غيهبهما شديد الظلمة، والدجى شدة الظلمة، لأنه مجموع ظلمات، وإن كان الدجى قد يطلق على الليل كله، سواء كان مظلماً أو مقمرًا، لكنه إطلاق مجازي حقيقته ما ذكرناه، وأبو تمام أراد هاهنا الحقيقة لا المجاز، لقصد المبالغة، ولما لحظ أبو تمام أن لفظة الدجى لعمومها وصلاحياتها في حالتي المجاز والحقيقة إلى أن تكون اسماً لليل كائناً ما كان احتس من ذلك بما جاء به التذييل حيث قال:

والليل أسود رقعة الجلباب

.....

ليخلص من الاشتراك الحاصل من لفظة الدجى على انفرادها، وليبين أنه أراد الليالي السود التي سمتها العرب بالدارى، لا الليالي البيض، ولا غيرها من الليالي التي فيها وقت مضى في الجملة فراراً من ليل لا يخلو من الأصوات والحركات، مبالغة في وصف القصيدة بالتنقيح المرضي، في الوقت المختار لذلك، وقد

جمع الكتاب العزيز هذه المعاني وأتى بها في أوجز لفظ وأجزله حيث قال سبحانه "إن ناشئة الليل هي أشد وطناً وأقوم قبلاً" واعلم أن التهذيب لا شاهد له يخصه، لأنه وصف يعم كل كلام منقح محرر، إلا أنا نلخص فيه ما يعرف به، وهو أن نقول: كل كلام قيل فيه لو كان موضع هذه الكلمة غيرها، أو لو تقدم هذا المتأخر، أو تأخر هذا المتقدم، أو لو تم هذا النقص، أو تكمل هذا الوصف، أو لو حذفت هذه اللفظة بته، أو لو طرح هذا البيت جملة، أو لو وضع هذا المقصد أو تسهل هذا المطلب، لكان الكلام أحسن، والمعنى أبين، فهو خال من التهذيب، عار من التنقيح والتأديب.

ومن أمثلة ما ذكرناه قول سيف الدولة بن حمدان يخاطب أخاه ناصر الدولة طويل:

وما كان لي عنها نكول وإنما تجاوزت عن حقي ليغدو لك الحق

فإن سيف الدولة كما قيل: كان قد عمل أولاً: وما كان عنها لي نكول ثم فطن إلى أن هذا السبك يستثقل لقرب الحروف المتقاربة المخارج بعضها من بعض، وإذا قدم لفظة "لي" على لفظة عنها سهل التركيب، وحصل التهذيب، فتقول وما كان لي عنها نكول لفصل لفظة عنها بين لي وبين نكول.

ومن الأمثلة المبينة لهذا الباب قول القاضي السعيد ابن سناء الملك طويل:

تغنى عليها حليها طرب بها وفاحت فقلنا: هذه الروضة الغنا

فإنه لو لم يقدم في صدر هذا البيت لفظة مشتقة من الغناء حصل بها في هذا البيت من الرونق ما لا يحصل بدونها، لكان البيت خالياً من التهذيب، فإن بوجودها حصل في البيت تصدير وتجنيس وائتلاف وتهذيب، وانفضى عنه من العيوب عدم الائتلاف، وقلق القافية، وبذلك تقدم التهذيب، وذلك أنه لو كان قال طويل:

زهت بأزاهير الجمال وحسنها وفاحت فقلنا هذه الروضة الغنا

لتبين قلق هذه القافية وتمكن تلك القافية الأولى، بسبب ما في البيت من التصدير.

ومما جاء في الكتاب العزيز من أمثلة هذا الباب قوله تعالى: "لئن بسطت إلي يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك" فإن حسن الترتيب في نظم الكلام البليغ أمر مطلوب، ومن حسن الترتيب في الجمل الفعلية تقديم الفعل، وتعقيبه بالفعل، ثم الإتيان بالمفعول، فإن كان في الكلام مفعولان أحدهما تعذر وصول الفعل بنفسه إليه، والآخر تعدى إليه بنفسه قدم ما تعدى إليه الفعل بنفسه، وإذا علم ذلك كان لقائل أن يقول: لو توخى حسن الترتيب في عجز الآية لأتى وزن صدرها، والجواب أن حسن الترتيب منع منه في صدر الآية مانع قوي، وهو مخافة أن تتوالى ثلاثة أحرف متقاربات المخارج، فيثقل الكلام

بسبب ذلك، فإنه لو جاء الكلام فيه مرتباً لقليل: لئن بسطت يدك إلي، والطاء والتاء والياء متقاربات المخارج، فلذلك حسن تقديم المفعول الذي تعدى الفعل إليه بالحرف على المفعول الذي تعدى إليه بنفسه، ولما أمن هذا المحذور في عجز الآية بما اقتضته البلاغة من الإتيان باسم الفاعل موضع الجملة الفعلية، لتضمنه معنى الفعل الذي تصح به المقابلة، جاء الكلام على ترتيبه من تقديم المفعول الذي تعدى الفعل إليه بنفسه، على المفعول الذي تعدى الفعل إليه بالحرف، وهذا من أحسن شواهد التهذيب والترتيب، والله أعلم. وكنت قد اطلعت على وصية وصى بها أبو تمام أبا عبادة البحراني في عمل الشعر، كان أبو تمام ارتجلها فجاءت محتاجة إلى تحرير بعض معانيها، وإيضاح ما أشكل منها، وزيادات يفتقر إليها فحررت منها ما يجب تحريره، وأضفت إليها ما تتعين إضافته، وذكرتها في كتابي المنعوت بالميزان في الترجيح بني كلام قدامة وخصومه وعلمت أن هذا الباب من هذا الكتاب أحوج إليها من ذلك، فأثبتها هاهنا بعد أن رأيت تقديم مقدمة يحتاج إليها، ويجب الاعتماد عليها، وهي التي يجب على من كان له ميل إلى عمل الشعر وإنشاء النثر أن يعتبر أولاً نفسه، ويمتنعها بالنظر في المعاني وتدقيق الفكر في استنباط المخترعات، فإذا وجد لها فطرة سليمة، وجبلة موزونة، وذكاء وقادراً، وخاطراً سمحاً، وفكراً ثاقباً، وفهماً سريعاً، وبصيرة مبصرة، وألمعية مهذبة، وقوة حافظية، وقدرة حاكية، وهمة عالية، ولهجة فصيحة، وفطنة صحيحة، وإن كانت بعض هذه الأوصاف غير لازمة لرب الإنشاء، ولا يضطر إليها أكثر الشعراء، لكنها إذا كملت في الشاعر والكاظم كان موصوفاً في هذه الصناعة بكمال الأوصاف النفسية التي إذا أضيفت إليها الصفات الدراسية تكمل وتجمل من حفظ اللغات العربية، وتوابعها من العلوم الأدبية كالنحو والتصريف، والعروض والقوافي، وما سُمح به الشعراء من الضرورات التي يلجئ إليها ضيق الوزن والتزام التقفية، ليعلم ما يجوز له استعماله، وما يجب عليه إهماله، ولينعم النظر في كتب البلاغة، ليعرف محاسن اللفظ مفرداً ومركباً، ومعانيه، ويحيط بما يتفرع من أصول النقد من البديع الذي هو رقوم الكلام، ونتائج مقدمات الأفهام، وليجعل عمدته على كتاب الله العزيز وليميز إعجازه أدق تمييز، فإنه البحر الذي لا تفنى عجائبه، ولا يظلماً فيه راكمه، منه استخرجت درر المحاسن، واستنبطت عيون المعاني، وعرف كنه البلاغة، وتحقق سر الفصاحة، وكذلك سنة الرسول عليه الصلاة والسلام فإن صاحبها بعث بجوامع الكلم، وبدائع الحكم، صلى الله عليه وسلم، وليحفظ أشعار العرب وأمثالها، وأنسابها وأيامها وسائر أخبارها، ومحاسن أثارها، ومقاتل فرسائها الأبحاد، نوادر سمحاتها الأجواد، ولا غنى به عن معرفة النجوم والأنواء، وعلم بهيئة المساء، وتعقل الآثار العلوية، والحوادث الأرضية، والمشاركة في الطب والطبائع والحساب، وما يحتاج إليه الكتاب من الفقه والحديث، ونقل التاريخ الصحيح ويكون ذلك المكتسب، من وراء أشياء لا تكتسب، ولا تحصل بالطلب، بل هي مما يجبل عليه الإنسان، ومن مواهب الرحمن، من

عقل راجح، وذهن صاف، ورأي سديد ينتج ذلك مزاج معتدل ليحسن اختياره، ويجود انتخابه، فيتخير الألفاظ الرقيقة، والمعاني الرشيقة، ويتقن تأليف الكلام، وتركيب الألفاظ، وما بإيراد أبيات قلتهن في هذا المعنى من بأس وهي خفيف:

انتخب للقرىض لفظاً رقيقاً
كنسيم الرياض في الأسحار
فإذا اللفظ رق شف عن المع
نى فأبداه مثل ضوء النهار
مثل ما شفت الزجاجاة جسماً
فاختفى لونها بلون العقار

وأحسن من قولي ومن كل ما قيل علي ما بلغني في هذا المعنى قول أبي تمام في الحسن بن وهيب كامل:

لم يتبع شنع اللغات ولا مشى
رسف المقيد في طريق المنطق
تنشق في ظلم المعاني إن دجت
منه تباشير الكلام المشرق

وكقول البحري فيه كامل:

فإذا دجت أقلامه ثم انتحت
برقت مصابيح الدجى في كتبه
فاللفظ يقرب فهمه في بعده
منا ويبعد نيئه في قربه
حكم سحائبها خلال بنانه
هطالة وقلبيها في قلبه
كروض مؤتلفاً بحمرة نوره
وبياض زهرته وخضرة عشبه
وكأنها والسمع معقود بها
شخص الحبيب بدا لعين محبه

هذا إذا أراد المتكلم أن ينعت فاضلاً، أو يسمى أديباً كاملاً، فتعلو بين العلماء درجته، وتطير بين الفضلاء سمعته، ويقبل قوله في لفظ كل كلام ومعناه، وليحذر من أن يقف خاطره بسبب معاندة الزمان، وتواتر صروف الحدثان، وتعذر المكسب، وعز المطلب وتقدم الجهال، واختصاص الأرزال بالأموال، فيكون ذلك داعياً إلى ترك الاشتغال، وسبباً في فتور عزمه عن تحصيل العلوم، وذريعة لعوده عن رياضة نفسه، واستعمال خاطره، فيلحق بالأحسرين أعمالاً، والمخطئين أفعالاً وأقوالاً، بل يكون اجتهاده في ذلك اجتهاد راغب في الكمال، شديد الأنفة من مساومة الجهال، عاشق في تركية نفسه، مائلاً للتقدم بنفس العلم على أبناء جنسه، وما أحسن قول القائل طويل:

تعلم فليس المرء يولد عالماً
وليس أخو علم كمن هو جاهل
فإن كبير القوم لا علم عنده
صغير إذا التفت عليه المحافل

ولا بد للمجتهد من يوم تحمد فيه عاقبة اجتهاده، ويحصل فيه على مراده، وإن كان قصير المهمة مهين النفس، قد أوتي طبعاً في العمل سليماً، وذهناً مستقيماً، فظن أنه يستغني بذلك عن الاشتغال، ويعد عم مماثلة الجهال، إديلاً بطبعه، واتكالاً على حدقه، كأكثر شعراء زماننا وكتابه، والمتظمين في سلك أرباب آدابه، حاشا من احتفل بالأدب احتفالاً أوجب لذوي الآداب، والانتفاع بهذا الكتاب، فلا يأنف من عرض ما يسمح به خاطره على من يحسن الظن بمعرفته، ويتحقق أن مرتبه في العلم فوق مرتبه، ولا تحمل ذلك فإن خطره عظيم، "فوق كل ذي علم عليم"، هذا وإن كنت في ذلك كمن يصف الدواء ولا يستعمله، ويأمر بالعرف ولا يمتثله، غير أي أنهج الطريق، وأحض على التوفيق، لتحصل لي مثوبة الدلالة، وأكسب أجر الهداية، فإن الدال على الخير كفاعله، والمحرض على العمل كعامله، وليعتمد الراغب في نظم الشعر، وإنشاء النثر في وقت العمل على وصية الإمام أبي تمام التي وعدت سالفاً بنشرها، وهذا أوان ذكرها، وهي ما أخبر به الثقة عن أبي عبادة البحرري الشاعر أنه قال:

كنت في حدائتي أروم الشعر، وكنت أرجع فيه إلى طبع سليم، ولم أكن وقفت على تسهيل مأخذه، ووجوه اقتضائه، حتى قصدت أبا تمام، وانقطعت إليه، واتكلت في تعريفه عليه، فكان أول ما قال لي: يا أبا عبادة: تخير الأوقات، وأنت قليل الهموم، وصفر من الغموم، واعلم أن العادة في الأوقات، إذا قصدت الإنسان تأليف شيء أو حفظه، قصد وقت السحر، وذلك أن النفس تكون قد أخذت حظها من الراحة، وقسطها من النوم، وخف عنها ثقل الغذاء، وصفاً من أكثر الأبخرة والأدخنة جسم الهواء، وسكنت الغمام، ورقت النسائم، وتغنت الحمام، وتغن بالشعر فإن الغناء مضماره الذي يجري فيه، واجتهد في إيضاح معانيه، فإن أردت النسيب فاجعل اللفظ رقيقاً، والمعنى رشيقاً، وأكثر فيه من بيان الصبابة وتوجع الكآبة، وقلق الأشواق، ولوعة الفراق، والتعلل باستنشاق النسائم، وغناء الحمام، والبروق اللامعة، والنجوم الطالعة، والتبرم بالعدال والعواذل، والوقوف على الطلل الماحل، وإذا أخذت في مدح سيد ذي أياد فاشهر مناقبه، وأظهر مناسبه، وأبن معلمه، وشرف مقاومه، وأرهف من عزائمه، ورغب في مكارمه، وتقاص المعاني، واحذر الجهول منها، وإياك أن تشين شعرك بالعبرة الزرية، والألفاظ الوحشية، وناسب بين الألفاظ والمعاني في تأليف الكلام، وكن كأنك خياط يقدر الثياب على مقادير الأجسام، وإذا عارضك الضجر أرح نفسك، ولا تعمل إلا وأنت فارغ القلب، واجعل شهوتك لقول الشعر الذريعة إلى حسن نظمه، فإن الشهوة نعم المعين، وجملة الحال أن تعتبر شعرك بما سلف من أشعار الماضين، فما استحسن العلماء فاقصده، وما استقبحوه فاجتنبه ترشد، إن شاء الله تعالى.

فإن قيل: الذي أوردته قبل هذه الوصية في بيت أبي تمام الذي هو:

خذها ابنة الفكر المهذب في الدجى

البيت، وما فسرت به الدجى واختياره لوسط الليل دون طرفيه يناقض قوله في هذه الوصية: واعلم أن العادة في الأوقات إذا قصد الإنسان تأليف شيء أو حفظه، أن يختار وقت السحر. قلت: المقصد في البيت غير المقصد في الوصية، فإن المقصد في البيت التنقيح، وفي الوصية العمل والحفظ، والتنقيح يحتاج إلى خلو الخاطر وتدقيق النظر، وغوص الفكر أكثر من وقت الحفظ والعمل، والله أعلم. وما رأيت ولا رويت مثل وصية لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه وصى بها كاتباً له يقول فيا: ألق دواتك، واجمع أدواتك، وأرهف حدى قلمك إرهافاً، واحترس عند شقه احتراساً فإنك إن لم تتائم لسانه كدرت بيانه، واستصلب المقط، وحرف القط، فإن لم تسمع لقطتك طيناً غير خفي، وتنظر لها حرفاً كذباب المشرفي وإلا أعد القطعة، فالقلم حف، وقرب بين الحروف، وباعد بين الصفوف، وتصفح ما كتبتة وكرر النظر فيما حبرته، ليظهر لك رأيك قبل أن يخرج عنك كتابك، فالحظ هداك الله ما اختص الله سبحانه هؤلاء القوم من الخصائص التي أطلعهم على علوم ليست علومهم والى ما لم يهتد إليه أرباب تلك العلوم، ولم يدركها فهم حاذق من أرباب الفهوم، حتى صارت كلمات أحدهم قدوة يقتدى بها أرباب المعارف من الكتاب، وعلماً يهتدى به من ضل ومن أولى الألباب.

وكنت قد جمعت فصولاً يحتاج إليها العامل في البلاغتين، والواضع في الصناعتين، من عدة كتب من كتب البلاغة، وحذفت منها ما لا يحتاج إليه، ونقحتها، وحررتها، وها أنا ذا أسوقها خاتمة لهذا الباب، والله الموفق للصواب، وهي: ينبغي لك أيها الراغب في العمل، السائل فيه عن أوضح السبل، أن تحصل المعنى عند الشروع في تحبير الشعر وتحرير النثر قبل اللفظ، والقوافي قبل الأبيات، ولا تكره الخاطر على وزن مخصوص، وروى مقصود، وتوخ الكلام الجزل، دون الرذل، والسهل، دون الصعب، والعذب دون المستكره، والمستحسن دون المستهجن، ولا تعمل نظماً ولا نثراً عند الملل، ولا تؤلف كلاماً وقت الضجر، فإن الكثير معه قليل، والنفيس به خسيس، والخواطر ينابيع إذا رفق بما جمعت، وإذا عنف عليها نزحت، واكتب كل معنى يسنح، وقيد كل فائدة تعرض، فإن نتائج الأفكار تعرض كلمعة البرق، ولحمة الطرف، إن لم تقيد شردت وندت، وإن لم تستعطف بالتكرار عليها صدت، والترنم بالشعر مما يعين عليه، قال الشاعر بسيط

إن الغناء لقول الشعر مضمار

تغن بالشعر إما كنت قائله

وقد يتحيل الشاعر حيناً ويستعصي عليه الشعر زماناً، كما روى عن الفرزدق أنه قال: لقد يمر على الزمن

وإن قلع ضرر من أضراسي لأهون علي من أن أقول بيتاً واحداً، فإذا كان كذلك فاتركه حتى يجيئك عفواً، وينقاد إليك طوعاً، وإياك وتعقيد المعاني وتعكير الألفاظ، واعمل في أحب الأغراض إليك، وفيما وافق طبعك، فالنفوس تعطي على الرغبة ما لا تعطى على الرهبة، واعمل الأبيات مفرقة بحسب ما يوجد بها الخاطر، ثم انظمها في الآخر، واحترس عند جمعها من عدم الترتيب، وتوخ حسن التنسيق عند التهذيب، ليكون كلامك بعضه آخذاً بأعناق بعض، فهو أكمل لحسنه، وأتمن لرففه وجمل المبدأ والتخلص والمقطع، فإن ذلك أصعب ما في القصيد، واجتهد في تجويد هذه المواضع، وتجنب معارض أرباب الخواطر فيها، وتوارد هم عليها، وميز في فكرك محط الرسالة، ومصب القصيدة قبل العمل، فإن ذلك أسهل عليك، وأشعرها أولاً، ونقحها ثانياً، وكرر التنقيح، وعاود التهذيب، ولا تخرجها عنك إلا بعد تدقيق النقد وإنعام النظر، وقد كان الحطيئة يعمل القصيدة في شهرين، وينقحها في شهرين اقتداء بزهير، فإنه كان راويته، وقد كان زهير يعمل القصيدة في شهر واحد وينقحها في حول كامل، حتى قيل لشعره: المنقح الحولي، والحولي المحكك. وفي ذلك يقول عدي بن الرقاع كامل:

حتى أقوم ميلها وسنادها

وقصيدة قد بت أجمع بينها

حتى يقيم ثقافه منأداها

نظر المتقف في كعوب قناته

وفي الناس من رزق بديهة حسنة، وحدة خاطر، ونفاذ طبع؛ وسرعة نظم، يرتجل القول ارتجالاً، ويأتي به عفواً صفواً، فلا تقعد به عن قوم قد أتعبوا خواطرهم، وكدوا نفوسهم في التهذيب، وبذلوا جهدهم في التنقيح والتأديب واحذر إذا كاتب من الإسراف في الشكر، فإنه إبرام يوجب للكلام ثقلاً، ولا تطل الدعاء فإنه يورث مللاً، ولا تجعل كلامك مبنياً على السجع كله، فتظهر عليه الكلفة، ويبين فيه أثر المشقة، ويتكلف لأجل السجع ارتكاب المعنى الساقط، واللفظ النازل، وربما اشتد عيب كلمة المقطع رغبة في السجع، فجاءت نافرة من أخواتها، قلقة في مكانها بل اصرف كل النظر إلى تجويد الألفاظ، وصحة المعاني، واجتهد في تقويم المباني، فإن جاء الكلام مسجوعاً عفواً من غير قصد، وتشابهت مقاطعه من غير كسب كان، وإن عز ذلك فاتركه وإن اختلفت أسجاعه، وتباينت في التقفية مقاطعة، فقد كان المتقدمون لا يخلفون بالسجع ولا يقصدونه بته، إلا ما أتت به الفصاحة في أثناء الكلام، واتفق عن غير قصد ولا اكتساب، وإنما كانت كلماتهم متوازنة، وألفاظهم متناسبة، ومعانيهم ناصعة، وعبارتهم راقية وفصولهم متقابلة، وجمل كلامهم متمائلة، وتلك طريقة الإمام علي عليه السلام، ومن اقتفى أثره من فرسان الكلام، كابن المقفع، وسهل بن هارون، وإبراهيم بن العباس، والحسن بن سهل، وعمرو بن

مسعدة، وأبي عثمان الجاحظ، وغير هؤلاء من الفصحاء والبلغاء، ولا تجعل كل الكلام شريفاً عالياً، ولا وضعياً نازلاً، بل فصله تفصيل العقود، فإن العقد إذا كان كله نفيساً، لا يظهر حسن فرائده، ولا يبين كمال واسطته، وانظر إلى نظم القرآن العزيز كيف جمع طبقات البلاغة الثلاث، ليظهر فضل كل طبقة في بابها، وتبين محكم أسبأها، ويعلم أن أدناها بالنسبة إليها يعلو على أعلى الطبقات من كلام البلغاء، ويرى عليها، فإن الكلام إذا كان منوعاً افتنت الأسماع فيه، ولم يلحق النفوس ملل من ألفاظه ومعانيه، واعلم أن الألفاظ أجساد والمعاني أرواحا، فإذا قويت الألفاظ فوق المعاني، وإذا أضعفتها فأضعفها لتوازن قوى الكلام، وتتناسب في الأفهام، واقصد القوافي السهلة المستحسنة، دون المستعصبة المستهجنة، والأوزان المستعملة الحلوة، دون المهجورة الكزة، فإن الشعر كالجواد، والقوافي حوافره، والألفاظ صورته، والمعاني سرعته، والأوزان جملة، واجعل كلامك كله كالتوقيعات، وعليك بالمقطعات فإنها في القلوب أحلى وأكمل، وفي المجالس أرشق وأجول، وبالأسماع أعلق، وبالأفواه أعبق، فإذا نثرت منظوماً فغير قوافي شعره إلى قوافي سجعته، وإذا أخذت معنى بيت من بيت فتجنب الألفاظ جملتها ما استطعت، أو معظمها، وغيرها لوزن والقافية، زد في معناه، وانقص من لفظه، واحترس مما طعن عليه به، لتكون أملك له من قائله وإن كان التفضيل قد يقع بغير ما ذكرت، ومما يقدم به المتكلم على غيره حسن الأدب مع الممدوح، كقول ابن نباتة السعدي في سيف الدولة بن حمدان عفا الله عنه بسيط

لم يبق جودك لي شيئاً أوامله تركنتي أصحاب الدنيا بلا أمل

فإنه أحسن الأدب مع ممدوحه، بخلاف المتنبي، فإن المتنبي قال في هذا المعنى بسيط

تمسي الأمانى صرعى دون مبلغه فما يقول لشيء ليت ذلك لي

فإن المتنبي جعل ممدوحه ممن يصح منه التمني لو كانت بقيت له أمنيته. وابن نباتة جعل ممدوحه لم تبق له أمنيته، ورفعته عن أن يكون هو ممن يصح أن يتمنى شيئاً، فكل ما جعله المتنبي لممدوحه، جعله ابن نباتة لشاعر ممدوحه، وهذا الأدب من قول الله سبحانه وتعالى على لسان إبراهيم عليه السلام: "الذي خلقتني فهو يهدين، والذي هو يطعمني ويسقني، وإذا مرضت فهو يشفين" فأسند أفعال الخير كلها لله، وأسند فعل الشر لنفسه، حسن أدب مع ربه. صلى الله عليه وسلم.

ومثل ذلك قوله تعالى: "ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى" مقتضى الصناعة أن يؤتى بتجنيس الازدواج في صدر الآية، كما أتى به في عجزها، لكنه منع منه توحى التأديب والتهذيب في نظم الكلام، وذلك أنه لما كان الضمير الذي في "ليجزى" عائداً على الله سبحانه، وجب أن

يعدل عن لفظ المعنى الخاص إلى ردفه، حتى لا تنسب السيئة لله تعالى، فقال سبحانه في موضع ..
"بالسيئة" "بما علموا" فعوض عن تجنب المزوجة الإرداف، لما في الإرداف من حسن الأدب مع الله تعالى،
ليعلمنا ذلك، ولما كان قوله تعالى "وجزاء سيئة سيئة مثلها" قد أمن فيه هذا المحذور، أتى الكلام فيه على
مقتضى الصناعة، والله أعلم.

ومن أحسن ما وقع في هذا قوله تعالى: "ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار" لأنه سبحانه أدمج
وهو أعلم في هذا الكلام وصف نفسه بالعدل فعلق فن الفخر بفن الأدب، إذ ظاهر الآية التأدب
والموعظة، ووصف نفسه تعالى بالعدل فخر متعلق بذلك، مع ما في لفظ هذا الكلام من الملاءمة التي
حصل بها ائتلاف اللفظ بالمعنى، لأن الركون إلى الظالم دون فعل الظالم نفسه، ومس النار دون إحراقها
والدخول فيها، والعدل يقتضي أن يكون العقاب على قدر الذنب، فكان ذلك المساس ملائماً للركون
دون غيره، فانظر ما انطوى عليه نظم هذه الألفاظ السبع من المعاني، وأنواع البديع، والائتلاف الذي
دلت عليه الملاءمة، والإدماج، والتعليق والافتنان، والبسط، إذ عدل عن قوله "إلى الظالمين" إلى قوله "إلى
الذين ظلموا" لما يحتمل الأول من الاستمرار في الظلم على سبيل الندور، ليلائم المعنى لفظ الركون ولفظ
المساس، والمبالغة، لأنه إذ نهى عن الركون إلى من وقع منه الظلم في وقت دون وقت كان النهي عن
الركون لمن استمر منه الظلم بطريق أولى، لترى ما تحت نظم هذا الكتاب العزيز من الحبايا التي هذا
بعضها، وما خفي منها أكثر مما ظهر، والله أعلم.

وإذا تقاربت الديار، تقاربت الأفكار، ولهذا قيل: الشعر محجة يقع فيها الخاطر على الخاطر، كوقوع
الحافر على الحافر. واعلم أن من الناس من شعره في البديهة أبدع منه في الروية، ومن هو مجيد في رويته
وليست له بديهة، وقلما يتساويان، ومنهم من إذا خاطب أبدع، وإذا كاتب قصر، ومنهم من بضد
ذلك، ومن قوى نظمه ضعف نثره، ومن قوى نثره ضعف نظمه، وقلما يتساويان، وقد يبرز الشاعر في
معنى من معاني مقاصد الشعر دون غيره من المقاصد، ولهذا قيل: أشعر الناس امرؤ القيس إذا ركب،
وزهير إذا رغب، والنابعة إذا رهب، وعنترة إذا كلب، والأعشى إذا طرب.

وإياك وتعقيد المعاني بسوء التركيب، واستعمال اللفظ الوحشي، فإن خير الكلام ما سبق معناه إلى
القلب، قبل وصول جملته إلى السمع، فإن علي بن عيسى الرماني ذكر أن أسباب الإشكال ثلاثة وكلها
تغير الكلام عن الأغلب، كالتقديم، والتأخير، وسلوك الطريق الأبعد، وإيقاع المشترك وقد جمع هذه
الأسباب الثلاثة قول الفرزدق طويل:

أبو أمه حي أبوه يقاربه

وما مثله في الناس إلا مملك

فإن الممدوح: إبراهيم بن هشام بن إسماعيل المخزومي، خال هشام ابن عبد الملك، فأبو أم هشام بن عبد الملك وهو المملك أبو إبراهيم ابن هشام بن إسماعيل المخزومي، فجد المملك وهو المملك لأمه أبو الممدوح، فالممدوح على هذا خال المملك، وحاصل معنى هذا البيت: وما مثل هذا الممدوح إلا ابن أخته، وأما التقديم والتأخير مع قوله وما مثله البيت فإن صحته وما مثله في الناس حي يقاربه إلا مملك أبو أمه أبوه، فلما قدم وأخر حصل التعقيد. وأما سلوك الطريق الأبعد، فقوله: أبو أمه أبوه، وكان يجزئه قوله: جده أبوه. وأما المشترك ففي قوله حي لصلاحية اللفظ لضعف الميت، وللقبيلة. انتهى كلام الرماني. وليكن كلامك سليماً من التكلف، بريئاً من التعسف، وليحط لفظك بمعناك، وتشتمل عبارتك على مغزك، واحذر الإطالة إلا فيما تحمد فيه، فإن البلاغة لمحّة دالة، وقيل: سرعة جواب في صواب، وقيل: أن تقول فلا تبطئ، وأن تصيب فلا تخطئ، والصحيح من حدها أنها إيضاح المعنى بأقرب الطرق أسهلها، وإذا روعي الاشتقاق فيها قيل في حدها: هي بلوغ المتكلم بعبارته أقصى ما في نفسه، وإيصال ذلك لمخاطبه بأقرب الطرق وأسهلها والعبي إكثار من مهذار، وإخطاء بعد إبطاء، كما جاء في المثل: "سكت ألفاً ونطق خلفاً".

وقدر اللفظ على قدر المعنى لا زائداً عليه، ولا ناقصاً عنه، كما قيل في مدح بعض البلغاء: كانت ألفاظه قوالب لمعانيه، وقيل في آخر: كان إذا أخذ شبراً كفاه، وإن أخذ طوماراً ملاءه واستعمل التطويل في مكانه، والتقصير في مكانه، فقد قيل: إذا كان الإيجاز كافياً، كان الطويل عيباً، وإذا كان التطويل واجباً، كان التقصير عجزاً ولهذا حد بعضهم البلاغة بأنها إيجاز من غير إخلال، وإطناب من غير إملا، وما أحسن ما أنشده الجاحظ في هذا الموضوع، وهو كامل:

يرمون بالخطب الطوال وتارة وحي الملاحظ خيفة الرقباء

وإياك أن تفرط فتكثر، أو تفرط فتقصر، وقد ذكر في كتابه المترجم بالبيان والتبيين أن الفارسي: سئل عن البلاغة فقال: معرفة الفصل من الوصل.

وسئل اليوناني عنها فقال: تصحيح الأقسام، واختيار الكلام.

وسئل الرومي عنها فقال: حسن الاقتصار عند البديهة، والغزارة يوم الإطالة.

وسئل الهندي عنها فقال: وضوح الدلالة، وانتهاز الفرصة، وحسن الإشارة. وقال مرة: التماس حسن

الموقع، والمعرفة بساعات القول، وقلة الخرق بما التبس من المعاني، أو غمض وشرذ في اللفظ وتعذر،

ورتبته أن تكون الشمائل مذروبة يعني المتكلم، والألفاظ معدلة، واللهجة نقية، وألا يكلم سيد الأمة بما

يكلم به الأمة، ويكون في قوله فضل التصرف في كل طبقة، ولا يدقق المعاني كل التدقيق، ولا ينقح الألفاظ كل التنقيح، بل يصفها كل التصفية، ويهدبها غاية التهذيب.
ثم قال، أعني الجاحظ، وأما البراعة فقد قالوا فيها: يعني أهل اللغة: إنها الحدق بطريقة الكلام وتجويده، وأما الفصاحة فمختلف فيها فمن قائل بأنها جزالة اللفظ، وحسن المعنى، وقيل: الاقتدار على الإبانة عن كل معنى كامن في النفس، بعبارات جليلة، ومعان نقية بهيمة، والذي صح في تعريفها: أنها خلوص الألفاظ من التعقيد المبعد عن إدراك معانيها، وعن العيوب التي تعرض فيها، فإن اشتقاقها من الفصح، وهو اللين الذي خلص من رغوته أو لبثه، وإلا فانظر إلى قصص الكتاب العزيز كيف أتت تارة وجيزة، ومرة بسيطة كما قلت في وصفه في القصيدة التي مدحت بها رسول الله صلى الله عليه وسلم طويل:

ليفهمها من بسطها المتبلد

به قصص تأنيك طوراً بسيطة

له زند فهم ثاقب ليس يصلد

وطوراً بإيجاز يبث لذي حجا

وعلى الجملة، مهما كان الإيجاز كافياً، والمعنى به واضحاً، فالإطالة إن لم تكن عياً كانت عبثاً، ولم تنزل الأجل المتقدمون يمدون ذلك، ويذمون ما سواه، ويدلك على اختيار هذا المذهب ما يحكى عن أحمد بن يوسف الكاتب، فإنه قال: دخلت يوماً على المأمون وفي يديه كتاب، وهو يعاود قراءته تارة بعد أخرى، ويصعد نظره فيه ويصوبه، قال: فلما مرت على ذلك مدة التفت إلى وقال: يا أحمد، أراك مفكراً فيما تراه مني، فقلت: نعم، وقى الله أمير المؤمنين المكاره، وأعاده من المخاوف، فقال: إنه لا مكروه في الكتاب، ولكني قرأت فيه كلاماً وجدته نظير ما سمعت الرشيد رحمه الله يقوله في البلاغة، فإني سمعته يقول: البلاغة التباعد عن الإطالة، والتقريب من البغية، والدلالة بالقليل من اللفظ على الكثير من المعنى، وما كنت أتوهم أن أحداً يقدر على المبالغة في هذا المعنى، حتى قرأت هذا الكتاب، ورمى به إلي وقال: هذا كتاب عمرو بن مسعدة إلينا، قال: فقرأته، فإذا فيه كتابي إلى أمير المؤمنين، ومن قبلي من قوداه وسائر أجناده في الانقياد والطاعة على أحسن ما تكون عليه طاعة جند تأخرت أرزاقهم، وانقياد كافة تراخت أعطياتهم، فاختلفت لذلك أوأهم، والثالث معه أمورهم، فقال: فلما قرأته قال لي: يا أحمد، إن استحساني هذا الكلام بعثني على أن أمرت للجند قبله بعطياتهم لسبعة أشهر، وأنا على مجازاة الكاتب بما يستحقه محله من صناعته، وروى أيضاً عن المأمون أنه أمر عمرو بن مسعدة الكاتب هذا أن يكتب لرجل يعني به إلى بعض العمل بالوصية عليه، وأن يختصر كتابه ما أمكنه حتى يكون ما يكتب به في سطر واحد، فكتب إليه عمرو بن مسعدة: كتابي إليك كتاب واثق بمن كتب إليه، معنى بمن كتب له، ولن يضيع بين الثقة والعناية حامله، إن شاء الله تعالى. وقد كان جعفر بن يحيى من تقدمه في هذه الصناعة يقول لكتابه:

إن استطعتم أن يكون كلامكم كله مثل التوقيعات فافعلوا.

وأما قول قيس بن خارجه لما قيل له: ما عندك في حمالات داحس؟ فقال: عندي قرى كل نازل، ورضا كل ساحط، وخطبة من لدن تطلع الشمس إلى أن تغرب، أمر فيها بالتواصل، وأنهى عن التقاطع، فإن ذلك لم يخرج مخرج المدح للإطالة المذمومة، لأن الإطالة المذمومة هي إطالة العبارة عن المعنى الواحد بالألفاظ الكثيرة، وإهما أراد قيس الإكثار من المعاني، فإذا كثرت المعاني احتاج المتكلم إلى كثرة الألفاظ للعبارة عنها لإيضاحها وليوفي بمقصوده فيها، ومتى طال الكلام كذلك كانت إطالته بلاغة لاعيا، فإن حقيقة البلاغة إيجاز من غير إخلال، وإطناب من غير إملا، لاسيما خطب الإملاكات، والسجلات التي تقرأ على رؤوس الجماعات، فالحمود في هذه المواضع الإطناب، والمذموم الإسهاب، وإنما كان الإطناب محموداً، والإسهاب مذموماً، لأن الإطناب تفخيم الأمر وتقويته وتوكيده وشد أواخيه، والإسهاب مأخوذ من السهب وهو المتسع من الفلاة التي لا ينتهي النظر فيه إلى علم يهتدى به، ولا معلم يؤوى إليه، فكأن المسهب اتسع في الكلام اتساعاً لا فائدة فيه، وقد شفيت الغليل في هذا الباب، وخرجت فيه عن شرط الكتاب، لاحتياج العامل إليه، واعتماد الناقد عليه.

باب حسن النسق

حسن النسق من محاسن الكلام، وهو أن تأتي الكلمات من النثر والأبيات من الشعر متتاليات، متلاحمات تلاحماً سليماً مستحسناً، لا معيباً مستهجنًا، والمستحسن من ذلك أن يكون كل بيت إذا أفرد قام بنفسه، واستقل معناه بلفظه، وإن ردفه مجاوره صار بمنزلة البيت الواحد، بحيث يعتقد السامع أنهما إذا انفصلا تجزأ حسنهما، ونقص كمالهما، وتقسم معناه، وهما ليسا كذلك، بل حالهما في كمال الحسن وتمام المعنى مع الانفراد والافتراق كحالهما مع الالتام والاجتماع.

ومن شواهد هذا الباب في الكتاب العزيز قوله تعالى: "وقيل يا أرض ابلعي ماءك، ويا سماء أقلعي وغيض الماء وقضي الأمر واستوت على الجودي وقيل بعداً للقوم الظالمين". فأنت ترى إتيان هذه الجملة معطوفاً بعضها على بعض بواو النسق على الترتيب الذي تقتضيه البلاغة لأنه سبحانه بدأ بالأهم، إذ كان المراد إطلاق أهل السفينة من سجنها، ولا يتيهأ ذلك إلا بانحسار الماء عن الأرض، فلذلك بدأ بالأرض، فأمرها بالابتلاع، ثم علم سبحانه أن الأرض إذا ابتلعت ما عليها من الماء ولم تقطع مادة الماء تأذى بذلك أهل السفينة عند خروجهم منها وربما كان ما يتزل من السماء مخلفاً لما تبتلعه الأرض، فلا يحصل الانحسار فأمر سبحانه السماء بالإقلاع بعد أمره الأرض بالابتلاع، ثم أخبر بغيض الماء عند ما ذهب ما على

الأرض، وانقطعت مادة السماء، وذلك يقتضي أن يكون ثالث الجملتين المتقدمتين، ثم قال تعالى: "وقضي الأمر"، أي هلك من قدر هلاكه، ونجا من قضيت نجاته، وهذا كنه الآية، وحقيقة المعجزة، ولا بد وأن تكون معلومة لأهل السفينة، ولا يمكن علمهم بها إلا بعد خروجهم منها، وخروجهم منها موقوف على ما تقدم، فلذلك اقتضت البلاغة أن تكون هذه الملة رابعة الجمل، وكذلك استواء السفينة على الجودي، أي استقرارها على المكان الذي استقرت فيه استقراراً لا حركة معه، لتبقى آثارها آية لمن يأتي بعد أهلها، وذلك يقتضي أن يكون بعد ما ذكرنا، وقوله سبحانه: "وقيل بعداً للقوم الظالمين"، هذا دعاء أوجه الاحتراس ممن يظن أن الهلاك ربما شمل من لا يستحق، فدعا سبحانه على الهالكين، ووصفهم بالظلم احتراساً من هذا الاحتمال، وذلك يقتضي أن تكون بعد كل ما تقدم، والله أعلم.
فانظر إلى حسن هذا النسق، وكيف وقع القول فيه وفق الفعل سواء.
ومن شواهد هذا الباب الشعرية قول زهير طويل:

ومن يعص أطراف الزجاج فإنه يطيع العوالي ركبت كل لهزم

فإنه نسق على هذا البيت اثني عشر بيتاً كل بيت معطوف على ما قبله بالواو عطف تلاحم من غير تضمين.

وحسن النسق تارة يكون في الأبيات بحيث يعطف بيت على بيت كما قدمنا من شعر زهير، وتارة في جمل البيت الواحد، كقول ابن شرف القيرواني بسيط

جاور علياً ولا تحفل بحادثة إذا درعت فلا تسأل عن الأسل

سل عنه، وانطق به، وانظر إليه تجد ملء المسامع والأفواه والمقل

فاللحظ حسن هذا النسق؛ وصحة هذا الترتيب فيه، واستيعاب هذا التقسيم، ووضوح هذا التفسير، وما رأيت من شواهد حسن النسق مما هو داخل في القسم الأول منه كقول أبي نواس كامل:

وإذا جلست إلى المدام وشربها فاجعل حديثك كله في الكاس

وإذا نزعت عن الغواية فليكن لله ذلك النزاع لا للناس

فإن حسن النسق لاعم بين فنين متضادين في هذين البيتين: وهما المحون والزهد حتى صارا كأنهما فن واحد، والله أعلم.

باب الاتسجام

وهو أن يأتي الكلام متحدرا كتحدر الماء المنسجم، سهولة سبك وعذوبة ألفاظ، حتى يكون للجملة من المنثور والبيت من الموزون وقع في النفوس وتأثير في القلوب ما ليس لغيره، مع خلوه من البديع، وبعده عن التصنيع. وأكثر ما يقع الانسجام غير مقصود، كمثل الكلام المترن الذي تأتي به الفصاحة في ضمن النثر عفواً كمثال أشطار، وأنصاف، وأبيات وقعت في أثناء الكتاب العزيز ورويت عن الرسول صلى الله عليه وسلم، فإن وقع من ذلك في غير القرآن بيتان فصاعداً سمي ذلك شعراً وإن لم يقصد، وأما القرآن العزيز فلم يقع فيه إلا مثال النصف، أو البيت الواحد، والبيت المفرد لا يسمى شعراً، وعلى ذلك أدلة لا يتسع هذا المكان لذكرها، وقد أتيت بها مستقصاة في كتابي المنعوت بالميزان الذي شرعت في عمله، أرحح فيه بين كلام قدامة وبين كلام خصومة، ولم يتكلم.

ومثال الانسجام الذي وقع في الأشعار المقصودة قول الإمام أبي تمام بسيط

إن شئت ألا ترى صبراً لمصطبر فانظر على أي حال أصبح الطلل
وكقوله أيضاً كامل:

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى ما الحب إلا للحبيب الأول
وكقول البحري طويل:

فيا لائمي في عبرة قد سفحتها لبين، وأخرى قبلها لتجنب
تحاول مني شيمة غير شيمتي وتطلب مني مذهباً غير مذهبي
وكقول إسحاق بن إبراهيم الموصلبي طويل:

على عصر أيام الصبابة والصبأ ووصل الغواني والتذاذي بالشرب
سلام امرئ لم تبق منه بقية سوى نظر العينين أو شهوة القلب
ومن هذا الباب للمتقدمين أكثر لامية الشنفرى كقوله طويل:

وفي الأرض منأى للكريم عن الأذى وفيها لمن خاف القلى متحول
وكقول امرئ القيس طويل:

أغرك مني أن حبك قاتلي وأنك مهما تأمر القلب يفعل
ولم أسمع في الانسجام كقول عبد الصمد بن المعذل يرثي الأمير سعيد بن سلم بقوله خفيف:

كم يتيم خبرته بعد يتم وعديم نعشته بعد عدم
كلما عضت الحوادث نادى رضى الله عن سعيد بن سلم

والبيت الثاني أردت.

وكقول شاعر الحماسة طويل:

ألا ليقبل من شاء ما شاء إنما
يلام الفتى فيما استطاع من الأمر
قضى الله حب المالكية فاصطبر
عليه، فقد تجري الأمور على قدر

وقد يحصل الانسجام مع البديع الذي أتت به القريحة عفواً من غير استدعاء ولا كلفة، كقول أبي تمام بسيط

إن شئت ألا ترى صبراً لمصطبر
فانظر على أي حال أصبح الطلل

فأنت ترى انسجام هذا الكلام مع كون البيت قد وقع فيه المبالغة، والتعليق، والإشارة، فإنه علق عدم صبر المصطبرين برؤية الطلل على تلك الحالة، وأشار بقوله: "على أي حال أصبح الطلل" إلى أحوال كثيرة لو عبر عنها بلفظها لاحتاجت إلى ألفاظ كثيرة، وعلق أحد الأمرين بالآخر، إذ جاء بلفظ الشرط والمشروط.

ومن الانسجام في الكتاب العزيز قوله تعالى: "قال إنما أشكو بثي وحزني إلى الله وأعلم من الله ما لا تعلمون" والآية التي بعدها. وقوله تعالى "خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين". وقوله سبحانه: "ولله غيب السموات والأرض وإليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه وما ربك بغافل عما تعملون" وأكثر القرآن من شواهد هذا الباب.

ومن الانسجام في السنة قول رسول الله صلى الله عليه وسلم في وصف القرآن: "إن الله أنزل هذا القرآن أمراً وجزاءً، وسنة خالية ومثلاً مضرباً، فيه نبأكم، وخبر ما كان قبلكم، ونبأ ما بعدكم، وحكم ما بينكم، لا يخلفه طول المدد، ولا تنقضي عجائبه، هو الحق، ليس بالهزل، من قال به صدق، ومن حكم به عدل، ومن خاصم به فلج، ومن قسم به أقسط ومن عمل به أجر، ومن تمسك به هدى إلى صراط مستقيم، ومن طلب الهدى من غيره أضله الله، ومن حكم بغيره قصمه الله، هو الذكر الحكيم، والنور المبين، والصراط المستقيم، وحبل الله المتين، والشفاء النافع، عصمة لمن تمسك به، ونجاة لمن ابتعه، لا يعوج فيقوم، ولا يريغ فيستعتب".

فانظر إلى انسجام هذه العبارة وما جاء فيها من البديع غير مقصود، تشهد الخواطر السليمة أنه كلام مسترسل غير مرو ولا مفكر، فصلوات الله وسلامه على من بعث بجوامع الكلم، وأوتى هذه الفصاحة الرائعة، وعلى آله وصحبه وسلم.

باب براعة التلخيص

وهو امتزاج آخر ما يقدم الشاعر على المدح من نسب أو فخر أو وصف أو أدب أو زهد أو مجون أو غير ذلك بأول بيت من المدح. وقد يقع ذلك في بيتين متجاورين، وقد يقع في بيت واحد، وهذه وإن لم تكن طريقة المتقدمين في تغالب أشعارهم، فإن المتأخرين قد لهجوا بها وأكثروا منها، وهي لعمرى من الماسن وهذا الباب قديم، وهو من أجل أبواب المحاسن، ويسمى معرفة الفصل من الوصل.

وقد ذهب أصحاب الإعجاز إلى أنه وجه الإعجاز، وهو دقيق في عين الغي خفي يخفى على غير الحذاق من ذوي النقد. وهو مبثوث في الكتاب العزيز من أوله إلى آخره، فإنك تقف من الكتاب العزيز على مواضع تجدها في الظاهر فصلاً متنافراً لا تعرف كيف تجمع بينها، فإذا أنعمت النظر وكنت ممن له دربة بهذه الصناعة، ظهر لك الجمع بينهما، كقوله سبحانه وتعالى: "سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير، وأتينا موسى الكتاب وجعلناه هدى لبني إسرائيل ألا تتخذوا من دوني وكيلاً. ذرية من حملنا مع نوح إنه كان عبداً شكوراً" فإنك إذا نظرت إلى قوله تعالى: "وأتينا موسى الكتاب" وجدت هذا الفصل مابيناً لما قبله حتى تفكر فتجد الوصل بين الفصلين في قوله: "سبحان الذي أسرى بعبده" فإنه سبحانه أخبر بأنه أسرى بمحمد صلى الله عليه وسلم ليريه من آياته، ويرسله إلى عباده، كما أسرى بموسى من مصرين خرج منها خائفاً يترقب، فأتى مدين، وتزوج بابنة شعيب، وأسرى بها فرأى النار، فخاطبه ربه وأرسله إلى فرعون، وآتاه الكتاب، فهذا الوصل بين هذين الفصلين، وأما الوصل بين ما ذكرت وبين قوله تعالى: "ذرية من حملنا مع نوح إنه كان عبداً شكوراً" فقد كان على بني إسرائيل نعمة عليهم قدماً حيث نجاهم في السفن، إذ لو لم ينج أباهم من أبناء نوح لما وجدوا، وأخبرهم أن نوحاً كان شكوراً، وهم ذريته، والولد سر أبيه، فيجب أن يكونوا شاكرين كأبيهم.

وأما في الشعر فآتم الناس براعة في التلخيص وأول من أحسن في ذلك من القدماء في غالب ظني زهير، حيث قال بسيط

إن البخيل ملوم حيث كان ول كن الكريم على علاته هرم

ولقد اتفق له في هذا البيت اتفاق صالح حيث جاء مدججاً من جهة عروضه، فامتزج المعنيان والقسيماان امتزاجاً كلياً لفظياً ومعنوياً مع ما وقع في البيت من المطابقة اللفظية، ثم تأنت المتأخرون في ذلك، فمن مجيد مبرز، ومن ضعيف مقصر، فمن المجيدين في ذلك الذي أتى فيه بما لا يلحق سبقاً مسلم بن الوليد، حيث قال طويل:

كأن دجاها من قرونك ينشر

أجدك ما تدرين أن رب ليلة

كغرة يحيى حين يذكر جعفر

سريت بها حتى تجلت بغرة

فإن التخلص وقع في بيت واحد، وهو أحسن قسميه، إلى ما جاء في البيت من التعليق والإشارة، فإنه علق الغزل بالمدح، حيث أشار إلى فرط حب يحيى لولده جعفر، وهو الممدوح، وفي ذلك مدحه بالبر لأبيه، الذي أوجب له ذلك عليه، وفي وصفه بالبر لأبيه جما خير الدنيا والآخرة، فأدمج المبالغة في التعليق. ومن المجيدين في ذلك أيضاً أبو نواس حيث يقول طويل:

يعز علينا أن نراك تسير

تقول التي من بيتها خف محملى

بلى إن أسباب الغنى لكثير

أما دون مصر للغنى متطلب

جرت فجرى في إثرهن عبير

فقلت لها، واستعجلتها بوادر

إلى بلد فيه الخصيب أمير

ذريني أكثر حاسديك برحلة

وكقول أبي تمام كامل:

صبر وأن أبا الحسين كريم

لا والذي هو عالم أن النوى

نفسى على إلف سواك تحوم

ما زلت عن سنن الوداد ولا غدت

وكقوله حيث يقول وافر:

محاسن أحمد بن أبي دؤاد

لقد أنست مساوى كل دهر

وكقوله معتذراً في وصف الإبل طويل:

إلى السخط والعذر المبين إلى الحقد

سرت تحمل العتبي إلى العتب

والرضا

وكقوله بسيط

منا السرى وخطا المهرية القود

يقول في قومس صحبي وقد أخذت

فقلت كلا ولكن مطلع الجود

أمطلع الشمس تبغي أن تؤم بنا

ومما تقدم فيه غيره قوله بسيط

فقد أظلك إحسان ابن حسان

إساءة الحادثات استنبطى نفقا

وكقوله بسيط

محمد بن أبي أيوب والنوب

لم يجتمع قط في مصر ولا طرفٍ

وكقوله كامل:

وبنو الرجاء لهم بنو العباس

فالأرض معروف السماء قرى لها

على أن أبا الطيب المتبي قد أتى في هذا الباب بما لا يقصر به عن لحاق أبي تمام ولا أمثاله من المجيدين،
ويكفيه من ذلك قوله بسيط

من أين جانس هذا الشادن العربا

مرت بنا بين تربيها فقلت لها

فاستضحكت ثم قالت كالمغيث يرى ليث الشرى وهو من عجل إذا انتسبا

وأما إذا وصلت إلى ابن حجاج في هذا الباب، فإنك تصل إلى ما لا تدركه الألباب، ومن ذلك قوله
وافر:

بمشورة استها ولها فذالي

وقد بادلتها فمبالها لي

ودنيا ابن العميد جميعها لي

كما لابن العميد جميع مدحي

وكقوله خفيف:

وبهذا الوزير خوف زماني

فيهم قد أمنت خوف معادي

ومن براعة التخلص في الكتاب العزيز قوله تعالى: "نحن نقص عليك أحسن القصص" فإنه سبحانه أشار
بقوله: أحسن القصص إلى قصة يوسف، فوطأ بهذه الجملة إلى ذكر القصة مشيراً إليها بهذه النكتة من
باب الوحي والرمز، وإنما كانت أحسن القصص بكون كل قضية منها كانت عاقبتها إلى خير، فإن أولها
رميه في الحب، فكانت عاقبته السلامة، وبيع ليكون عبداً فاتخذ ولداً، ومارودة امرأة العزيز له فعصمه الله،
ودخوله السجن، وخروجه ملكاً، وظفر إخوته به أولاً، وظفر بهم آخراً، وتطلعه إلى أخيه بنيامين،
 واجتماعه به، وعمى أبيه، ورد بصره، وفراقه له، ولأخيه، واجتماعه بهما، وسجود أبيه وإخوته له
تحقيقاً لرؤياه من قبل.

وكقوله تعالى: موطئاً للتخلص لذكر مبدأ خلق المسيح عليه السلام: "إن الله اصطفى آدم ونوحاً" الآية.
والله أعلم.

باب الحل

وهو أن يعمد الكاتب إلى شعر ليحل منه عقد الوزن فيصيره منشوراً، كما روى عن إبراهيم بن العباس الصولي أنه قال: ما اتكلت قط في مكاتباتي إلا على ما يجلبه خاطري، ويجيش به صدري، إلا قولي: "فأبدلوه آجالاً من آمال" فإني حللت قول مسلم بن الوليد بسيط

موف على مهج في يوم ذي رهج كأنه أجل يسعى إلى أمل

وقولي: وقد صار ما يجرزهم يبرزهم، وما يعقلهم يعتقلهم، فإني حللت فيه قول أبي تمام طويل:

فإن باشر الإصحار فالبيض والقنا قراه، وأحواض المنايا مناهله

وإن بين حيطاناً عليه فإنما أولئك عقالاته لا معاقله

والبيت الثاني أردت.

ومن ذلك في الكتاب العزيز قوله تعالى: "يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات" فإن ذلك حل قول امرئ القيس "رمل":

وقدور راسيات وجفان كالجواب

على أن بعض الرواة ذكر أنه وضعه بعض الزنادقة، وتكلم على الآية الكريمة، وأن امرأ القيس لم يصح أنه تلفظ به، والله أعلم.

باب العقد

وهو ضد الحل، لأنه عقد النثر شعراً.

ومن شرائطه أن يؤخذ المنشور بجملة لفظه أو بمعظمه، فيزيد فيه، أو ينقص منه، أو يحرف بعض كلماته ليدخل به في وزن من أوزان الشعر، ومتى أخذ معنى المنشور دون لفظه كان ذلك نوعاً من أنواع السرقات بحسب الآخذ الذي يوجب استحقاق الآخذ للمأخوذ، ولا يسمى عقداً إلا إذا أخذ المنشور برمته، وإن غير منه بطريق من الطرق التي قدمناها كان المبقى منه أكثر من المغير بحيث يعرف من البقية صورة الجميع، كما فعل أبو تمام في كلام عزي به علي عليه السلام الأشعث بن قيس في ولده، فعقده أبو تمام شعراً فقال طويل:

وقال علي في التعازي لأشعث وخاف عليه بعض تلك المآثم

أتصبر للبلوى عزاء وحسبة فتؤجر أم تسلو سلو البهائم

ومنه قول أبي العتاهية سريع:

ما بال من أوله نطفة

وجيفة آخره يفخر

فإنه عمد إلى قول علي بن أبي طالب عليه السلام: ما ابن آدم والفخر، وإنما أوله نطفة وآخره جيفة، فقعه شعراً.

وكقوله، أعني أبا العتاهية وافر:

كفى حزناً بدفئك ثم إني

نفضت تراب قبرك من يديا

وكانت في حياتك لي عظات

فأنت اليوم أو عظ منك حيا

فإنه عقد قول بعض الحكماء في الإسكندر حين مات: إن كان الملك أمس أنطق منه اليوم، فهو اليوم أو عظ منه أمس، والله أعلم.

باب التعليق

وهو أن يأتي المتكلم بمعنى في غرض من أغراض الشعر، ثم يعلق به معنى آخر من ذلك الغرض يقتضى زيادة معنى من معاني ذلك الفن، كمن يروم مدحاً لإنسان بالكرم فيعلق بالكرم شيئاً يدل على الشجاعة، بحيث لو أراد أن يخلص ذكر الشجاعة من الكرم لما قدر. ومن ذلك في الكتاب العزيز قوله تعالى: "أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين" فإنه سبحانه لو اقتصر على وصفهم بالذل على المؤمنين، لاحتل أن يتوهم ضعيف الفهم أن ذلمهم عن عجز وضعف، فنفى ذلك عنهم، وكمل المدح له بذكر عزهم على الكافرين، ليعلم أن ذلمهم للمؤمنين عن تواضع لله سبحانه، لا عن ضعف ولا عجز بلفظ اقتضت البلاغة الإتيان به، ليتمم بديع اللفظ كما تم المدح، فحصل في هذه الألفاظ الاحتراس مدججاً في المطابقة، وذلك تبع للتعليق الذي هو المطلوب من الكلام. ومن أمثلة التعليق قول المتنبي طویل:

إلى كم ترد الرسل عما أتوا به

كأنهم فيما وهبت ملام

فعلق الكرم بالشجاعة لكونه شبه رسل العدو باللام في الهبة، فهو كثير ما يردهم عما يطلبون منه ثمناً بمرسلهم، وشجاعة عليهم، وتسرعاً إلى حربهم، ورغبة في ما دون سلمهم، ثم حصل من التشبيه الذي علق به الكرم بالشجاعة وصفه بغاية الكرم، إذ دل على أنه عاشق في الجود، ولا يسمع فيه ملاماً، ولا يصغي إلى عاذل، وقد يعلق المتكلم فناً من فنون الكلام بمعنى من معاني البديع، وما سمعت في ذلك أحلى من قول بعض العراقيين في بعض القضاة، وقد شهد عنده برؤية هلال الفطر، فلم يجز الشهادة "رمل مجزؤاً":

أم تراه يتعلمي

عيد أموال اليتامي

أترى القاضي أعمى

سرق العيد كأن ال

فعلق خيانة القاضي في أموال اليتامي بما قدمه من خيائه في أمر العيد برابطة التشبيه.
ومن مליح التعليق قول المتنبي في صفة الليل، وهو من الصنف الأول من التعليق وافر:

أعد به على الدهر الذنوبا

أقلب فيه أجفاني كأنني

فإنه علق فن عتاب الزمان بفن الغزل اللازم من فن الوصف بواسطة أداة التشبيه، فعلق الافتنان بالتشبيه،
فأحسن ما شاء.

ومن أحسن ما سمعت في التعليق قول أبي نواس، وهو من الصنف الثاني من التعليق "مجزوء الوافر":

وفي وسط الملا نسب

لهم في بيتهم نسب

ولو زنيته غضبوا

لقد زنوا عجوزهم

فإنه علق هجاءهم بفجور أمهم بدعوتهم في النسب، فكان في ذلك هجاء أبيهم، لكونهم لم يرضوا نسبتهم
إليه، فكان الشاعر رأى هجاءهم بفجور أمهم دون هجائهم بدناءة أبيهم ناقصاً، فيتم ما أراد من هجائهم
بما قال، وظرف ما شاء بقوله: "ولو زنيته غضبوا".

ومثله قوله أيضاً إلا أن فيه زيادة على كل ما قدمنا لكونه يجمع صنفى التعليق.
أما التعليق الأول فلأنه علق على التهكم بالهجاء، ولم يقتصر على الهجاء.

وأما الثاني فكونه علق الافتنان الذي هو الهجاء والفخر على ما بينه بمعنى التشبيه والإدماج وافر:

كأنني قد هجوت الأدعياء

فأعرض هيثم لما رأني

ولو بلغت مروءته السماء

وقد آليت لا أهجو دعياً

ومن لطيف تهكمه في هذا البيت قوله:

ولو بلغت مروءته السماء

وقد أدمج الافتنان في التهكم لأن معناه أي لا أهجو إلا من بلغت مروءته الغاية القصوى.
وكذلك قصد الشعراء وعقلاء البلغاء، يتخيرون لهجائهم كما يتخيرون لمديحهم.
وقد وقع لي في هذا الباب من المدح ما لا بأس بذكره، وهو الصنف الأول من التعليق طويل:

فقابله طلق الأسرة ذا بشرا

تخيل أن القرن وافاه سائلا

ونادى فرند السيف دونك نحره فأحسن ما تهدي اللآلي إلى النحر

فإني علقت ذكر الكرم بذكر الشجاعة، حيث وصفت الممدوح بطلاقته وتملهه استبشاراً بالقرن لما تخيله سائلاً، واهدائه فرند السيف وهو جوهره إلى نحره لما تخيل الفرند لآلئاً، هذا إلى ما وقع في البيت الثاني من التورية بذكر النحر، والترشيح بذكر اللآلي.

ومن التعليق العجيب قولي أيضاً مما علقت فيه الاستعطاف بالعتب بطريق الإدماج طويل:

أخواننا بالله ما لجفائكم
أحين أمنتم من ملامي وأيقنت
تخليتم عني وخنتم موثقاً
وأقررتم عين الحسود عليكم
سأصبر حتى ينفد الصبر كله
وأعطفكم بالشعر ما ذر شارق
وأعذر إن عرضت يوماً بعتبكم
وهأنا موصيكم وصية ناصح
بأن تتحاموا من فوات بوادري
وأن تهدموا ما قد بنيتم وتعطشوا
غدا لي بعد السلم وهو مصالت
نفوسكم أني مدى الدهر ساكت
لها بعد توكيد العهود تهافت
فسرت نفوس بالبعاد شوامت
وينطق حالي والقوافي صوامت
وأخلبكم بالنثر ما عج قانت
ليحيا وداد بالتجنب مانت
لكم وده عند الحفيظة ثابت
فإن بعيداً رد ما هو فانت
من الود غرساً قد غدا وهو نابت

ومن التعليق فرع يسمى تعليق الشرط، وهو أن يعلق المتكلم مقصوده على شرط يلزم من تعليقه مبالغة في ذلك المعنى، أو نوعاً من المحاسن زائداً على وقوع المشروط لوقوع الشرط، وذلك كقول أبي تمام طويل:

فإن أنا لم يحمدك عني صاغراً
عدوك فاعلم أنني غير حامد

فعلق صحة حمده لممدوحه على حمد عوده صاغراً إن لم يحمد الممدوح عدوه صاغراً لا يكون الشاعر له حامداً. وقد استقصيت الكلام على هذا البيت في باب المقارنة والفرق بين التعليق التكميل شدة ملاحمة الفنين في التعليق، واتحادهما، وإن وجد لفظيهما فيه وتخليص أحدهما من الآخر في التكميل، ولأن من التعليق تعليق الشرط، ومنه تعليق الفنون بالمعاني، والله أعلم.

باب الإدماج

وهو أن يدمج المتكلم غرضاً له في ضمن معنى قد نحاه من جملة المعاني ليوهم السامع أنه لم يقصده، وإنما عرض في كلامه لتتمة معناه الذي قصد إليه، كقول عبيد الله بن عبد الله لعبد الله بن سليمان بن وهيب حين وزر للمعتضد، وكان ابن عبيد الله قد اختلت حاله، فكتب لابن سليمان طويل:

أبي دهرنا إسعافنا في نفوسنا وأسعفنا فيمن نحب ونكرم

فقلت له: نعماك فيهم أتمها ودع أمرنا إن المهم المقدم

فأدمج شكوى الزمان، وشرح ما هو عليه من الاختلال في ضمن التهئة وتلطف في المسألة، ودقق التحليل لبلوغ الغرض، مع صيانة نفسه عن التصريح بالسؤال، وحمایته من الإذلال، لا جرم أن ابن سليمان فطن لذلك ووصله واستعمله.

ومن لطيف الإدماج قول ابن نباتة السعدي طويل:

ولا بد لي من جهلة في وصاله فمن لي بخل أودع الحلم عنده

فإنه أدمج الفخر في الغزل حين جعل حلمه لا يفارقه بته، ولا ترغب نفسه عنه جملة، وإنما عزم على أن يودعه، إذ كان لا بد له من وصل هذا المحبوب، لأن الوادائع تستعاد، ثم استفهم عن الخل الصالح أن يستودع الحلم بلفظ يشعر بالاستبعاد والتعذر، فيكون مفهوم الخطاب بقيا حلمه لعدم من يصلح لأن يودعه عنده وأدمج الفخر في الغزل من جهة تصريجه بذكر الحلم، وشرح بالإدماج الطباق بين الحلم والجهل، ثم أدمج فيهما شكوى الزمان لتغير الإخوان بحيث إنهم لم يبق منهم من يستصلح لمثل هذا الشأن في الإشارة.

ومثل هذا الإدماج ما وقع لبعض الأندلسيين في قوله وافر:

أرضى أن تصاحبني بغيضاً مجاملة وتحملني ثقيلاً

وحقك لا رضيت بذأ لأني جعلت وحقك القسم الجليلاً

والبيت الثاني أردت، لأنه أدمج فيه الغزل في العتاب من الفنون، والمبالغة في القسم من البديع. ومن شواهد الإدماج في الكتاب العزيز قوله تعالى: "وله الحمد في الأولى والآخرة" فإن هذه الجملة أدمج فيها المبالغة في الحمد في ضمن المطابقة، إذ أفرد نفسه سبحانه بالحمد حيث لا يحمد سواه، إذ قال: وهو أعلم: "وله الحمد في الأولى والآخرة".

والفرق بين التعليق والإدماج أن التعليق يصرح فيه بالمعنيين المقصودين على شدة اتحادهما، والإدماج يصرح فيه بمعنى غير مقصود قد أدمج فيه المعنى المقصود، والله أعلم.

باب الإزدواج

وهو أن يأتي الشاعر في بيته من أوله إلى آخره بجملة: كل جملة فيها كلمتان مزدوجتان، كل كلمة إما مفردة أو جملة. وأكثر ما يقع هذا النوع في أسماء مثناة مضافة كقول أبي تمام متقارب:

وكانا جميعاً شريكَي عنان
رضيعی لبان، خليلي صفاء

ومن الإزدواج نوع يؤتى فيه بكلمتين صورتها واحدة، ومفهومهما واحد، كقول ابن الرومي: مجزوء الكامل:

أبدانهن وما لبس
ن من الحرير معاً حرير

أردانهن وما مسس
ن من العبير معاً عبير

وكقول بعض العرب بسيط

ومطعم النصر يوم النصر مطعمه
أني توجه والمحروم محروم

فقوله: ومطعم النصر مطعمه، والمحروم محروم، ازدواج، والفرق بينه وبين التجنيس المماثل اختلاف معني الكلمتين في التجنيس واتفاقهما في الإزدواج، على أن الرماني قد عد الإزدواج تجنيساً، وذكر منه قوله تعالى: "فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه" وأفرده غير الرماني باباً، واستشهد عليه بالبيت الثاني من شواهد هذا الباب وأمثاله بغير ذلك، والله أعلم.

باب الاتساع

وهو أن يأتي الشاعر بيت يتسع فيه التأويل على قدر قوي الناظر فيه، وبحسب ما تحتمل ألفاظه، كقول امرئ القيس طويل:

إذا قامتا تزوع المسك منهما
نسيم الصبا جاءت برياً القرنفل

فإن هذا البيت اتسع النقاد في تأويله، فمن قائل تزوع مثل المسك منهما نسيم الصبا، ومن قائل تزوع نسيم الصبا منهما، ومن قائل تزوع المسك منهما تزوع نسيم الصبا، وهذا هو الوجه عندي، ومن قائل تزوع المسك منهما بفتح الميم يعني الجلد بنسيم الصبا.

وكقوله في صفة الفرس طويل:

مكر مفر مقبل مدبر معاً
كجلمود صخر حطه السيل من عل

لأن الحجر يطلب جهة السفلى لكونها مركزه، إذ كل شيء يطلب مركزه بطبعه الذي جبل عليه، فالحجر يسرع انحطاطه إلى السفلى من العلو من غير واسطة، فكيف إذا أعانتها قوة دفاع السيل من عل، فهو حال

تدحرجه يرى وجهه في الآن الذي يرى فيه ظهره لسرعة قلبه، وبالعكس، ولهذا قال الشاعر، مقبل مدبر معاً يعني يكون إدباره وإقباله مجتمعين في المعية، ولا يعقل الفرق بينهما، وحاصل الكلام وصف الفرس بلبين الرأس، وسرعة الانحراف، وشدة العدو، لكونه قال في صدر البيت إنه حسن الصورة، كامل النصفة في حالتي إقباله وإدباره، وكره وفره، ثم شبهه في عجز البيت بجلمود صخر حطه السيل من العلو لشدة العدو، فهو في الحالة التي يرى فيها لبتة يرى فيها كلفه وبالعكس. هذا ولم تخطر هذه المعاني بخاطر الشاعر في وقت العمل.

وإنما الكلام إذا كان قوياً من مثل هذا الفحل احتمال لقوته وجوهاً من التأويل بحسب ما تحتمل ألفاظه، وعلى مقدار قوى المتكلمين فيه، ولذلك قال الأصمعي: خير الشعر ما أعطاك معناه بعد مطاولة، وقد غلط بعض الناس في تفسير هذا الكلام، وغلط الأصمعي فيه لسوء تفسيره، لأنه توهم أن الأصمعي أراد الشعر الذي ركب من وحشي الألفاظ، أو وقع فيه من تعقيد التركيب ما أوجب له غموض معناه، ولو كان كذلك كان ذلك شراً للشعر، وإنما أراد الأصمعي الشعر القوي الذي يحتمل مع فصاحته، وكثرة استعماله ألفاظه، وسهولة تركيبه، وجودة سبكه معاني شتى يحتاج الناظر فيه إلى تأويلات عدة، وترجيح ما يترجح منها بالدليل وجميع فواتح السور المعجمة من هذا الباب، فإن العلماء قد اتسعوا في تأويلها اتساعاً كبيراً، وإن ترجح من جميع أقوالهم كونها أسماء للسور، ثم اختلفوا في إعراب ما يتأتى فيه الإعراب منها، فبعضهم يرى فيه الحكاية، كما يرى ذلك في صاد، وقاف، ونون، فإن هذه الأسماء محكية ليس إلا، وبعضهم يرى الإعراب في المجموع خاصة، وينشد قول شريح بن أوفى العبسي قاتل محمد بن طلحة السجاد طويل:

فهلا تلا حاميم قبل التقدم

يناشدني حاميم والرمح شاجر

وأما ما جاء من باب الاتساع في غير الفواتح فقوله تعالى: "وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم" الآية فإن لفظها محتمل تأويلات شتى، فإن ظاهر الآية يقتضي إباحة الجمع بين تسع، ثم قوله بعد: "رباع". "فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة" ومن لم يعدل في الأربع جاز أن يعدل في الثلاث، فلم نزل إلى الواحدة؟ وهذه الظواهر مفتقرة إلى تأويلات تميظ عنها هذه الإشكالات. والله أعلم.

باب المجاز

المجاز عبارة عن تجوز الحقيقة، بحيث يأتي المتكلم لاسم موضوع لمعنى فيختصره إما بأن يجعله مفرداً بعد أن كان مركباً، أو غير ذلك من وجوه الاختصار، أو يذكر ما هو متعلق به، أو كان من سببه لفائدة.

والمجاز جنس يشتمل على أنواع كثيرة، كالاستعارة والمبالغة والإشارة، والإرداف، والتمثيل، والتشبيه، وغير ذلك مما عدل فيه عن الحقيقة الموضوعية للمعنى المراد، فهذه الأنواع وإن كانت من المجاز فلكونها متعددة جعل لكل منها اسم يعرف به، ويميزه عن غيره من جنسه، كما جعل لأنواع جنس الحيوان من الأسماء التي تعرف أنواعها بالفصول، كالفرس، والجمال، والطائر، والإنسان وغير ذلك من قسمي الناطق والبهيم، وقد خص النقاد نوعاً من أنواع المجاز بإبقاء اسم المجاز عليه، وهو أقسام: منها: حذف الموصوف وإبقاء الصفة تدل عليه، كقوله تعالى: "هو الذي أرسل رسوله" فإن المراد هو الذي أرسل محمداً رسوله، وحذف الفاعل الذي فعله المستند إليه دال عليه كقوله تعالى: "حتى توارت بالحجاب". ومنها حذف الأجوبة كقوله تعالى في حذف جواب لو: "ولو أن قرآناً سيرت به الجبال" الآية. ومنها الإتيان بجواب عن سؤال مقدر لدلالة الجواب عليه كقوله سبحانه: "قيل ادخل الجنة" فإن المعنى كأن قائلاً قال: فما كانت عاقبة هذا الذي نصر الحق وبذل نفسه في ذات الله، فيقال: قيل له: ادخل الجنة.

ومنها الاسم المضاف الذي حذف المضاف منه، وأقيم المضاف إليه مقامه، كقوله تعالى: "وأشربوا في قلوبهم العجل" أي حب العجل، وقوله تعالى: "ويا سماء أقلعي" أي ويا مطر السماء، أو يا سحب السماء، أو يا سحب لكونه بالنسبة للمخاطب عالياً، وكل ما علا الإنسان من سقف وسحاب وغيره يسمى سماء، وقد تجاوزت العرب حذف المضاف إلى حذف مضاف ثان بعد حذف المضاف الأول، كقول جرير وافر:

إذا نزل السماء بأرض قوم رعيناه وإن كانوا غضابا

فقوله: إذا نزل السماء، يريد مطر السماء، وهذا القسم الأول من المجاز، وقوله: رعيناه يريد رعيناه ما بينته مطر السماء، وهذا القسم الثاني من المجاز، وإنما اتفقوا على اسم المجاز على هذا القسم لخلوه من معنى زائد عن تجوز الحقيقة، يليق أن يكون تسميته من جنسه، كالاستعارة، والتشبيه، والمبالغة، والإرداف، والإشارة وغير ذلك، فلما لم يكن في هذا القسم غير تجوز الحقيقة اختصاراً أفرد باسم المجاز، إذ لا يليق به غيره، والمراد بذلك الاختصار.

باب الإيجاز

الإيجاز اختصار بعض ألفاظ المعاني ليأتي الكلام وجيزاً من غير حذف لبعض الاسم، ولا عدول عن لفظ المعنى الذي وضع له، فإن الاختصار أن نحذف بعض الاسم كما قدمناه، فهو مجاز، وإن كان بتغيير لفظ

المعنى بوجه من وجوه التغير كان من أنواع المجاز التي قدمنا ذكر بعضها، كالاتعارة، والإشارة، والإرداف وغير ذلك.

ومثاله أن يقتص المتكلم قصة بحيث لا يغدر منها شيئاً، في ألفاظ قليلة موجزة جداً، بحيث لو اقتصها غيره ممن لم يكن في مثل طبقته من البلاغة، أتى بها في أكثر من تلك الألفاظ، وأكثر قصص الكتاب العزيز من هذا القبيل، كقصة موسى عليه السلام في "طه"، فإن معانيها أتت بألفاظ الحقيقة تامة غير محذوفة، وهي مستوعبة في تلك الألفاظ.

وقد رأيت أكثر العلماء على تقديم الأعشى في اقتصاصه قصة السموع في أدراع امرئ القيس الشاعر التي أودعها عنده لما قصد قيصر، ووفاء السموع بها، حتى سلمها لأهل امرئ القيس وبذل دونها دم ولده وهو يشاهده، وهي بسيط

كن كالسموع إذ طاف الهمام به	في جحفل كسواد الليل جرار
بالأبلى الفرد من تيماء منزله	حصن حصين وجار غير غدار
إذ سامه خطتي خسف فقال له	مهما تقول فإني سامع حار
فقال: غدر وتكل أنت بينهما	فاختر فما فيهما حظ لمختار
فشك غير طويل ثم قال له	اقتل أسيرك إني مانع جاري
إن له خلفاً إن كنت قاتله	وإن قتلت كريماً غير عوار
مالاً كثيراً وعرضاً غير ذي دنس	وإخوة مثله ليسوا بأشرار
جروا على أدب مني بلا نزق	ولا إذا شمريت حرب بأغمار
وسوف يخلفه إن كنت قاتله	رب كريم وبيض ذات أطهار
لا سرهن لدينا ضائع هدرأ	وكاتمات إذا استودعن أسرارى
فقال يقدمه إذ قام يقتله	أشرف سموءل فانظر للدم الجاري
أأقتل ابنك صبراً أو تجئ بها	طوعاً فأنكر هذا أي إنكار
فشد أوداجه والصدر في مضض	عليه منطويا كاللذع بالنار
واختار أدراعه ألا يسب بها	ولم يكن عهده فيها بختار
وقال: لا نشترى عاراً بمكرمة	واختار مكرمة الدنيا على العار
والصبر منه قديماً شيمة خلق	فزنده في الوفاء الثاقب الواري

فانظر كيف أغنى الأعشى عن تحفظ القصة بطولها من يريد حفظها بهذه الآيات التي استوعبها فيها مع ما انطوت عليه ألفاظها التي خرجت كلها مخرج الحقيقة من المدح للسموع بالوفاء، ولابنه بالصبر على البلاء، والتحريض للممدوح على التخلق بمثل هذا الخلق، ليبقى له مثل هذا الذكر، والاحتباس في البيت الذي يقول فيه:

أقتل ابنك صبراً أو تجئ بها

فإنه لما أضمم فيه ذكر الأذراع، فطن إلى أن البيت مفتقر إلى شرح إن لم يؤت به يتوقف السامع في فهمه، فاحترس عن ذلك بقوله:

واختار أذراعه ألا يسب بها

ليوضح أن الضمير في البيت الذي قبله يعود على الأذراع، فتلافي في ذلك الخلل، واستغنى عن الشرح المطول.

وقد ذكر الحاتمي في الحلية بعد هذه الآيات قول بعض العرب بمدح بني كعب بقوله طويل:

لعمري لنعم الحي حي بني كعب إذا نزل الخلخال منزلة القلب

وقال الحاتمي: إذا ريعت ربة الخلخال، فأبدت ساقها للهرب فتكون قد أنزلت الخلخال منزلة القلب في الظهور، لأن عادة المرأة من العرب أن تبتدى معصمها وتستر ساقها، ولا عار عليها في ذلك، وحاصل هذا الكلام مدح الحي بالحمامة، وشدة البأس عند الخوف.

وقد قيل فيه غير ذلك، وهو أن المرأة من الروعة تذهل فتلبس الخلخال موضع القلب دهشاً وحيرة، والمرجع في التفسيرين إلى مقصد واحد.

وعندي أن هذا البيت لا يصلح أن يكون من شواهد الإيجاز، لأن حقيقة الإيجاز إخراج المعاني في قوالب ألفاظها الحقيقية الموضوعة لها، فإن الإيجاز إيجازان: إيجاز مجازي، وإيجاز حقيقي، فما كان منه حقيقياً بقي عليه اسم الإيجاز، وما كان مجازياً وضعوا لكل قسم منه اسماً يخصه ويناسب اشتقاقه، فإن المجاز إيجاز، وهو حذف بعض الكلام لدلالة الباقي عليه، أو للاستغناء بالقرينة، كقوله تعالى: "واسئل القرية" والإشارة والإرداف والتمثيل إيجاز، لكن هذه الأبواب تجيء بغير ألفاظ المعاني الموضوعة لها، وقول هذا الشاعر:

إذا نزل الخلخال منزلة القلب

وهو يريد إذا ارتاعت فلبست خلخالها في معصمها، أو ذهلت للخوف عن تخفرها، معلوم أنه غير لفظ المعنى الخاص، وهذا بالإشارة أولى، فإن شئت جعلته من شواهد الإشارة، ومن شواهد الاتساع، أو منهما، ثم ذكر أعني الحامي بيتي لبدي، وهما "رمل":

وعلى ألسنهم ذلت نعم

وبنو الديان أعداء للا

وكذاك الحلم زين للكرم

زينت أحسابهم أنسابهم

ولفظ البيت الأول لفظ الأرداف، فلا يصلح أن يكون من شواهد الإيجاز، لأنه أراد أن يقول: بنو الديان أجواد، فعدل عن هذا اللفظ إلى لفظ هو ردفه، وهو ذكر معاداتهم للا ليبالغ في وصفهم بالجوود، والبيت الثاني جاء بلفظ الإشارة، إذ التزيين يكون بضروب من المحاسن، فإن قيل: إذا كان المجاز نوعاً من الإيجاز جاز أن يسمى كل صنف من ذلك النوع إيجازاً.

قلت للتسميات علامات تعرف بها المسميات، ومن سمى النوع باسم الجنس فهو غير معرف لذلك النوع، فإنك لو قلت في حد الإنسان: هو حيوان، من غير ذكر الفصل لكنت غير معرف لحقيقته، لكونك لم تأت إلا بالقدر القدر المميز، ولما كان من الإيجاز ما يدل على المعنى بلفظ المعنى بلفظ الموضوع له، ومنه ما يدل على المعنى بلفظ هو ردف لفظه تارة، ولفظ هو مثل لفظه، أو به، ولفظ مستعار من لفظه حيناً والحقيقة أصل، والمجاز فرع، والإيجاز أصل نفي الاسم الأصلي على الكلام الذي دل لفظه على معناه بظاهره، وسمى ما دل على معناه بالتأويل بأسماء مجازية، إذ كانت مسمياتها مجازية.

ومن أمثلة الإيجاز قول النابغة الذبياني في اقتصاصه قصة الزرقاء. للنعمان بسيط

إلى حمام شراع واردي الثمد

فاحكم كحكم فتاة الحي إذ نظرت

مثل الزجاجة لم تكحل من الرمذ

يحفه جانبا نيقٍ وتتبعه

إلى حمامتنا ونصفه فقد

قالت ألا ليتما هذا الحمام لنا

تسعا وتسعين لم ينقص ولم يزد

فحسبوه فألفوه كما حسبت

وأسرعت حسبة في ذلك العدد

وكملت مائة منها حمامتها

فإن النابغة سرد هذه القصة بألفاظ الحقيقة عرية عن الحشو الخشن والمعيب، ولم يغادر منها شيئاً، ويروى البيت الأول سراع بسين مهملة، وهو أبلغ في وصف نظر الزرقاء، ويدل على صحة هذه الرواية أن قوله: واردي الثمد يغني عن قوله: شراع بشين معجمة فلم يبق الإسراع بسين مهملة لما يدل عليه من المبالغة في حدة نظر الزرقاء بدليل قوله بعد هذا البيت: وأسرعت حسبة.

فإن قيل: فما الفرق إذا بين الإيجاز والمساواة؟ قلت: المساواة لا تكون إلا في المعنى المفرد يعبر عنه بلفظ

مساو له لا يزيد عليه ولا يقصر عنه، والإيجاز يكون في ذكر القصص والأخبار التي تضمنت معاني شتى متعددة، وخلاصة ذلك أن المساواة في معاني الجمل التي تتركب منها الأبيات والفصول، والإيجاز في الأبيات والفصول.

ومن الإيجاز نوع يختصر فيه بعض اللفظ ويؤتى بلفظ الحقيقة كقوله سبحانه: "والذين تبوءوا الدار والإيمان" فإن تقديره تبوءوا الدار وأخلصوا الإيمان، كما تقول: "رجز":

علفتها تنبأ وماء باردا

وكما قال الشاعر كامل مجزوء:

متقلد سيفاً ورمحا

ورأيت زوجك في الوغى

أي ومعتقلاً رمحاً ومن إيجاز الكتاب العزيز قوله سبحانه وتعالى: "إن الله يأمر العدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون" فإنه عز وجل أمر في أول الآية بكل معروف، ونهى بعد ذلك عن كل منكر ووعظ في آخرها أبلغ موعظة وذكر أطف تذكير بألفاظ اتفق فيها ضروب من المحاسن مع كونها ألفاظ الحقيقة، وهي صحة الأقسام، لأنها استوعبت جميع أقسام أجناس المعروف والمنكر، والطباقيين اللفظي والمعنوي وحسن النسق والتسليم، وحسن البيان، والإيجاز، وائتلاف لفظ الكلام مع معناه، والمساواة، وصحة المقابلة، وتمكين الفاصلة، فأما استيعاب الأقسام فلأنه سبحانه أمر بالعدل، وهو معاملة المكلف نفسه وغيره بالإنصاف، ثم أمر بعد العدل بالإحسان، وهو اسم عام يدخل تحته التفضل بعد العدل، وقدم ذكر العدل لأن العدل واجب، وتلاه بالإحسان لأن الإحسان مندوب، ليقع وضع الكلام على أحسن ترتيب، وخص ذا القربى بالذكر بعد دخوله في عموم من أمره بمعاملته بالعدل والإحسان لبيان فضل ذي القربى وفضل الثواب عليه، ونهى عن الفحشاء والمنكر والبغى بصيغة تعريف الجنس ليستغرق كل ما يجب أن ينهى عنه، كما استغرق كل ما يجب أن يؤمر به، والمطابقة اللفظية في قوله تعالى: "يأمر" "وينهى"، والمعنوية في قوله سبحانه "بالعدل والإحسان" وإيتاء ذي القربى وقوله "الفحشاء والمنكر والبغى" فإن الثلاثة الأخر أضداد الثلاثة الأول، لأن الأول من الفعل الحسن، والآخر من الفعل القبيح، فطابق بين الحسن والقبح مطابقة معنوية.

وحسن التنسيق في ترتيب عطف بعض الجمل على بعض كما ينبغي، حيث قدم العدل وعطف عليه الإحسان الذي هو جنس عام، وخص منه نوعاً خاصاً، وهو إيتاء ذي القربى، وعطفه عليه، ثم أتى بالأمر مقدماً، وعطف عليه النهي ثانياً، ثم رتب جمل المنهيات كما رتب جمل المأمورات في العطف، بحيث لم

يتأخر في الكلام ما يجب تقديمه ولم يتقدم في ما يجب تأخيره.

وأما التسهيم فهو أن صدر الآية يدل على عجزها كما يدل صدر البيت المسهم على عجزه.

وأما حسن البيان فلأن لفظ الآية لا يتوقف في فهم معناه أحد إذ سلم من التعقيد في نظمه، فقد دل على معناه دلالة واضحة بأقرب الطرق، واستوى في فهمه الذكي والبليد، والقريب من هذه الصناعة والبعيد.

وأما الإيجاز فهو دلالة الألفاظ القليلة الحقيقية على المعاني الكثيرة من غير إشارة ولا إرداف ولا حذف.

وأما اتئلاف لفظ الكلام مع معناه، فلأن كل لفظة لا يصلح مكانها غيرها.

وأما المساواة فلأن ألفاظ الكلام قوالب لمعانيه، لا تزيد عليها، ولا تقصر عنها.

وأما صحة المقابلة فلأن النهي قابل الأمر، والمنهيات قابلت المأمورات مع مراعاة الترتيب.

وأما تمكن الفاصلة فلأن مقطع الآية مستقر في مكانه، مطمئن في موضعه ومعناه متعلق بما قبله إلى أول

الكلام، لأنه لا تحسن الموعظة إلا بعد الأمر والنهي، فإن الوعد والوعيد لا يقعان إلا بعد امتثال الأمر أو مخالفته والتذكيرة بعد الموعظة.

ومن إيجاز الكتاب العزيز أيضاً قوله: "ولكم في القصص حياة" لأنه قد أجمع النقاد على أن أبلغ كلام قيل

في هذا المعنى قول القائل: "القتل أنفى للقتل" وإذا نظرت بين هذا الكلام وبين لفظ القرآن وجدت هذا

الكلام ليس فيه من ضروب البديع سوى الإيجاز، مع كونه لم يخل من عيب، ووجدت لفظ القرآن قد

جمع الآجام والإيضاح والإشارة والكناية والطباق وحسن البيان والإبداع، وسلم من العيب الذي جاء في ذلك الكلام.

فأما الإيجاز فلأن اللفظ المماثل من لفظ القرآن للأول هو قوله تعالى: "القصص حياة" وهو عشرة

أحرف، والأول أربعة عشر حرفاً، وأما الإيضاح فإن لفظة القصص أوضحت المعنى المراد، إذ هو قتل

مقيد، لا قتل مطلق، وأما الإشارة، ففي قوله سبحانه: "حياة" فإن هذه اللفظة أشارت إلى أن القتل الذي

أوجبه العدل يكف القتل الذي يأتي به العدوان، وفي ذلك حياة الأحياء.

والكناية في قوله تعالى: القصص فإنه كنى بهذه اللفظة عن الموت المستحق الذي يوجبه العدل.

وأما الطباق ففي قوله "القصص حياة" لأن القصص الموت، فكأنه سبحانه قال: الموت حياة، وهذا طباق

معنوي. وأما حسن البيان، فكون المخاطب فهم المراد من هذا النظم من غير توقف، وأما الإبداع فلأن في

كل لفظة من هذا الكلام عدة من المحاسن، وأما السلامة من العيوب بالنسبة فلأن الكلام خلا عن التكرار

الذي وقع في الكلام الأول، فإن قيل لا يعد التكرار الذي وقع في قول القائل: "القتل أنفى للقتل" عيباً

لاختلاف المعنى قلت: لكن اللفظ إذا اختلف معناه واتحدت صيغته اتحاداً لا يعد تحسيناً وكان الكلام به

معياً، فهذا عيب لفظ الكلام الأول الذي سلم منه لفظ القرآن، وأما عيب المعنى فلأن القائل سمي الخاص باسم العام، فإن مطلق القتل صالح للقصاص ولغيره، كما أنه صالح للعدوان ولغيره، وهذه العبارة موجبة للبس المضاد لحسن البيان الذي هو خارج مخرج العدوان ولفظ القرآن مخلص للعدل. وإذا وصلت في هذا الباب إلى قوله تعالى: "وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين" فإنه سبحانه أتى في هذه الآية الكريمة بأمرين ونهيين، وخبرين متضمنين بشارتين، في أسهل نظم، وأحسن لفظ، وأوجز عبارة، ولم يخرج الكلام عن الحقيقة في شيء من ذلك.

واعلم أن الإيجاز على ضربين: ضرب بسيط وضرب مختصر، ويكون البسيط مختصراً بالنسبة لغيره، فالبسيط كقصة يوسف عليه السلام من قوله: "نحن نقص عليك أحسن القصص" إلى آخر القصة، والمختصر مثل قوله على لسان يوسف عليه السلام: "هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقاً وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن وجاء بكم من البدو من بعد أن نزغ الشيطان بيني وإخواني" اختصر القصة كلها في هذه الآية، لأنه ذكر أصول الأسباب المستلزمة لجميع المسببات التي هي جملة القصة، فإن قوله: "هذا تأويل رؤياي من قبل" اقتصر على ذكر رؤياه التي كانت سبب حسد اخوته حين فعلوا به ما فعلوا، وذكر خروجه من السجن الذي كان سبباً في الملك الذي كان سبباً في اجتماعه بأبيه واخوته، فكأنه قد اقتصر جميع القصة مختصرة لمن يشارك في علمها، فالأولى لعلم تفاصيلها، والثانية لعلم جملها، وهذا أحسن إيجاز وقع في كلام، والله أعلم.

باب سلامة الاختراع من الإتياع

وهو أن يبتدع الأول معنى لم يسبق إليه ولم يتبع فيه كقول، عنترة في وصف الذباب كامل:

قدح المكب على الزناد الأجمد

هزجاً يحك ذراعه بذراعه

وكقول ابن الرقاع في تشبيه قرن الخشف كامل:

قلم أصاب من الدواة مدادها

ترجى أغن كأن إبرة روقه

وكقول ذي الرمة في تشبيه الليل طويل:

بأربعة والشخص في العين واحد

وليل كجلباب العروس أدرعته

وكقول النابغة الذبياني في وصف النسور طويل:

جلوس الشيوخ في مسوك الأرناب

تراهن خلف القوم زوراً عيونها

فهذه اختراعات المتقدمين التي سبقوا إليها، ولم يلحقوا فيها.

وما اختراعات المولدين التي سبق إليها قائلها ولم يتبع فيها قول السيد الحميري في علي عليه السلام بسيط

قد كان عند اللفا للطعن معتادا

لكن أبو حسن والله أيده

إنامة الريح في أبياتها عادا

إذا رأى معشراً حرباً أنامهم

قال الحاتمي بعد إيراد هذين البيتين في هذا الباب: لم يسبق السيد إلى هذا المعنى، ولم يتبع فيه، فإنما ما سمعنا من شبه إنساناً بالريح غيره، وهذا وهم من الحاتمي لأن هذا المعنى لعبد الله بن العباس رضي الله عنه في الحديث الصحيح الذي وصف فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجود في كل زمان، وخصوصاً في شهر رمضان حيث قال: "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أجود الناس، وكان أجود ما يكون في شهر رمضان، كان كالريح المرسلة" فغاية ما فعله السيد أنه نقل المعنى من الوصف بالجود إلى الوصف بالشجاعة، وإلا فنفس المعنى في الموضوعين تشبيه الإنسان بالريح، غير أن السيد أخذ المعنى نثراً، فعقده بالوزن شعراً فله هذه الفضيلة لا فضيلة الاختراع، وعلى هذا يكون باب حسن الإتيان أحق بهذا الشعر من باب سلامة الاختراع، ومن الجب كيف ذهب ذلك على الحاتمي مع تقدمه في الأدب وحذقه بالنقد هذا على أننا جعلنا تشبيه الحميري نفس الإمام علي رضي الله عنه بالريح مجازاً، والحقيقة في ذلك غير هذا، لأن لفظ البيت يدل على أنه شبه بإنامة الإمام محاربيه بإنامة الرياح عاداً، فالشاعر إنما شبه بإنامة بإنامة، لأنفس المنيم بنفس الريح، ومن اختراعات المحدثين قول ابن الرومي في تشبيه الرقاقة حين يبسطها الخباز في القطعة المشهورة التي أولها بسيط

يدحو الرقاقة مثل اللحم بالبصر

لا أنس ما أنس خبازاً مررت به

إلى قوله:

في صفحة الماء يرمي فيه بالحجر

إلا بمقدار ما تتداح دائرة

وإذا وصلت إلى قول ابن حجاج في هذا البيت وصلت إلى الغاية التي لا تلحق، حيث يقول في رئيس كان قريباً من قلبه، بعيداً من رفده طويل:

طريفان في أمر له طرفان

وإني والمولى الذي أنا عبده

كأني يوم العيد من رمضان

بعيداً تراني منه أقرب ما ترى

ومتى شئت أن تتلاشى في هذه المعاني عندك قديمها وحديثها فتدبر ما جاء من هذا الباب في الكتاب العزيز، مثل قوله تعالى: "إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم

الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب" فانظر إلى غرابة هذا التمثيل الذي يتضمن هذا الإفراط في المبالغة مع كونه جارياً على الحق خارجاً مخرج الصدق، إذا اقتصر فيه على ذكر أضعف المخلوقات وأقلها سلباً لما تسلبه، وتعجيز كل من دون الله سبحانه كائناً من كان عن خلق مثله، ثم نزل بهم في التمثيل عن رتبة الخلق إذ هي مما يعجز عن مثلها كل قادر غير الله عز وجل إلى استنقاذ التتر التفه الذي تسلبه الذباب على ضعفها، لأن الظفر بنفسها أيسر من الظفر بما تسلبه، ولم يسمع مثل هذا التمثيل في بابه لأحد قبل نزول القرآن العزيز، ولم يتناوله متناول كما فعل في أكثر المعاني إلى الآن، ولو تتبع ذلك في الكتاب الكريم لوجد لهذا الموضوع أمثال شتى كقول رسول الله صلى الله عليه وسلم "حمى الوطيس" و"مات حتف أنفه" "ولا يلدغ المؤمن من جحر مرتين"، "والسعيد من وعظ بغيره" في أشياء كثيرة مما اخترعه النبي صلى الله عليه وسلم ولم يتبع فيه إلى الآن.

باب حسن الإتيان

وهو أن يأتي المتكلم إلى معنى اخترعه غيره فيحسن إتيانه فيه، بحيث يستحقه بوجه من وجوه الزيادات التي وجب للمتأخر استحقاق معنى المتقدم إما باختصار لفظه، أو قصر وزنه أو عدوبة قافيته وتمكنها، أو تنميطه لنقصه، أو تكميل لتمامه، أو تحليته بحلية من البديع يحسن بمثلها النظم، ويوجب الاستحقاق كقول جاهلي في وصف جمل له طويل:

وعود قليل الذنب عاودت ضربه إذا هاد شوقي من معاهدها ذكر

وقلت له ذلفاء ويحك سببت لك الضرب فاصبر، إن عادتك الصبر

فأحسن ابن المعتز إتيانه في هذا المعنى حيث قال يصف حبله طويل:

وخيل طواها القود حتى كأنها أنابيب سمر من قنا الخط ذبل

صبينا عليها ظالمين سياطنا فطارت بنا أيد سراع وأرجل

فإن ابن المعتز عمد إلى معنى البيتين المتقدمين فعمله في صدر بيته الثاني، وذلك أن حاصل قول الجاهلي في بيته: إن هذا الحمل لا ذنب له. وإنما ضربته مرة بعد أخرى لما هيح لي ذكر معاهد هذه المعشوقة من الشوق، فتوهمت أنه بالضرب يخرج عن حد الاستطاعة، ويأتي من السير بما ليس في الطاقة، وأكد كون هذا العود لا ذنب له بقوله في البيت الثاني:

وقلت له ذلفاء ويحك سببت لك الضرب فاصبر، إن عادتك الصبر

يعني أنك لولا اشتياقي لذلفاء لم تكن محتاجاً إلى الضرب جملة، وأكد هذا التأكيد بكونه شهد له أن عادته الصبر فإن قيل: ظاهر قوله: قليل الذنب يدل على ذنب قليل، ولذلك قال عاودت ضربه أي أنه أذنب فضربه بما ثم لما اشتقت عاودت ضربه، فالضرب الأول، استحقاقاً، والثاني ظلماً. قلت: لو انفرد البيت الأول من الثاني ساغ هذا التأويل حملاً على الظاهر لكنه، مع انضمامه إلى البيت الثاني لا يسوغ، فإنه قال فيه:

وقلت له ذلفاء ويحك سببت لك الضرب

وآلة التعريف في الضرب للجنس، لأن ذلفاء هي التي سببت لك الضرب أولاً وأخراً، فإنك لولاها ما حاج لي من شوقي لمعاهدتها فأذهلني حتى توهمت أن الضرب يخرج بك عن الحد الذي لم تكن محتاجاً إليه، ويدل على صحة ذلك شهادته له بالصبر مطلقاً في كل حال، إذ الألف واللام فيه للجنس أيضاً، وإذا كان صابراً مطلقاً دل صبره على شدة السير ومتابعته يجري ذلك الجري، فلا يقع ضربه إلا ظلماً، وأما قوله: قليل الذنب، فعلى عادة العرب في استعمال هذه اللفظة، وهي تريد مطلق النفي في قولهم: فلان قليل الخير وهم يريدون نفي الخبر عنه كثيره وقليله، وكل هذا حاصل في قول ابن المعتز "صبينا عليها ظالمين سياطنا" فإن قوله: صبينا هو عين قول العرب "عاودت ضربه" وما دل عليه لفظه من كون الضرب كان ظلماً هو عين قول ابن المعتز: ظالمين بلفظ الإيجاز، فحسن البيان في كلام ابن المعتز بخلاف كلام الأول، لأن دلالة اللفظ في كلام ابن المعتز دلالة مطابقة، ودلالة الأول دلالة التزام، ولم يعوز ابن المعتز من معنى الأول إلا التعليل، فإنه ذكر العلة التي لأجلها ضرب جملة ظلماً كما أعوز الأول من معنى ابن المعتز ذكر ثمرة الضرب وفائدته، فإن ابن المعتز لما قال:

صبينا عليها ظالمين سياطنا

قال عقيب ذلك: فطارت، وأدمج في ضمن هذه المبالغة التي هي ثمرة الضرب وصف الخيل بعدوها من موجبات الضرب، وحقق ظلمه لمن أهما لما خرجت من الوحشية إلى الطيرية فقد أحسن ابن المعتز الإتيان غاية الإحسان.

ومن حسن الإتيان أتباع أبي نواس جريراً في قوله "الوافر":

إذا غضبت عليك بنو تميم حسبت الناس كلهم غضاباً

حيث قال ونقل المعنى من الفخر إلى المديح: سريع

ليس لله بمستنكر أن يجمع العالم في واحد

فزاد على جرير زيادات: منها أن جريراً أخرج كلامه مخرج الظن حيث قال: حسبت وإن كانت قد تقع بمعنى العلم خرجت المبالغة إلى حد الغلو، وعيب الكلام بما هو أشد من التقصير. ومنها أن جريراً لم يذكر من العالم سوى نوع الإنسان، وأبو نواس زاد على جرير بما يتضمنه ذكر العالم من الملائكة والجن والأفلاك وكل موجود سوى الله سبحانه، وأخرج كلامه مخرج الإسجال، بثبوت دعواه في هذا الممدوح بتعظيم قدرة الله تعالى على الإتيان بهذا الخارق الذي لا يقدر عليه غيره، واتبع أبا نواس في هذا المعنى الوزير المغربي فقال بسيط

حتى إذا ما أراد الله يسعدني رأيته فرأيت الناس في رجل

فإن الوزير أحسن إتباعه لأبي نواس بما وقع له من الزيادات، منها الإيجاز، فإنه عمل معنى عجز بيت أبي نواس في بعض عجز بيته، فنقله من ثمانية عشر حرفاً إلى أربعة عشر حرفاً، والتعليل في كونه جعل العلة في إسعاده رؤية هذا الممدوح، وجعل ذلك مراد الله سبحانه ليحقق مدحه بتحقيق وقوعه، وإن كان قد قصر عن أبي نواس في كونه اقتصر من العالم على ذكر الناس، كما فعل جرير، فقد جبر ذلك الوهن بما زاد من المبالغة في المدح فإنه جعل ممدوحه ابتداء سعادته ونقص من اللفظ. على أن ذكر الناس في بيتي جرير والوزير ملائم لذكر جرير بني تميم وذكر الوزير لفظة رجل، ولو لم يكن بيت أبي نواس أخصر وزناً من بيت جرير لكادا يتساويان.

ومن أحسن ما سمعت في حسن الإتيان إتباع منصور الفقيه المصري رحمه الله تعالى عنتره في قوله كامل:

إني أمرؤ من خير عبس منصباً شطري، وأحمي سائري بالمنصل

فإن الفقيه قال في شريف سبه وكان شريفاً من جهة أبيه دون أمه "مجثث":

من فاتني بأبيه ولم يفتني بأمه

ورام شتمي ظلماً سكت عن نصف شتمه

فإن هذا الفقيه رحمه الله تعالى أحسن غاية الإحسان من وجوه: أحدها الإيجاز، فإنه عمل معنى عنتره الذي جاء به بيت من تام الكامل، المركب من اثنين وأربعين حرفاً في بيت من المجثث مركب من ستة وعشرين حرفاً.

والمطابقة المعنوية حيث قال بأبيه وأمه، فإنه طابق في ذلك بين الذكر والأنثى.

هذا وبيته الذي أتى فيه على معنى غيره وزاد ما أبديناه من الزيادة بيت توطئه، كبيت وقع فيه من الإغراب والطرفة ما لم يقع في مثله، وهو قوله:

سكت عن نصف شتمه

ومن هذا الباب قول ابن الرومي طويل:

نبال العدا عني فكنتم نصالها
على حين خذلان اليمين شمالها
نماماً فكونوا لا عليها ولا لها
وخلوا نبالي للعدا ونبالها

تخذتكم درعاً حصيناً لتدفعوا
وقد كنت أرجو منكم خير ناصر
فإن أنتم لم تحفظوا لمودتي
قفوا وقفه المعذور عني بمعزل

فاتبعه ابن سنان الخفاجي الحلبي فقال كامل:

عوناً فكنتم عون كل ملمة
نظر العدو مقاتلي من جنتي
نفض الأنامل من تراب الميت

أعدتكم لدفاع كل ملمة
وتخذتكم لي جنة فكأنما
فلأنفضن يدي يأساً منكم

وألطف ما قيل في هذا المعنى قول القائل وافر:

فكانوها ولكن للأعادي
فكانوها ولكن في فؤادي
لقد صدقوا ولكن من ودادي

وإخوان اتخذتهمو دروعاً
وخلتهم سهاماً صائبات
وقالوا قد صفت منا قلوب

وقد تقدمت هذه الأبيات، وإنما أتيت بها ها هنا ليظهر لطفها بالنسبة إلى ما تقدمها في معناها. ومن مליح حسن الإتيان ما وقع بي ابن الرومي وبين أبي حية النميري فيما قاله في زينب أخت الحجاج حيث قال طويل:

به زينب في نسوة عطرات
ويبرزن شطر الليل معتجرات
وإن غبن قطعن الحشا حشرات

تضوع مسكاً بطن نعمان إذ مشت
يخمرن أطراف البنان من التقى
فهن اللواتي إن برزن قتلنني

والبيت الأخير أردت، فإن ابن الرومي اتبعه فيه فقال وأتى بمعنى البيت كاملاً في نصف بيت: كامل:

وقع السهام ونزعهن أليم
وغير السعيد ابن سناء الملك رحمه الله من وجوه قائلتي هذا المعنى قديماً وحديثاً حيث قال طويل:
وإن واصلتني شيبتني بطيبتها

ويلاه إن نظرت وإن هي أعرضت
إذا هجرتني شيبتني بهجرها

ومن محاسن هذا الباب أيضاً إتيان المعري أبا عبادة البحريري في قوله كامل:

أخجلتني بندقى يدك فسودت
صلة غدت في الناس وهي قطيعة
ما بيننا تلك اليد البيضاء
عجب وبر راح وهو جفاء

فقال المعري بسيط

لو اختصرتم من الإحسان زرتكم
والعذب يهجر للإفراط في الخصر

لأنه استوعب معنى البيتين في صدر بيته، وأخرج العجز مخرج المثل السائر الصحيح، وعوض عما فاتته من بديع الألفاظ مثل المطابقة المقابلة بالتجنيس والتمثيل، ففي بيت أبي عابدة من الإغراب والطفرة معنى لم يفت أبا العلاء، فإن كون الصلة بعينها قطيعة، والبر بنفسه جفاء، من الغريب الطريف، ولا حرم أنه أتى بذكر التعجب من ذلك، وكذلك طلب الاختصار من الإنسان، وجعل ما هو من أقوى أسباب الزيادة سبباً في قطع الزيادة من الغريب الطريف أيضاً، وإذا نظرت إلى ما في بيت المعري من كونه يسد في التمثيل به مسد البيتين مع إيضاح معناه وما فيه من حسن البيان، وكون ما فيه من التجنيس والتصدير ليكون صلة بين المعنى والزيادة، وأساساً لقافيته المستجادة، ثبت الفضل لبيت المعري.

ولقد أحسن البحترى في إتباع الحزين الكناي في قوله بسيط

يغضي حياء ويغضي من مهابته
فما يكلم إلا حين يبتسم

فإن البحترى قال بسيط

إن أطرق استوحشت للخوف أفئدة
ويملاً الأرض من أنس إذا ابتسما

ومن حسن الإتيان أتباع ابن المعتز بشار في قول بشار طويل:

كأن مثار النقع فوق رؤوسنا
وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

فإن ابن المعتز قال: طويل:

إذا شئت أوقرت البلاد حوافرا
وسارت ورائي هاشم ونزار

وعم السماء النقع حتى كأنه
دخان وأطراف الرماح شرار

فإن بشاراً قال فوق رؤوسنا والليل لا يخص رؤوسهم لعموم ظلمته الآفاق، وابن المعتز تخلص من هذا الدخل بقوله: وعم السماء النقع دليل على كثرة الجيش وانتشاره، ولذلك قال في بيت التوطئة: أوقرت البلاد حوافراً، وكان مثل هذا لائقاً به لمكانه من الملك.

ومن حسن الإتيان إتباعي ابن الرومي في قوله بسيط

سد السداد فمى عما يريبيكم
لكن فم الحال مني غير مسدود

فإني اتبعته في هذا المعنى فقلت كامل:

هبني سكت أما لسان ضرورتي أهجى لكل مقصر عن منطقي

فإن بيت ابن الرومي وقع فيه من المحاسن أربعة عشر ضرباً، وهي التجنيس في قوله سد السداد، والتفسير في قوله عما يرييكم، والاستدراك في قوله: لكن وما بعدها، والاستعارة في قوله: فم الحال، والتصدير فيما بين القافية وأول البيت، والتمثيل، فإن البيت خرج مخرج المثل، والمساواة، لأن لفظ البيت طبق معناه، والاتلاف، لأن كل لفظة من مفردات ألفاظه لا يصلح مكانها غيرها، والإرداف في قوله: لكن فم الحال، العجز كله: فإنه أراد أن يقول: سوء حالي ينطق بدمكم، فعبر عن المعنى بلفظ هو ردفه حيث قال:

لكن فم الحال مني غير مسدود

فراراً من التصريح بالذم والافتنان لأنه أشار إلى فن الفخر بوصف نفسه بالسداد، والبيت من فن العتاب، والتعليق لأن فن الفخر متعلق بفن العتاب، والإدماج لأن الإشارة فيه مندججة في التفسير في قوله: عما يرييكم، لأن كل ما يريب لو عدد بلفظه الموضوع له لاحتاج إلى ألفاظ كثيرة، والتعطف في ذكر الفم في صدر البيت مع ذكره في عجزه، والتهذيب لمجيء جملة صدره على ترتيب الوضع اللغوي البليغ، من تقديم الفعل على الفاعل، وتقديم الفاعل على المفعول، وتقديم المفعول الذي تعدى الفعل بنفسه إليه على الفعل الذي تعدى إليه بالحرف، وكذلك رتب العجز من تقديم حرف الاستدراك على الجملة الابتدائية، وتقديم المبتدأ على الخبر.

واتفق في بيتي سبعة عشر ضرباً من البديع، وهي المطابقة في السكوت النطق، واستعارة اللسان للضرورة، والمبالغة في قولي: أهجى والتكميل في قولي: لكل مقصر، والتفسير في قولي: من منطقي، والتمكين من أجل أن القافية مستقرة في مكانها، والمساواة في كون لفظ البيت طبق معناه، والاتلاف في أن كل لفظة لا يقوم غيرها مقامها، والإيجاز في تفاصيل البيت وجملته بالنسبة إلى البيت الذي قبله، فإن قولي هبني سكت أوجز من قول ابن الرومي: سد السداد فمي، لأن ملخص كلامي سكت، وملخص كلامه: سد فمي. وقولي: لسان ضرورتي، أوجز من قوله فم الحال مني، وقولي: أهجى، أوجز من قوله غير مسدود، فهذا إيجاز تفاصيل البيت، وأما إيجاز جملته فالأن حروف بيتي اثنان وأربعون حرفاً، وبيت ابن الرومي خمسة وأربعون حرفاً، مع أنهما قد استويا في عدة المتحركات، إذ كل بيت منهما سبعة وعشرون متحركاً والانسجام بالنسبة، لأن بيتي جاء عرياً عن الكلفة بخلاف بيته، والإيضاح لأن المعنى المراد في ألفاظ بيتي أشد وضوحاً من معناه، فإن بيتي لا يفتقر في دلالاته على معناه لشيء مقدر بخلاف بيته، ومفردات ألفاظي أشد وضوحاً لمعانيها من مفردات بيته، لأن قولي: أهجى، أدل على معنى الهجاء بظاهره من قوله: عما

يريبكم، وكلا البيتين المراد به التهديد بصريح الهجاء نطقاً دون هيئة، وفي قولي هبني سكت، إشارة إلى أي لا أسكت، ثم قلت على حكم التثنية الجدلي: وهبني سكت أسكت لسان ضروري؟ وفي قول ابن الرومي:

سد السداد فمى عما يريبكم

إسجال على نفسه بالسكوت عن هجوهم، وهذا غير مراده الذي أراده من التهديد، وإذا وضح معنى الكلام هذا الوضوح في لفظ قد انتخبت مفرداته وحسن تركيبه وسهل فهمه، كان موصوفاً بحسن البيان دون غيره، ومنعوتاً بالتهذيب دون سواه، وإذا استوى البيتان في المعنى وكان أحدهما أخصر وزناً وأبلغ معنى وكانت محاسنه أكثر، وعرى مما وقع في أخيه من العيوب، كان قائل موصوفاً بحسن الإتيان، وبيتي كذلك، لا سيما وقد وقع فيه مع هذا الإبداع، وهو تضمن كل لفظة بديعاً أو بديعين، مثل تضمن هبني سكت، الترشيح للاستعارة التي في لسان ضروري، وفيها بعدها الضرب الجدلي الذي سماه أهل الصناعة المذهب الكلامي، وفي الضرب تفسير وتمكين، وفي جملة البيت ما تقدم، فحصل في البيت سبعة عشر ضرباً من البديع قد تقدم ذكرها مفصلة، وسياقها جملة: المطابقة، المذهب الكلامي، الترشيح، الاستعارة، المبالغة، التكميل، التفسير، التمكين، المساواة، الائتلاف، الإيجاز، الإيضاح، حسن البيان، الإبداع، التهذيب، الانسجام، حسن الإتيان، ففضل بيتي بيت ابن الرومي بثلاثة أضرب من البديع، وخلوه من العيب الذي بسببه امتنع به أن يوصف بالانسجام. ومن حسن الإتيان إتباع الأخطل النابعة الذياني في قوله طويل:

وإن خلت أن المنتأى عنك واسع

فإنك كالليل الذي هو مدركي

فقال طويل:

لكالدهر لا عار بما صنع الدهر

وإن أمير المؤمنين وفعله

فهذا من الإتيان الذي ليس بحسن، وإنما ذكرته في هذا الباب لأذكر بعده الإتيان الحسن فيبين فضله:

والضد يظهر حسنه الضد

ومنه قول علي بن جبلة طويل:

ولو رفعت في السماء المطالع

وما لامرئ حاولته منك مهرب

ظلام ولا ضوء من الصبح ساطع

بلى هارب لا يهندي لمكانه

فإني رأيت أكثر العلماء رجحوا هذا البيت على بيت النابغة، وفي الشعرين عندي بحث يضيق عنه هذا المكان، ومثل هذا المعنى قول سلم الخاسر بسيط

فأنت كالدهر مبتوتاً حباته
والدهر لا ملجأ منه ولا هرب
ولو ملكت عنان الريح أصرفها
في كل ناحية ما فاتك الطلب
وتناوله البحثري فقال: كامل:

ولو أنهم ركبوا الكواكب لم يكن
ينجيهم من خوف بأسك مهرب
وكل هذه المعاني متلاشية في جنب قول الله تعالى: "يا معشر الجن الإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان" وقد جاء من ذلك في السنة النبوية قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "نصرت بالرعب، وجعل رزقي تحت ظل رمحي، وليدخلن هذا الدين على ما دخل عليه الليل".
ومن حسن الإتيان إتيان نصيب الأعشى في قول الأعشى طويل:

وإن عتاق العيس سوف تزوركم
ثناء على أعجازهن معلق
فقال نصيب طويل:

فعاجوا فأثتوا بالذي أنت أهله
ولو سكتوا أثتت عليك الحقائق
ومنه ابتاع أبي تمام عنتره في قول عنتره كامل:
فازور من وقع القنا بلبانه
وشكا إلي بعبرة وتححم
فقال: أعني أبا تمام بسيط

لو يعلم الركن من قد جاء يلثمه
لخر يلثم منه موطن القدم
واتبعه البحثري فقال كامل:

ولو أن مشتاقاً تكلف فوق ما
في وسعه لسعى إليك المنبر
واتبعه المتنبى فقال: كامل:

لو تعقل الشجر التي قابلتها
مدت محيبة إليك الأغصنا
وكل هذا من قوله تعالى: "يوم نقول لجهنم هل امتلأت" الآية، وقوله سبحانه: "إذا رأيتم من مكان بعيد سمعوا لها" الآية وقوله عز وجل: "تكاد تميز من الغيظ"، والله أعلم.

باب حسن البيان

حسن البيان عبارة عن الإبانة عما في النفس بألفاظ سهلة بليغة بعيدة من اللبس، كما قال الشاعر خفيف:

خطباء على المنابر فرسا
ن على الخيل قالة غير خرس
لا يعابون صامتين وإن فا
هوا أبانوا ولم يفوهوا بلبس

والبيت الثاني أردت.

وهو أعني حسن البيان إما بالأسماء والصفات المنفردة وإما بمما مؤتلفة، ودلالة الأول متناهية، ودلالة الثاني غير متناهية، فإن قائلاً لو قال: قد انتهى تأليف الشعر بحيث لا يمكن أن يؤتى بقصيدة إلا وقد قيلت من قبل، كان قوله محالاً، إلا أن تقول: أردت الوزن والتقفية لا غير، وأما جملة القصيد ومجموع صورهما فلا، لأن دلالة التأليف غير متناهية، كما أن الأعداد الممكنة ليس لها نهاية، غير أن البيان فيه الأقيح والأحسن، والوسائط بين هذين الطرفين، فالأقيح كبيان باقل وقد سئل عن ثمن ظي كان معه، فأراد أن يقول: أحد عشر، فأدركه العي، حتى فرق أصابع يديه وأدلع لسانه، فأفلت الظي، وهذا أقيح بيان، مع أن قد بالغ في الإفهام، لكونه أخرج تعريف العدد من السماع إلى العيان، ومن هاهنا يعلم أنه ليس كل إيجاز بلاغة، ولا كل إطالة عيب، فإنه لا إيجاز في الإفهام أوجز من بيان باقل، لأن المخاطب فهم عنه بمجرد نظرة واحدة، ومع ذلك ضرب به المثل في العي بهذا البيان، والأحسن أن يقول: أحد عشر، والوسائط أن يقول مثلاً: ستة وخمسة، أو عشرة وواحد، أو خمسة وخمسة وواحد، والوسائط تعلق وتسفل بحسب قربها من البلاغة وبعدها بالنسب والإضافات، وبيان الكتاب العزيز وكل كلام بليغ فصيح من الأحسن دون الأقيح ودون الوسائط، لكن الأحسن أيضاً تتفاوت طبقاته كالوسائط، فمنه الأعلى والأدنى والأوسط بالنسبة، وحقيقة حسن البيان إخراج المعنى المراد في أحسن الصور الموضحة له، وإيصاله لفهم المخاطب بأقرب الطرق وأسهلها، لأنه عين البلاغة، وقد تكون العبارة عنه تارة من طريق الإيجاز، وطوراً من طريق الإطناب كثرة العبارة بسبب كثرة المعاني، والإسهاب كثرة العبارة عن المعنى الواحد، والمعاني القليلة، والأول بعينه هو حد البلاغة وحقيقتها، وبه جاء كل بيان القرآن، كقول الله تعالى وقد أراد أن يحذر من الاغترار بالنعم "كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين" وكقوله تعالى وقد أراد أن يبين عن الوعد "إن المتقين في مقام أمين" الآية، وكقوله عز وجل وقد أراد أن يبين عن الوعيد "إن يوم الفصل ميقاتهم أجمعين" وكقوله في الاحتجاج القاطع للنخصم: "وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم، قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم" وكقوله تبارك وتعالى وقد

أراد أن يبين عن تقرير الكفار: "أفضرِب عنكم الذكر صفحاً أن كنتم قوماً مسرفين" وكقوله تعالى وقد أراد أن يبين عن التحير: "ولن ينفَعكم اليوم إذ ظلمتم أنكم في العذاب مشتركون" وكقوله تعالى وقد أراد أن يبين عن العدل: "ولو ردوا لعادوا لما نهو عنه" وأمثال هذه المواضع كثيرة لمن يتبعها. ومما جاء من ذلك في الشعر قول أبي العتاهية منسرح:

حرك موسى القضيْب أو فكر

يضطرب الخوف والرجاء إذا

وكقول الآخر طويل:

إذا كرها فيها عقاب ونائل

له لحظات عن خفاي سريره

فإن هذين الشاعرين أرادوا مدح هذين المدوحين بالخلافة، ووصفهما بالقدرة المطلقة وعظم المهابة بعد الله سبحانه، فإذا نظر أحدهما نظرة، أو حرك القضيْب مرة، أو أطرق مفكراً لحظة، اضطرب الخوف والرجاء في قلوب الناس، فأبانا عن هذه المعاني أحسن إبانة بخلاف قولي طويل:

فنعْمى لذي حسني وبؤسي لمجرم

بكفيه نفع العالمين وضرهم

فإني أردت الإبانة عن معنى أبي العتاهية والذي بعده، فأبنت عنه بياناً غير حسن ولا قبيح، ولم يكن في قوتي الإبانة عن المعنى بأحسن بيان كما فعلاً، فإن بيّتي يصلح أن يكون في شواهد الوسائط في هذا الباب، وإن كان أبو العتاهية والذي بعده ألماً في معناهما بالخرين الكناني حيث يقول في عبد الله بن عبد الملك بن مروان، وقد وفد عليه وهو عامل مصر لأبيه بسيط

وقد تعرضت الحجاب والخدم

لما وقفت عليه في الجموع ضحى

وضجة الناس عند الباب تزدهم

حييته بسلام وهو مرتفق

من كف أروع في عرنيته شمم

في كفه خيزران ريحها عبق

فما يكلم إلا حين يبتسم

يغضى حياء ويغضى من مهابته

والبيت الأخير أردت.

والفرق بين ما سميت في بيت أبي العتاهية والذي بعده حسن بيان وبين الإشارة، أن الإشارة لا تكون بلفظ الحقيقة، وحس البيان يكون بلفظ الحقيقة وبغيره، فما كان منه بلفظ الحقيقة فهو من البيان الأحسن، وما كان بغير لفظ الحقيقة فهو من البيان الحسن، ولا بد أن يكون لفظه أقرب إلى لفظ الحقيقة من لفظ الإشارة، كما أن لفظ الإشارة أقرب إلى لفظ المعنى من لفظ الإرداف، ولفظ الإرداف أقرب من لفظ التمثيل، ألا ترى أن لحظات الناظر تدل على الغضب والرضا أسرع ما يدل قيد الأوابد على سرعة عدو

الفرس، والإنسان يجد الفهم يسرع إلى مدلول اللحظات أقرب من سرعته إلى مدلول قيد الأوابد والفرق أيضاً بين حسن البيان والإيضاح، أن الإيضاح يكون بالعبارة الفاضلة والعبارة النازلة، وحسن البيان لا يكون إلا بالعبارة الفاضلة، والله أعلم.

باب التوليد

التوليد على ضربين: من الألفاظ ومن المعاني، فالذي من الألفاظ على ضربين أيضاً، توليد المتكلم من لفظه ولفظ غيره، وتوليد من لفظ نفسه، والأول هو أن يزوج المتكلم كلمة من لفظه إلى كلمة من غيره، فيتولد بينهما كلام ينقض غرض صاحب الكلمة الأجنبية، وذلك في الألفاظ المفردة دون الجمل المؤتلفة.

مثاله ما حكى أن مصعب بن الزبير وسم خيله بلفظة عدة فلما قتل وصار إلى العراق رآها الحجاج فوسم بعد لفظة عدة لفظة الفرار فتولد بين اللفظتين غير ما أراده مصعب. ومن لطيف التوليد قول بعض العجم، وهو توليد المتكلم ما يريد من لفظ نفسه وافر:

ومبسمه الشبي العذب صاد

كأن عذاره في الخد لام

فلا عجب إذا سرق الرقاد

وطرة شعره ليل بهيم

فإن هذا الشاعر ولد من تشبيه العذار باللام، وتشبيه الفم بالصاد لفظة لص، وولد من معناها ومعنى تشبيه الطرة بالليل ذكر سرقة النوم، فحصل في البيت توليد وإغراب وإدماج، وهذا من أغرب ما سمعت في ذلك، وهو الثاني من التوليد اللفظي.

ومن توليد الألفاظ توليد المعنى من تزويج الجمل المفيدة.

ومثاله ما حكى أن أبا تمام أنشد أبا دلف:

على مثلها من أبع وملاعب

فقال: من أراد نكتة فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، فولد بين الكلامين كلاماً ينافي غرض أبي تمام من وجهين: أحدهما خروج الكلام من النسيب إلى المهجاء بسبب ما انضم إليه من الدعاء، والثاني خروج الكلام من أن يكون بيتاً من شعر إلى أن صار قطعة من نثر. ومن هذا الضرب قول الشاعر طويل:

وفي قوله أي الرجال المهذب

ألوم زيادا في ركافة عقله

أرق من الماء الزلال وأطيب

وهل يحسن التهذيب منك خلائقا

وكل مليك عند نعماك كوكب

تكلم والنعمان شمس سمائه

لأبصر منه شمسه وهو غيب

ولو أبصرت عيناه شخصك مرة

فإن هذا الشاعر زوج مدحة ممدوحه بتهذيب الأخلاق إلى قول النابغة أي الرجال المهذب فتولد بين الكلام ما ينافي غرض النابغة، حيث أخرج الشاعر كلامه مخرج المنكر على النابغة ذلك الاستفهام، وأوضح مناقضته للنابغة في بيته الثاني، وهو قوله: وهل يحسن التهذيب، البيت، وزوج قوله في عجز البيت الثالث:

وكل مليك عند نعماك كوكب

إلى قول النابغة:

فإنك شمس والملوك كواكب

بدليل قول الشاعر عن النابغة:

تكلم والنعمان شمس سمائه

البيت، فتولد بين الكلامين قوله طويل:

لأبصر منه شمسه وهو غيب

ولو أبصرت عيناه شخصك مرة

فهذا الضرب الأول من التوليد بأقسامه، وهو ما تولد من اللفظ.

وأما الضرب الثاني منه، وهو ما تولد من المعاني، كقول القطامي بسيط

وقد يكون مع المستعجل الزلل

قد يدرك المتأني بعض حاجته

فقال من بعده بسيط

إن التخلق يأتي دونه الخلق

عليك بالقصد فيما أنت فاعله

فمعنى صدر هذا البيت معنى بيت القطامي بكماله، ومعنى عجز البيت مولد بينهما، وهو قوله:

إن التخلق يأتي دونه الخلق

والقطامي أخذ معناه من عدي بن زيد العبادي حيث قال سريع:

والخير قد يسبق جهد الحريص

قد يدرك المبطل من حظه

وعدي نظر إلى قول جمانة الجعفي طويل:

لم يدر في استعجاله ما يبادر

ومستعجل والمكث أدنى لرشده

ومن التوليد توليد بديع من بديع كقول أبي تمام طويل:

له منظر قيد النواظر لم يزل يروح ويغدو في خفارته الحب

فإنه ولد قوله: قيد النواظر من قول امرئ القيس: "قيد الأوابد" لأن هذه اللفظة التي هي قيد انتقلت بإضافتها من الطرد إلى النسيب، فكأن النسيب تولد من الطرد، وتناول اللفظة المفردة لا يعد سرقة كتناول هذه اللفظة.

ومن التوليد نوع آخر وهو توليد المعاني، والذي مضى توليد الألفاظ، وهو أن يزوج المتكلم معنى من معاني البديع. بمعنى فيه، فيتولد بينهما فن مدمج في فن كقولي طويل:

شفيعي عند الغيد مسود وفرتي إذا ما غدا غيري وشافعه الوفر

فإني لما زوجت التجنيس بالمبالغة تولد بينهما تفضيل الشباب على المال، فالتجنيس قولي: وفرتي والوفر والمبالغة تسميتي الشباب شفيعاً والوفر شافعاً، وفعل من أبنية المبالغة بخلاف فاعل، وتفضيل الشباب جاء مدحاً في الغزل، لأن البيت بمعناه الذي قصد التغزل، وهذا توليد كما ترى، ولا يقع في الكتاب العزيز من التوليد إلا توليد المعاني البديعية، ومن ذلك ما وقع في قوله تعالى: "قل رب احكم بالحق" فإني استخرجت من هذه الآية أربعة عشر نوعاً من البديع أمهاتها خمس، وهي: الأرداف والتتيمم والائتلاف والتهديب، وتولد من هذه الأمهات تسعة أضرب، وهي الإيضاح والإدماج والافتنان وحسن البيان والمقارنة والامتزاج والإيجاز والإبداع، والمثل السائر، وشرح ذلك يضيق عنه هذا المكان، وقد أفردته في صحيفة على انفراده، والله أعلم.

باب التنكيت

وهو أن يقصد المتكلم إلى شيء بالذكر دون أشياء كلها يسد مسده، لولا نكتة في ذلك الشيء المقصود ترجح اختصاصه بالذكر دون ما يسد مسده، ولولا تلك النكتة التي انفرد بها لكان القصد إليه دون غيره خطأ ظاهراً عند أهل النقد.

ومما جاء من ذلك في الكتاب العزيز قوله سبحانه: "وأنه هو رب الشعري" فإنه سبحانه وتعالى خص الشعري بالذكر دون غيرها من النجوم، وهو رب كل شيء، لأن العرب كان قد ظهر فيهم رجل يعرف بابن أبي كبشة عبد الشعري، ودعا خلقاً إلى عبادتها، فأنزل الله سبحانه: "وأنه هو رب الشعري" التي ادعت فيها الربوبية دون سائر النجوم. وكقوله تعالى: "وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون

تسييحهم" فإنه سبحانه إنما خص "تفقهون" دون "تعلمون" لما في الفقه من الزيادة على العلم، والمراد الذي يقتضيه معنى هذا الكلام والتفقه في معرفة كنه التسييح من الحيوان البهيم والنبات والجماد الذي تسييحه بمجرد وجوده الدال على قدرة موجدته ومخترعه .
ومن غريب التنكيت قوله تعالى: "والله خلق كل دابة من ماء" فإنه يقال: لم اقتصر على ذكر الماء دون بقية العناصر التي يكون الله سبحانه المولدات الثلاث منها؟، فيقال: النكتة التي رجحت الاقتصار على الماء دون بقية العناصر قوله "كل دابة" بلفظ الاستغراق لكل ما دب، وليس في العناصر الأربعة ما يعم جميع مخلوقات إلا الماء، ليدخل الحيوان البحري فيها.
من أمثلة هذا الباب الشعرية قول الخنساء وافر:

يذكرني طلوع الشمس صخراً وأذكره لكل غروب شمس

فخصت هذين الوقتين وإن كانت تذكره في كل وقت، لما في هذين الوقتين من النكتة المتضمنة تأيين الميت، والمبالغة في وصفه بالشجاعة والكرم، لأن طلوع الشمس وقت الغارات على العدى، ووقت غروبها وقت وقود النيران للقرى.
ومن أمثلة الباب أيضاً قول المتنبي كامل:

لو مر يركض في سطور كتابه أحصى بحافر مهرة ميماتها

فإنه إنما خص الميمات دون غيرها من الحروف، لكونها تشبه الحوافر من جهة استدارتها، فإن قيل: إن كان أراد تشبيه الحوافر فالعدول إلى العينات أولى، لأنها بالحوافر أشبه، ولا سيما عنده، حيث شبه الحافر بالعين، في قوله لسيف الدولة منسرح:

أول حرف من اسمه كتبت سنايك الخيل في الجلاميد

قلت: يترجح ذكر الميمات دون العينات لوجهين: أحدهما أن الميمات في الكلام أكثر من العينات، لأنها تقع أصلاً وزائدة، والعينات لا تقع إلا أصلية، والثاني أنها أصغر شكلاً، واختصاص ما هو أصغر وأكثر في باب الإحصاء أمدح للموصوف بالإحصاء من ذكر ما هو أقل وأكبر وإنما مدحه بالإحصاء في حالة الركض، لأن الإحصاء يدل على ثبات الجأش وحضور الحس وعدم الدهش والطيش في وقت الركض.
ومن دقيق ما وقع في البيت من ملاءمة الألفاظ بعضها لبعض الدالة على الائتلاف قوله: مهرة ولم يقل طرفه لكونه الطرف يقع على المهرة، وعلى القارح فيتخلص من الاشتراك الموجب عدم الملاءمة لأن صغر حافر المهرة ملائم لصغر شكل الميم، فحصل في البيت إدماج الائتلاف في المبالغة وتعليق المدح بالنبات

بالوصف، وهذا من أطف ما وقع في هذا الباب.

ومن بديع أمثلة هذا الباب قول عنتره، وهو مما يسأل عنه كامل:

وسط الديار تسف حب الخمخ

ما راعني إلا حمولة أهلها

سوداً كخافية الغراب الأسحم

فيها اثنتان وأربعون حلوبة

فإن لفظة الحمولة تدل على الرحيل، وكذلك كونها وسط الديار وعلوقتها هذا الحب المخصوص يدل على بعد الرحلة، فإنه حب يقوي أعصاب الإبل، وهذا العدد من الحلوبات السود الصقيلة الحسان يدل على كثرة المال وانتخابه، وكذلك لا يكون إلا للملوك، فهو يدل على أن المعشوقة من بنات الملوك، وفي ذلك فخر لمن يميل إليها، والله أعلم.

باب الاتفاق

وهو أن تتفق للشاعر واقعة تعلمه العمل في نفسه، فإن للسبق إلى معاني الوقائع التي يشترك الناس في مشاهدتها أو سماعها فضلاً لا يجحد، كما اتفق لبعض شعراء مصر، ويقال إنه الرضى بن أبي حصينة، وقد أغزى الملك الناصر صلاح الدين حاجبه حسام الدين لؤلؤ الإفرنج الذين قصدوا الحجاز من بحر القلزم، فظفر الحاجب بهم، فقال ابن أبي حصينة في تهنته مخاطباً للإفرنج بسيط

والدر في البحر لا يخشى من الغير

عدوكم لؤلؤ والبحر مسكنه

ثم قال بعد أبيات مخاطباً للملك الناصر رحمه الله بسيط

فالدر مذ كان منسوب إلى البحر

فأمر حسامك أن يحظى بنحرهم

وكما قال ابن الساعاتي وقد قصد الملك الناصر رحمه الله بيت يعقوب من حصون الشام فقال مخاطباً الإفرنج طويل:

دعوا بيت يعقوب فقد جاء يوسف

وكما اتفق لي وقد لقي الملك الأشرف موسى بن أبي بكر بن أيوب بن عمه الملك الظافر الخضر بن يوسف بن أيوب رحمه الله تعالى بملتقى الخابور والفرات، فاتفق لي أن قلت طويل:

ألم تر موسى فيه قد لقي الخضرا

غدا مجمع البحرين شاطئ فراتنا

وكما قلت عند اجتماع الملك الأشرف هذا بأخيه الملك الكامل رحمه الله تعالى بمصر من قصيدة أهنئ فيها مصر بذلك مخبراً عنها طويل:

أهل ليلة الإسراء عاد بها الدهر؟!

تقول وموسى قد أتى لمحمد

وكقولي من قطعة هنأت بما فخر الدين عثمان بن قزل رحمه الله تعالى بمولودين جاءه في ليلة واحدة
"مجثت":

ن زينا الخافقين

ليهن عليك بدرا

عثمان ذا النورين

الآن صرت يقينا

ومن الاتفاق أن يتفق للشاعر أسماء لممدوحه ولآبائه يمكنه أن يستخرج منها مدحاً لذلك الممدوح، ولو لم تتفق تلك الأسماء على ما هي عليه لما اتفق استخراج ذلك المدح، كقول أبي نواس كامل:

والفضل فضل والربيع ربيع

عباس عباس إذا احتدم الوغى

وقد وقع في هذا البيت مع لطيف الاتفاق مליح الازدواج في قوله:

والربيع ربيع ولأبي نواس

عباس عباس، والفضل فضل

من القسم الأول من الاتفاق ما لم يتفق مثله في مرثية يرثى بها خلفاً الأحمر منسرح:

وليس إذ بان منه من خلف

وكان ممن مضى لنا خلفاً

فإنه اتفق له من اسم المرثي تورية حسنت موقع هذا البيت إلى أن أتى في الطبقة العليا والغاية القصوى.

باب النوادر

وهو الذي سماه قدامة قديماً الإغراب والطفرة، ولم يفرد له باباً في المحاسن فاذكره في أبوابه، وسماه من بعده التطريف، وسماه قوم النوادر، وقوم أبقوا عليه تسمية قدامة، وأفردوه باباً، فتبعتهم في ذلك، وأتيت به، وهو آخر أبواب من تقدمني من جميع الناس في غالب ظني وهو أن يأتي الشاعر بمعنى غريب لقلته في كلام الناس وليس من شرطه على رأي قدامة فيه غير ذلك وقال: لا يكون في المعنى إغراب إلا إذا لم يسمع مثله، والاشتقاق يعضد التفسير الثاني، والشواهد تعضد تفسير قدامة، لأن شواهد الباب وقع فيها ما يجوز أن يكون قائله لم يسبق إليه، وما يجوز أن يكون قد سبق إليه على قلته، واستدل قدامة على مراده بقول الناس: ورد طريف غريب، إذا جاء في غير وقته، أما كونه لم يرقط فهذا محال، وإنما المراد لم يوجد مثله في ذلك الزمان.

ومن أمثله للأوائل مدح زهير للفقراء والأغنياء معاً فإنه غريب، إذ العادة جارية بمدح الأغنياء غالباً، لأنه يقال: ما سمع قط مدح فقير حتى قال طويل:

وعند المقلين السماحة والبذل

على مكثريهم حق من يعتريهم

ومن الغريب الطريف قول أبي تمام كامل:

مثلاً شروداً في الندى والباس

لا تنكروا ضربي له من دونه

مثلاً من المشكاة والنبراس

فإنه قد ضرب الأقل لنوره

ومن الغريب الطريف أيضاً قول دريد طويل:

على أنه قد سل من ماجد محض

ولم أدر من ألقى عليه رداءه

فإنه ما سمع من مدح من لا يعرفه قبله، وتبعه أبو نواس في ذلك فقال في القطعة التي أولها طويل:

بها أثر منهم جديد ودارس

ودار ندامى عطلوها وأدلجوا

وأضغاث ريحان جنبي ويابس

مساحب من جر الزقاق على الثرى

وإني على أمثال تلك لحابس

حبست بها صحبي فجددت عهدهم

بشرقي ساباط الديار البساس

ولم أدر منهم غير ما شهدت به

ومن الإغراب اللطيف قول القائل كامل:

وتقوضت خيم الشباب فقوضوا

عرض المشيب بعارضيه فأعرضوا

خفراً وفي الصبح المنير تقبضوا

إن كان في الليل البهيم تبسطوا

بيتا غراب البين فيه أبيض

ولقد سمعت وما سمعت بمتلها

ومن لطيف الإغراب وطريفه قول بعضهم "البيسط":

بأن أراك وقد كنا على حذر

ظلت تبشرني عيني إذا اختلجت

إني ببشرائك لي من أسعد البشر

فقلت للعين أما كنت صادقة

بلى جزاؤك أن أحبوك بالنظر

فما جزاؤك عندي لست أعرفه

عن أن تراك كما لم تأت بالخبر

وأستر المقلة الأخرى فأحجبها

ومن الإغراب قسم آخر، وهو أن يعمد الشاعر إلى معنى متداول معروف ليس بغريب في بابهِ فيغرب فيه بزيادة لم تقع لغيره، ليصير بها ذلك المعنى المعروف غريباً طريفاً، وينفرد به دون كل من نطق بذلك المعنى، وبيان ذلك أن تشبيه الحسان بالشمس والبدر متداول معروف، فلما أراد أبو تمام ارتكاب هذا المعنى، وفتن إلى أنه قد ذهب طلاوته لكثرة ابتداله تحيل له في زيادة طريفة لم تقع لغيره يصير بها المعنى غريباً بعد أن كان معروفاً، فقال طويل:

بشمس لهم من جانب الخدر تطلع

فرددت علينا الشمس والليل راغم

فوالله ما أدري أحلام نائم ألمت بنا أم كان في الركب يوشع

فإن حاصل كلامه تشبيه المرأة الموصوفة بالشمس، لكن التشكيك الذي أدخله في كلامه وذكر يوشع بعد إغرابه في التوطئة بإخباره بان هذه المرأة ردت بما الشمس برغم الليل، نقل المعنى من المعرفة إلى الغرابة، فلا حزم أنه استحقه بذلك دون كل من تناوله، ودون المبتدئ به ومن هذا القسم قول المتنبى بسيط

يطمع الطير فيهم طول أكلهم حتى تكاد على أحيائهم تقع

فإنه عمد إلى المعنى المعروف في هذا الفن من كون الطير تقع على القتلى وتتبع الجيوش ثقة بالشعب، فتجاوز زيادة المبالغة المستحسنة إلى ما قال، والذي حسن البيت جداً إتيانه فيه بلفظة "تكاد" فإنها قلبت المستحيل ممكناً، فساغت المبالغة، وحصل له ما أراد من الإغراب والطرفة. ومن الإغراب أيضاً قول ابن شرف القيرواني كامل:

غيري جنى وأنا المعاقب فيكم فكأنني سبابة المتندم

لو لم يبغضه عنده ابن رشيق حين أنشده إياه وقال: هل سمعت بهذا المعنى؟ فقال: سمعته وأخذته أنت أفسدته، فقال: ممن؟ فقال: من النابغة الذبياني حيث قال: طويل

وكلفتني ذنب امرئ وتركته كذى العرى يكوي غيره وهو راتع

فأما إفساده فلأنك قلت في صدر بيتك إنك عوقبت بجنابة غيرك، ولم تعاقب صاحب الجنابة. ثم قلت في عجز بيتك: إن صاحب الجنابة قد شركك في العقوبة: فناقض معنك، وذلك أنك شبهت نفسك بسبابة المتندم، وسبابة المتندم أول شيء يتألم في المتندم، ثم يشركها المتندم في الألم فإنه متى تألم عضو من الحيوان تألم كله لأن المدرك من كل مدرك حقيقته، وحقيقته على المذهب الصحيح هي جملته المشاهدة منه، والمكوى من الإبل: يألم وما به عر البتة، وصاحب العر لا يألم جملة، فمن هاهنا أخذت المعنى وأفسدته، غير أن ابن شرف هذا له في هذا الباب ما لا يلحق، وهو قوله "رمل":

قلم قلم أظفار العدا وهو كالإصبع مقصوص الظفر

أشبه الحية حتى أنه كلما عمر في الأيدي قصر

والبيت الثاني أردت، وأما الأول فهو من باب الإغراب في البرد لأنه لا نكاية للعدى في تقليم أظفارهم، بل ذلك مما يحسن صورهم، ويزداد به نشاطهم، ويماط به الأذى عنهم عند تناول الطعام والشراب، وتقبل بذلك النفوس عليهم، ولا يقال: إنه أراد بالأظفار السلاح، فإن ذلك من الغيب الذي لا يعلم، إذ ليس في الكلام ما يشعر بهذه الاستعارة ومما يفسد هذا التأويل قوله: كالإصبع، فإنه ذكر الإصبع، والمراد به ظاهر اللفظ فإنه يدل على أن الظفر على ظاهره إلا أن يتأول الإصبع، وأما تشبيه القلم بالإصبع فهو

تشبيه يسلبه جميع المنافع والمضار، فإن الإصبع الواحدة على انفرادها قلما تعمل عملاً، وإن عملت عملاً كان غير متقن وكانت غير متمكنة منه، فلا معنى لها على انفرادها، وأنت ترى من ولد خداجاً ليس في كفه إلا إصبع واحدة غير منتفع بيده، ويشاهد ما بها من القبح، ولا يكون للإصبع جمال إلا مع انضمامها إلى أخواتها، واستعارة قصر الظفر له من أبرد الاستعارات، إلا أنه كفر بحسنات البيت الثاني سيئات البيت الأول أن الحسنات يذهبن السيئات وقد أتى أيضاً في هذا الباب بما هو أحسن من الأول وهو قوله بسيط

أغنيتني عن جميع الناس كلهم ولم أجد مغنياً من سائر البشر

كالحمد تجزي المصلى حين يقرأها وليس يغنيه عنها سائر السور

هذا على مذهب الجمهور، فإنه مذهب مالك والشافعي وأحمد، إلا أبا حنيفة وصاحب الشعر مالكي، إذ هو مذهب أهل المغرب ولاين رشيق في هذا الباب ما لا يشق غباره وهو قوله "رجز":

كأنما الصبح الذي تقرا ضم إلى الشرق النجوم الزهرا

فاختلطت فيه فصارت فجرا

وقوله أيضاً متقارب:

وما ثقلت كبراً وطأتي ولكن جررت ورائي السنيينا

وقد رأيت الحجاري صاحب الحديقة وصاحب المسهب في أخبار أهل المغرب سمى هذا الباب في الحديقة مناقلة، وفسره بأن قال: هو من مناقلة الخيل، وهي وضع الفرس في الوعر يده موضع رجله مخالفاً لمشيته المعتادة، وأنشد فيه قول ابن الرومي سريع:

تستغفر الناس بأيديهم وهن يستغفرن بالأرجل

فيأله من عمل صالح يرفع الله إلى أسفل

فأغرب بمخالفة العادة. حيث ذكر أن هذه النسوة يفعلن بالأرجل ما يفعله الناس بالأيدي، والارتفاع إلى الأسفل من أغرب الغريب.

ومن نوادر الإغراب قول الأرجاني كامل:

شعري إذا ما قيل يرويه الورى بالطبع لا بتكلف الإلقاء

كالصوت في قنن الجبال إذا بدا للسمع هاج تجاوب الأصداء

ومن مליح هذا الباب قول بعضهم طويل:

تواضع كالنجم استبان لناظر على صفحات الماء وهو رفيع

ومن دونه يسمو إلى النجم صاعداً سمو دخان النار وهو وضع
ومن الإغراب نوع يغرب المتكلم فيه بأن يخرج معنى المدح في لفظ الغزل، فيأتي المدح هزازاً للمعاطف
من الطرب، يكاد يؤكل بالضمير ويشرب، كقول أبي تمام في صفة عمورية بسيط

ما ربع مية معموراً يطيف به
ولا الحدود وإن أدمين من خجل
غيلان أبهى ربا من ربعها الخرب
أشهى إلى ناظري من خدها الترب
سماحة غنيت منا العيون بها
وحسن منقلب تبقى عواقبه
عن كل حسن بدا أو منظر عجب
جاءت بشاشته من سوء منقلب

وكقول ابن سنان الخفاجي كامل:

صبحتهم باللاذقية فالتقى
سبق الظلام لها فعضت ورودها
بحران ماء راكد وعتاق
تبعاً وأنت لمثلها سباق
حتى إذا متع الضحى وتمارت ال
غادرتها دمننا على أطلالها
بيكي الخليط وتذكر الأشواق
فالنار تضرم والدماء تراق
وسننت دين قرارك في عرصاتها

والبيت الرابع أردت، وإنما ذكرت ما قبله وما بعده لارتباطه بذلك، ولما في المجموع من كمال حسن
المعنى، دون انفراد أحد الأبيات وما رأيت في عصرنا أغرب معان من القاضي السعيد بن سناء الملك رحمه
الله.

ومن غرائب معانيه قوله في عمياء تظرفا سريع:

شمس بغير الليل لم تحتجب
بغمده المرهف لكنها
وما سوى العينين لم تكسف
تقتل بالغمد بلا مرهف
أبصرت منها الخلد في جوذر
ومقلتي يعقوب في يوسف

وقوله كامل:

ومع المشيب فبعد عندي صبوة
أنا جد أنصار النبي لأنني
يبلى القميص وفيه عرف المندل
يا أشهل العينين عبد الأشهل

وكقوله طويل:

فلا تتكروا منها الخضاب فإنها
هي الغصن في أطراف الورق الخضر

وكقوله طويل:

عليك زكاة فاجعلها وصالنا لأنك في العشرين وهي نصاب

وكقوله في صبي مستحسن ضرب وحبس طويل:

بنفسي الذي لم تضربوه لريبة ولكن ليبدو الورد في سائر الغصن
وقالوا له شاركت في الحسن يوسفاً فشاركه أيضاً في الدخول إلى السجن

وغرائب معانيه لو استقصيت لخرجنا بما عن الغرض المطلوب من الكتاب.

ومما وقع لي من باب الإغراب والطرفة قولي طويل:

أراني لا ينفك نجمي هابطاً تراه يراه ربنا حسب الرجم
حننتي الليلي فاغتديت كأنني أفتش دهري في التراب على نجمي
فصرت إذا قوساً وعقلي رامياً ورامي الذي أصمى الرمايا به سهمي

وقولي طويل:

تحلمنا الأيام وهي سفيهة فيهدي إلينا برها من عقوقها
وتهدي الدراري وهي من حيرة ترى وقد رجعت من مستقيم طريقها
كما تحدث الطيش الطلى من سكونها فتغرب شمس العقل عند شروقها

ومن الإغراب والطرفة نوع لا يكون الإغراب فيه في ظاهر لفظه، بل في تأويله، وهو الذي إذا حمل على ظاهره كان الكلام به معيياً جداً وإذا تؤول رده التأويل إلى نمط الكلام الفصيح، وأميط من ظاهره حدث العيب، فيكون التأويل هو الموصوف بالإغراب لا الظاهر، وذلك كقوله: "حبطت أعمالهم فأصبحوا خاسرين" فإنهم أمسوا كما أصبحوا، فتكون لفظة فأصبحوا حشوا لا فائدة فيه، ومثل هذا يتحاشى عنه نظم القرآن، فإنك إذا قلت أصبح العسل حلواً وهو قد أمسى كذلك، كان قولك أصبح حشاً، لكن لما كان الأشقياء حالهم حال المرضى، وكان المريض تشدد عليه الآلام في الليل، وتخف في النهار، فتكون حاله عند الصباح صالحة بالنسبة إلى حاله بالليل، إلا المريض الذي لا يرجى برؤه، فإنه يصبح كما أمسى، فإذا أصبح كذلك يئس من فلاحه، ولما أشبهت حال هؤلاء الأشقياء حال المريض الذي قد تيقن هلاكه، أخبر عنهم بأنهم أصبحوا كما أمسوا خاسرين، وعلى هذا تكون لفظة أصبحوا قد تضمنت معنى أخرجها عن كونها حشواً، ورد الكلام الذي جاءت فيه إلى حده من الفصاحة، فعد التأويل الذي فعل بها

ذلك غريباً طريفاً، والله أعلم.

هذا آخر أبواب المتقدمين، وقد بقيت أبواب الأجدابي الثلاثة التي أولها:

باب الالتزام

وهو أن يلتزم الناثر في نشره، أو الشاعر في شعره، قبل روي البيت من الشعر حرفاً فصاعداً على قدر قوته، وبحسب طاقته، ومشروطاً بعدم الكلفة وقد جاء من ذلك في الكتاب العزيز مواضع رائعة الحسن، كقوله تعالى: "والطور وكتاب مسطور" وقوله سبحانه: "فلا أقسم بالخنس الجوارى الكنس" وقوله تعالى: "والليل وما وسق والقمر إذا اتسق" وقوله عز وجل "فأما اليتيم فلا تقهر وأما السائل فلا تنهر" وقوله تعالى: "أمرنا مترفيها ففسقوا فيها" وقوله عز من قائل: "ما أنت بنعمة ربك بمجنون وإن لك لأجرًا غير ممنون" وقوله جلت قدرته: "فإذا هم مبصرون وإخوانهم يمدوهم في الغي ثم لا يقصرون" وقوله جل جلاله "كلا إذا بلغت التراقي وقيل من راق وظن أنه الفراق، والتفت الساق بالساق، إلى ربك يومئذ المساق" وقوله عز وجل: "لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن في ملتنا" وأشياء كثيرة من فواصل القرآن العزيز تعجز الفصحاء أشد تعجيز وقد جاء في السنة من ذلك قول الرسول صلى الله عليه وسلم في حديث أم زرع حكاية عن الأولى من النسوة قولها: "لا سهل فيرتقى، ولا سمين فينتقى، وقول أم زرع في صفة حالها مع أبي زرع: فعنده أنام فأصبح، وأقول فلا أقبح" وقولها في صفة الخادم "لا تقش طعامنا تقشيشاً ولا تملأ بيتنا تعشيشاً، ولا تبت حديثنا تبثيثاً، ولا تنفث ميرتنا تنفيثاً"، هذه رواية، وليست من أمثلة هذا الباب، والرواية الأخرى التي من أمثلة الباب تنمة القرائن الشينية، وهي قولها: ولا تخرج حديثنا تعشيشاً. وقولها أعني أم زرع: "فتزوجت بعده رجلاً سرياً، ركب فرساً شرياً، وأراح على نغمًا ثرياً"، وكقول السادسة منهن: "إن أكل اقف وإن شرب اشتف وإن رقد التف"، وكقول الثامنة: "المس مس أرنب، والريح ريح زرنب"، ومن هذا الباب في الشعر قول امرئ القيس طويل:

فألهيته عن ذي تائم محول

فمئلك حبلى قد طرقت ومرضع

بشق وتحتي شقها لم يحول

إذا ما بكى من خلفها انحرقت له

وقد أكثر المتأخرون من هذا الباب قاصدين عمله، وما وقع منه لمتقدم فغير مقصود، حتى عمل المعري من ذلك ديواناً كاملاً مفرداً من ديوان شعره المعروف بسقط الزند، ومنه قوله طويل:

عذاب وخصت بالملوحة زمزم

لك الحمد أمواه البلاد بأسرها

هو الحظ غير الوحش يستاف أنفه
و كقول بعضهم بسيط
خزامى وأنف العود بالعود يخزم

سلم على قطن إن كنت نازله
أحبه والذي أرسى قواعده
سلام من كان يهوى مرة قطنا
حبا إذا ظهرت آياته بطنا
إلا تذكر عند الغربة الوطن
ومن مليح ما جاء في الالتزام قول أبي نواس كامل:

وأما وزند أبي علي إنه
إني لثأبي الصنع عالي همتي
زند إذا استوريت سهل قدحكا
من غيركم وتعاف إلا مدحكا

باب تشابه الأطراف

هذا الباب سماه الأجدابي التسييع، وفسره بأن قال: هو أن يعيد لفظ القافية في أول البيت الذي يليها، والتسييع زيادة في الطول، ومنه قولهم: درع سابعة، إذا كانت طويلة الأذيال، وهذه اللفظة في اصطلاح العرضيين عبارة عن زيادة حرف ساكن على السبب الخفيف في آخر الجزء، وعلى هذا لا تكون هذه التسمية لائقة بهذا المسمى، فرأيت أن أسمى هذا الباب تشابه الأطراف، لأن الأبيات فيه تشابه أطرافها وما بأبيات قلتهن في هذا النوع من بأس، وهي طويلة:

خليلي إن لم تعذراني في الهوى
دعاني إليه الحب فالحب أنفا
ولم تحملا عني اذهبا ودعاني
دعاني قلبي إذ دعاه جناني
جناني في سكر فلا رعى عنده
سقاني من لم يعنه من صبابتي
ووجدني به ما شفني وعناني
عناني منه ما براني ولم يكن
ليرثي لما قد حل بي ودهاني
دهاني الهوى من حيث لم أدر عندما
دعاني على قلبي تعدى بنظرة
رأى ما شجى قلبي الكئيب عياني
إلى ناظر باللحظ منه رمانى
رمانى بسهم من كنانة لحظه
أصاب فؤادي شجوه فشجاني

شجاني بسقم من مراض جفونه
و غص حياء منه حين سباني

سباني بسحر ليس يبطل بالرقى

تقر له في بابل الملكان

ومنه في الكتاب العزيز قوله تعالى: "الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح، المصباح في زجاجة الزجاج كَأَمْثَلِ كَوْكَبٍ دَرِيٍّ" وأنشد فيه قول ليلى الأحيلىة تمدح الحجاج طويل:

إذا نزل الحجاج أرضاً مريضة

تتبع أقصى دائها فشفاهها

شفاهها من الداء العضال الذي بها

غلام إذا هز القناة سقاها

سقاها فرواها بشرب سجاله

دماء رجال يحلبون صراها

وأحسن من هذه الأبيات قول أبي نواس سريع:

خزيمة خير بني خازم

وخازم خير بني دارم

ودارم خير تميم وما

مثل تميم في بني آدم

إلا البهاليل بنو هاشم

وهم سيوف لبني هاشم

باب التوعم

وهذا الباب أيضاً سماه الأجدابي التشريع، وفسره بأن قال: هو أن يبنى الشاعر البيت أو الناثر النثر على قافيتين إذا اقتصر على إحداهما كان البيت له وزن، وإن كمله على القافية الأخرى كان له وزن آخر، وتكون القافيتان متماثلتين، وتكونان مختلفتين، وهذه التسمية وإن كانت مطابقة لهذا المسمى فهي غير معلومة عند الكافة، فسميته التوأم، وهو أن يكون للبيت كما ذكر قافيتان، وصحة القول في تفسيره أن يقال: أنه متى اقتصر به على القافية الأولى كان من ضرب ذلك البحر الذي عمل الشاعر بيته منه، فإذا استوفى أجزاءه وبناه على القافية الثانية كان البيت من ضرب غير ذلك الضرب من ذلك البحر، وغالبه أن يختلف الرويان وإن جاز توافقهما، هذا إن كان الكلام شعراً، وذلك كقول الشاعر كامل:

وإذا الرياح مع العشي تناوحت

هدج الرئال، تكبهن شمالا

ألفيتنا نفرى العبيط لضيفنا

قبل القتال، ونقتل الأبطالاً

فإن هذا الشاعر لو اقتصر على الرئال، والقتال كان الشعر من الضرب المجزوء المرفل من الكامل، فإذا أتمت البيتين صاراً من الضرب التام المقطوع منه، فقدّر أن لكل بيت من هذين البيتين قافيتين على تساوي القافيتين في الردف وتماثل الرويين وإن اختلفت المجرى فيهما، وعلى هذا بنى الحريري قوله في المقامات كامل:

يا خاطب الدنيا الدنية إنها

شرك الردى، وقرارة لأكدار

لأن اقتصاره على قوله شرك الردى تجعل الشعر من الضرب المجزوء من الكامل، وتماه يجعله من الضرب المضمّر المقطوع منه، وإن اختلف القافيتان والرويان والمجرى فيهما، وقد جاءت من هذا الباب في الكتاب العزيز أكثر سورة الرحمن كقوله تعالى: "يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان قبأي آلاء ربكما تكذبان" يرسل عليكما شواظ من نار وغاس فلا تنتصران قبأي آلاء ربكما تكذبان وهكذا إلى آخر السورة فإنه يجوز الاقتصار على أولى الفاصلتين دون الثانية لو كان التزليل كذلك، والله أعلم.

هذا آخر ما جمعته من كتب الناس بعد التنقيح والتحرير، وتغيير ما حسن فيه التغيير، وقد تكملت الأبواب بهذه الثلاثة التي عوضت بها ما تداخل في باب التمكين التهذيب تسعين باباً غير متداخلة ولا متواردة، والله أعلم.

الجزء الرابع

ومن هاهنا أشرع في إثبات الأبواب التي استنبطتها، والأنواع التي استخرجتها مفصلة مكملة، فأولها:

باب التخيير

وهو أن يأتي الشاعر بيت يسوغ أن يقفي بقواف شتى، فيتخير منها قافية مرجحة على سائرهما بالدليل، تدل بتخييرها على حسن اختياره، كقول الشاعر بسيط

إن الغريب الطويل الذيل ممتهن فكيف حال غريب ما له قوت

فإنه يسوغ أن يقول: فكيف حال غريب ما له حال أي ما له مال، ما له نشب، ما له سبب، ما له صفد، ما له سبب، ما له خطر، ما له أحد، ما وجد، ما له شيع، وإذا نظرت إلى قوله: ما له قوت وجدتها أبلغ من الجميع، وأدل على الفاقة، وأمس بذكر الحاجة، وأبين للضرورة، وأشجى للقلوب، وأدعى للاستعطاف، فلذلك رجحت على كل ما ذكرناه ومن هذا النوع في الكتاب العزيز قوله تعالى في أول الجاثية: "إن في السموات والأرض لآيات للمؤمنين، وفي خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون، واختلاف الليل والنهار وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها وتصريف الرياح آيات لقوم يعقلون فالبلاغة تقتضي أن تكون فاصلة الآية الأولى: المؤمنين، لأنه سبحانه ذكر العالم بجملته، حيث قال: السموات والأرض، ومعرفة ما في العالم من الآيات دالة على صفاته لتقدم الموصوف وجوداً واعتقاداً على الصفات وكذلك قوله في الدالة على أن المخترع له قادر عليم حكيم وإن دل على وجود صانع مختار فدلالته على صفاته مرتبة على دلالتها على ذاته، فلا بد أولاً من التصديق بذاته حتى تكون هذه الآيات دالة الثانية: لقوم يوقنون، فإن نفس الإنسان وتدبر خلق الحيوان، أقرب إليه من الأول، وتفكره في ذلك مما يزيد يقينا في معتقده الأول، وكذلك معرفة جزئيات العالم من اختلاف الليل والنهار، وإنزال الرزق من السماء، وإحياء الأرض بعد موتها، وتصريف الرياح، تقتضي رجاحة العقل وورصانته، ليعلم أن من صنع هذه الجزئيات هو الذي صنع العالم الكلي التي هي أحسن منه، وعوارض عنه، ولا يجوز أن يكون بعضها صنع بعضاً بعد قيام البرهان على أن للعالم الكلي صناعاً مختاراً، فلذلك اقتضت البلاغة أن تكون فاصلة الآية الثالثة لقوم يعقلون وأن احتيج للعقل في الجميع، إلا أن ذكره هاهنا أمس بالمعنى من الأول، إذ بعض من يعتقد صناعاً للعالم ربما قال: إن بعض هذه الآثار يصنع بعضاً، فلا بد

إذاً من التدبر بدقيق الفكر وراجح العقل ، ومنه قوله تعالى: "فأما اليتيم فلا تقهر، وأما السائل فلا تنهر" ولا يجوز التبديل بينهما، إذ لا يجوز النهي عن انتهار اليتيم لمكان تأديبه، وإنما ينهى عن قهره وغلبته، كما لا يجوز أن ينهر السائل إذا حرم، وليرد رداً جميلاً، ومن ذلك قوله تعالى: "إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم" فإن قوله تعالى: "وإن تغفر لهم" ربما أوهم بعض الضعفاء أن الفاصلة لو كانت "غفوراً رحيماً" كانت أنسب لمكان "وإن تغفر لهم" ويذهل عن كونهم يستحقون العذاب دون الغفران، وإن قوله "العزيز الحكيم" بعد قوله "وإن تغفر لهم" أنسب، لأن من يغفر لمن يستحق العذاب إنما يكون من لا فوّه أحد يرد عليه حكمه، ومن كان كذلك كان عزيزاً ممتنعاً من الرد عليه، ومن كان حكيماً وضع الشيء في موضعه، وإن كان ظاهر فعله موهماً بأنه على خلاف الحكم، لخفاء وجه الحكمة بمكنون الغيب عن المخلوق القائم عن إدراك أسرار الربوبية.

ومن التخيير ضرب غير هذا، وهو أن يؤتى بقطعة من الكلام أو بيت من الشعر قد عطف بعض جملة على بعض بأداة التخيير كقوله تعالى: "فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة" وكقول الشاعر بسيط

خلو التفاخر أو حلوا اليفاع إذا ما أسنت الناس أولبوا الصريخ ضحى

ولا يكون هذا الضرب من المحاسن حتى تكون الجمل المعطوف بعضها على بعض متضمنة صحة التقسيم كما جاء في الآية الكريمة، إذ حصر سبحانه وتعالى فيها أنواع الكفارة التي لا يجزئ الموسر غيرها، كما جاء في البيت من حصر أعظم الأسباب التي نفاخر بمثلها، وهي نهاية الكرم، وغاية الشجاعة إذا لا يحل بالمكان المرتفع من الأرض في الجماعة ليدل على بيته إلا الجواد المؤثر، كما قال شاعر الحماسة وافر:

**له نار تشب على يفاع إذا النيران ألبست القناعا
ولم يك أكثر الفتیان مالاً ولكن كان أرحبهم ذراعا**

كما أنه لا يبادر إلى تلبية الصريخ عند الضحى، وهو وقت الغارات إلا أشجع القوم، ومن هذا القسم من التخيير قوله سبحانه وتعالى: "قل كونوا حجارة أو حديداً أو خلقاً مما يكبر في صدوركم" فانظر إلى حسن هذا التخيير وصحة الترتيب في الانتقال من الأدنى إلى الأعلى حتى بلغ النهاية في أوجز إشارة بقوله سبحانه بعد الانتقال من الحجارة إلى الحديد الذي هو أصلب منها: "أو خلقاً مما يكبر في صدوركم" غير حاصر لهم في صنف من الأصناف.

والفرق بين التخيير بأو وحسن النسق من وجهين: أحدهما أن حسن النسق يكون بجميع حروف العطف

وغالباً ما تقع الواو، وربما وقع منه شيء بالفاء للتعاقب، أو بضم للمهله والتراخي، ووقوعه بالواو أكثر، والتخيير لا يكون إلا بأو التي هي للتخيير خاصة.
والثاني أن التخيير يشترط فيه صحة التقسيم، ولا كذلك حسن النسق، والفرق بين تخيير مقطع الكلام دون كل مقطع يسد مسده وبين التسهيم أن صدر كلام التخيير لا يدل إلا على المقطع فقط، وصدر كلام التسهيم يدل على ما زاد على المقطع، إلى أن يبلغ عجز البيت، والفرق بين التخيير والتوشيح التوطئة بتقديم لفظة القافية في أول البيت من التوشيح، ولا كذلك التخيير، والله أعلم.

باب التدبيح

وهو أن يذكر الشاعر أو الناثر ألوانا يقصد الكناية بها أو التورية بذكرها عن أشياء من مدح أو وصف أو نسيب أو هجاء أو غير ذلك من الفنون، أو لبيان فائدة الوصف بما كقوله تعالى: "ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود" فإن المراد بذلك والله أعلم الكناية عن المشتبه والواضح من الطرق، لأن الجادة البيضاء هي الطريق الملمحوب التي كثر السلوك فيها جداً، وهي أوضح الطرق وأبينها، ولهذا قيل: ركب بهم المحجة البيضاء ودونها المراء، ودون الحمراء السوداء التي كأنها في الخفاء والالتباس ضد البيضاء في الظهور والوضوح. ولما كانت هذه الألوان الثلاثة في الظهور للعين طرفين وواسطة، فالطرف الأعلى في الظهور البياض والطرف الأسفل في الخفاء السوداء، والأحمر بينهما على حكم وضع الألوان في التركيب، وكانت ألوان الجبال لا تخرج عن هذه الألوان الثلاثة، والهداية بكل علم نصب للهداية تنقسم هذه القسمة، أت الآية الكريمة على هذا التقسيم، فحصل فيها التدبيح وصحة التقسيم، وهي مسوقة للاعتداد بالنعيم على ما هدت إليه من السعي في طلب المصالح والمنافع، والفرار من المضار والمعاطب. ومن التدبيح الحسن قول الحريري: فمد أزور الحبيب الأصفر، واغبر العيش الأخضر، أسود يومي الأبيض، وأبيض فودي الأسود، حتى رثى لي العدو الأزرق، فحبذا الموت الأحمر، إلا أن تدبيح الآية الكريمة جاء بلفظ الكناية لبيان فائدة الوصف بالألوان، وتدبيح المقامة أتى بطريق التورية. ومن أمثلة هذا الباب الشعرية قول ابن حيوس الدمشقي خفيف:

فالقهم يوم نائل أو نزال

إن ترد علم حالهم عن يقين

تلق بيض الوجوه سود مثار النقع خضر الأكناف حمر النصال

وكقول بعض العرب طويل:

وبيض الثنايا تحت خضرة شاربه

زياد بن عين عينه تحت حاجبه

وقد ساق بعض النقاد هذا البيت من شواهد العيوب، وقال: وجه العيب فيه كون العين لا تكون إلا تحت الحاجب، والثنايا تحت الشارب، وقد قال بعضهم في الرد على هذا العائب: الشاعر أراد أنه غير مشوه، قد خلق في أحسن تقويم، فلم تأت صورته مخالفة للصور، وعندني أن مثل هذا لا يعد عيباً، ولا يحتاج فيه إلى تكلف مثل هذا العذر، فإنه قد ورد مثله في الكتاب العزيز للتوكيد والتهويل ليحصل الازدجار عن فعل من حل به ذلك، وهذا من بليغ الموعظة، وهو قوله سبحانه "فخر عليهم السقف من فوقهم" والسقف لا يكون إلا من فوق ولا سيما في هذا الموضع، لأنه سبحانه رفع فيه الاحتمال الذي يتوهم من أن السقف قد يكون تحت بالنسبة، فإن كثيراً من السقوف يكون أرضاً لقوم وسقفاً لآخرين، فرفع تعالى هذا الاحتمال بجمليتين، وهما قوله تعالى "عليهم" ولفظة "حر" لأنها لم تستعمل إلا فيما هبط أو سقط من العلو إلى السفل، ومن ذلك أيضاً حديث أبي بكر أن النبي صلى الله عليه وسلم خطب في حجته فقال: "ألا إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات الأرض، السنة اثنا عشر شهراً منها أربعة حرم، ثلاثة متواليات، وهي ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب، الذي بين جمادى وشعبان" ورجب لا يكون إلا كذلك، وإنما هو صلى الله عليه وسلم لما أراد أن يخبر عن شهر فرد غير موال للأشهر الحرم التي قبله عرفه بأنه بين هذين الشهرين احتراساً من كونه لو اقتصر على قوله: ورجب توهم بعض السامعين أنه ربما أراد صفر، لا سيما وقد كانت الجاهلية تحل صفر عاماً، وتحرمه عاماً، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم: صفر، في حديث خرجه الترمذي وأبو داود، وربما ظن الظان أنه أراد برجب صفر وسماه رجباً ليعرف بتعظيمه، إذ الترجيب التعظيم، فاحترس من وقوع هذا اللبس بأن عرفه بأنه هو الذي بين جمادى، ليقطعه عما قبله، وبين شعبان، ليقطعه عما بعده، والتأويلات أوسع وأفسح من أن يخطئ معها عربي متقدم في لغته التي وضعها، وهو أعرف بمواقعها منا، لا سيما وقد قال امرؤ القيس مما يؤيد ذلك متقارب:

تسد به فرجها من دبر

لها ذنب مثل ذيل العروس

وفرج الفرس لا يكون إلا من دبر، لأن فرجها الذي يسد بذنبها هو ما بين قائمتي رجليها من عجب الذنب، إلى حافر الرجلين، وفي بعض ذلك ما يخرج بيت الشاعر عن العيب. ومن التدبير قول أبي تمام في مرثيته لمحمد بن حميد الطوسي طويل:

لها الليل إلا وهي من سندس خضر

تردى ثياب الموت حمراً فما أتى

وكقول البحترى طويل:

وأفاتها بيض وأكنافا خضر

تحسنت الدنيا بعدلك فاعتدت

باب التمزيج

وهو أن يمزج المتكلم معاني البديع بفنون الكلام، أعني أغراضه ومقاصده بعضها ببعض بشرط أن تجمع معاني البديع والفنون في الجملة أو الجمل من النثر، والبيت أو البيوت من الشعر، كقول بكر بن النطاح طويل:

لترضى فقالت: قم فجنني بكوكب

بذلت لها ما قد أردت من المنى

كمن يتشهى لحم عنقاء مغرب

فقلت لها: هذا التعنت كله

ولا تذهبي يا بدر بي كل مذهب

سلي كل شيء يستقيم طلابه

وقدرته أعيأ بما رمت مطلبي

فأقسم لو أصبحت في عز مالك

كما شقيت بكر بأرماع تغلب

فتى شقيت أمواله بعفاته

فإن التمزيج وقع في الثلاثة المتواليات من هذا الشعر بعد الأول، فأما الأول من الثلاثة فإنه مزج في صدره العتاب بالغزل بالمراجعة حيث قال:

فقلت لها هذا التعنت كله

لارتباط هذا الصدر بما قبله بسبب المراجعة التي فيهما إذ قال: "فقلت"، وأتى في عجز البيت بالتذييل ليتحقق العتاب، ويستدل على صحة ما ادعاه من التعنت، فمزج المذهب الكلامي بالتذييل في العجز، كما مزج العتاب والغزل في الصدر، مع الارتباط بما قبل، وحقق ذلك بالمراجعة الحاصلة فيهما، فوقع التمزيج في البيت المذكور من الفنون في العتاب. والغزل ومن المعاني في المراجعة بسبب الارتباط والتذييل والمذهب الكلامي، ثم مزج المبالغة بالقسم في البيت الثاني من الثلاثة، والمدح بالغزل بواسطة الاستطراد، وأتى بالطامة الكبرى في البيت الثالث من الثلاثة، إذ مزج فيه الإرداف بالتشبيه والشجاعة بالكرم ومدح قبيلة الممدوح بمدحه وذم أعداءها والإيغال بالتشبيه.

فأما الإرداف ففي قوله: شقيت أمواله بعفاته فإن أراد أن يقول: فتى جواد، فعدل عن هذا اللفظ إلى ردفه، لما في لفظ شقاوة الأموال بالعفاة من زيادة المعنى، وديباجة اللفظ التي لا توجد في لفظ الحقيقة، والتشبيه في قوله: كما شقيت هذه القبيلة بهذه القبيلة والقبائل المتعادون كثير، وإنما اقتصر على هاتين القبيلتين لما في ذكرهما من النكتة التي يزيد بها معنى المدح، وخص الممدوح به وأراد تكميل المدح ورأى

أنه لو اقتصر على مدحه بالكرم كان المدح غير كامل، وأراد تكميل المدح بالشجاعة فأوجبت عليه الصناعة أن يأتي بالتنكيت في عجز البيت بحيث يكون بين العجز والصدر ارتباط يوجب لهما التلاحم، فوصل بينهما بكاف التشبيه مقتصراً على ذكر القبيلتين اللتين في ذكرهما نكتة حسنة، وهي مدح قبيلة المدوح، والتعريض بدم قبيلة أعدائه، والمدح لقبيلة المدوح مدح له، فيكمل له المدح الذي أراده، والتمزيج الذي قصده، والفرق بين التمزيج والتكميل والافتنان والتعليق والإدماج، فإن هذه الأبواب الخمسة ربما اشتبهت على كثير من الناس لكونها تجمع المعاني والفنون غالباً إذ أن التكميل لا يكون إلا في معاني النفوس وأغراضها معاً في البديع، ولا يكون أحد الأمرين فيه قد اتحد بالآخر، بحيث لا يظهر من الكلام إلا صورة أحد الأمرين دون الآخر، وإنما يؤخذ المعنى الآخر من الكلام بطريق القوة لشدة امتزاج المعنيين أو الفنين أو أحدهما بالآخر، وهذه حال التمزيج بمعاني النفوس ومعاني البديع والفرق بين التمزيج والافتنان أن الافتنان لا يكون إلا بالجمع بين فنين من أغراض المتكلم كالغزل والمدح والعتاب، والهجاء، والتهنئة، والتعزية، والتمزيج بخلاف ذلك، إذ هو يجمع الفنون والمعاني ويكون الأمران فيه متداخلين، والفتان فيه ظاهران، والفرق بين التمزيج والتعليق أن التعليق كالافتنان في اختصاصه بالفنون دون المعاني وظهور الفنين فيه معاً، إلا أن أحدهما متعلق بالآخر، والافتنان لا يكون إلا بالجمع بين فنين من أغراض المتكلم كالغزل والمدح، والعتاب والهجاء، والتهنئة والتعزية، والتمزيج بخلاف ذلك، إذ هو يجمع الفنون والمعاني، ويكون الأمران فيه متداخلين أي أحد الفنين فيه متعلقاً بالآخر ولا بد، وكلاهما يفارق الامتزاج في ظهور صور الأشياء التي تكون فيه، فإنها تمتزج في الامتزاج بحيث لا يظهر منها لكل شيئ إلا صورة واحدة، والفرق بين التمزيج والإدماج أن الإدماج كالتعليق، لا يكون إلا بالفنون دون المعاني بخلاف التمزيج، وإن اشتبه التمزيج في إيجاد الصور لا يكون إلا بالمعاني البديعية دون المعاني النفسية، ودون الفنون، والفرق بين التعليق والتكميل دقيق وقد جاء في الكتاب العزيز من التمزيج قوله تعالى "رب احكم بالحق" فإنها امتزج فيها فنا الأدب والهجاء بمعنى الإرداف والتميم وتولد من ذلك ما استخرجته منا من بقية المحاسن، فكان ذلك أربعة عشر نوعاً يضيق هذا المكان عن ذكرها مفصلة، وقد ذكرتها مفصلة في "بديع القرآن" العزيز والله أعلم.

باب الاستقصاء

وهو أن يتناول الشاعر معنى فيستقصيه إلى أن لا يترك فيه شيئاً، كقول ابن الرومي في صفة الحديث كامل:

لم يجن قتل المسلم المتحرز

وحديثها السحر الحلال لو أنه

ود المحدث أنها لم توجز
للمطمئن وعقله المستوفز

إن طال لم يملل وإن هي أوجزت
شرك العقول ونزهة ما مثلها

فانظر إلى كون هذا الشاعر وصف حديث هذه المحبوبة بنهاية الوصف الحسن اللائق بمثله، حيث قال:
وحديثها السحر الحلال، لفعله في العقول فعل السحر، وجعله حلالاً لصدق الوصف، وليضمن كلامه في
صفته معنى قول الرسول صلى الله عليه وسلم "إن من البيان لسحراً، فإن سحر البيان سحر حلال، ثم
رجع فاستدرك فيه فقال:

لم يجن قتل المسلم المتحرز

..... لو أنه

لكون قتل المسلم بغير حق حرام، فحصل في البيت طباق معنوي، فكأنه قال سحر حلال لو لم يجن
حرام، فطابق بين الحلال والحرام وأحدث براءة المسلم المقتول بالحديث من الإيغال الذي في قافية البيت،
وهو قوله: المتحرز لأن المتحرز لا يقع في شيء من موجبات القتل، وفي ذلك مبالغة في وصف الحديث
بإفراط الالتذاذ الذي يزهق حبه النفس، ثم فكر فيما يعرض من الملل بسبب، طول الحديث فاحترس عن
تلك بقوله: إن طال لم يملل ثم رأى أنه متى اقتصر على وصفه بالحسن حالة الإطالة دون الإيجاز كان
مقصراً، فقال: وإن هي أوجزت إلى آخر البيت، ثم أراد وصفه بميل النفوس إليه إما اضطراراً أو اختياراً
فقال، في الميل الاضطراري: شرك العقول، فأخبر أنه يصيد العقول قنصاً، ثم قال في الميل الاختياري
مقسماً له قسمين حاصرين في حالتي الريث والعجل كامل:

للمطمئن وعقلة المستوفز

..... ونزهة ما مثلها

وليس للمختار حالة زائدة على هاتين الحالتين إما أن يكون مطمئناً، أو مستوفراً، فإن كان مطمئناً كان
هذا الحديث نزهته، وإن كان مستوفراً كان عقلته، فلم يبق في هذا المعنى مقالاً لمن بعده، ولقد أحسن ابن
مناذر في استقصائه معنى من معاني الغزل حيث قال طويل:

إذا جدد جد البين أم أنا غلبه

فوالله ما أدري أيغلبني الهوى

فمثل الذي لاقيت يغلب صاحبه

فإن استطع أغلب وإن يغلب الهوى

فإنه لما علم أنه متى اقتصر على البيت الأول لا يكون مستقصياً للمعنى أتى بتفصيل ما أجمله في البيت
الأول بما جاء به في البيت الثاني، ليكون قد أتى على جميع ما يجب ذكره من المعنى الذي قصده: وإذا
وصلت في هذا الباب إلى قول البحثري في صفة إنضاء الإبل خفيف:

هم مبرية بل الأوتار

كالقسي المعطفات بل الأس

وصلت إلى الغاية في الشعر، لأنه جمع مع الاستقصاء المبالغة والرمي على الترتيب، على مقتضى البلاغة، والتميم في موضعين، في قوله: المعطفات، وقوله: مريّة والإيغال في القافية، وقد جاء في الكتاب العزيز من ذلك ما لا يلحق سبقاً، وهو قوله تعالى: "أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب تجري من تحتها الأنهار له فيها من كل الثمرات وأصابه الكبير وله ذرية ضعفاء فأصابها إعصار فيه نار فاحترقت" فانظر إلى استقصاء هذا المعنى حين لم يبق فيه بقية لأحد، وذلك أنه بعد قوله: "جنة من نخيل وأعناب" قال: "تجري من تحتها الأنهار" وكمل الوصف بقوله: "له فيها من كل الثمرات" فأتى بكل ما في الجنان ليشتد الأسف على إفسادها ثم قال "وأصابه الكبير" ثم استقصى المعنى الذي يوجب تعظيم المصاب بقوله بعد وصفه بالكبير "وله ذرية" ولم يقتصر على كونه له ذرية حتى قال: "ضعفاء" ثم ذكر استئصالها بالهلاك في أسرع وقت حيث قال: "فأصابها إعصار فيه نار" فلو اقتصر على ذكر الإعصار لكان كافياً، لكن لما علم الله سبحانه: "فيه نار" ثم أخبر باحتراقها لاحتمال أن تكون النار ضعيفة لا يقوم إحراقها بإطفاء أثمارها وتجفيف كل أوراقها وثمارها، فأخبر بإحراقها احتراساً من ذلك، وهذا أحسن استقصاء وأتمه، بحيث لم يبق في المعنى المقصود موضع استدراك، والفرق بين الاستقصاء والتميم، والتكميل كون التتميم يرد على معنى ناقص فيتمم بعضه، والتكميل يرد على التام فيكمل وصفه، والاستقصاء له مرتبة ثالثة، فإنه يرد على الكامل فيستوعب كل ما تقع عليه الخواطر من لوازمه، بحيث لا يترك لآخذه مجالاً لاستحقاقه من هذه الجملة، والله أعلم.

باب البسط

وهو أن يأتي المتكلم إلى المعنى الواحد الذي يمكنه الدلالة عليه باللفظ القليل، فيدل عليه باللفظ الكثير ليضمن اللفظ معاني أحر يزيد بها الكلام حسناً، لولا بسط ذلك الكلام بكثرة الألفاظ لم تحصل تلك الزيادة ومما جاء من ذلك في الكتاب العزيز قوله تعالى: "قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أنداداً ذلك رب العالمين وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين، ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين، فقضاهن سبع سموات في يومين وأوحى في كل سماء أمرها" فانظر هداك الله إلى هذا البسط في الآيات الكريمة بالنسبة إلى قوله في غير موضع. من القرآن: "الله الذي خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام" لتعلم أنه بسط سبحانه الكلام في هذه الآية ليفيد البسط معاني من تفصيل الأخبار، وإيضاح المعنى وتفسير ذلك الإجمال، وإخراجها مخرج التفريع لمن جعل لله تبارك وتعالى أنداداً من

مخلوقاته فإن قلت التفريع يحصل بقوله: "الله الذي خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام" فما فائدة البسط؟ قلت فائدته جليلة، فإن الاستدلال بما قرب من نظر الخصم أوضح من الاستدلال بما بعد، فإن تقدير أقوات الحيوان البري والبحري، وتخصيص كل صنف بقوت مألوف يميل إليه بطبعه، كاللحوم للسباع، والحب للبهائم، والأوساخ وما أشبهها للهمج، والبقول وسائر الخضروات لغير هذه الأصناف، وجميع بعض أصناف الحيوان البهيم البري والبحري، وتركة تلك الأقوات الموجبة لكفاية ما يخرج من الأرض من جميع الحيوان أقرب لفهم المخاطب، ولاحتمال أن يقع في بعض النفوس أن هذه الأمور من صنع السموات والأرض، لا من صنع صانعها كما يعتقد بعض الناس فاقتضت البلاغة أن يقدم ذكر الأرض لقربها من المخاطب، ولأن الأنداد منها كالحجارة التي نحتت وعبدت والأنصاب التي نجرت من الأخشاب، والصور التي اتخذت من المعادن، وليعرف بعظمة قدرته في خلقه الأرض كلها في يومين، ثم ثنى بذكر الجبال التي تثبت الأرض، وتكون الجواهر المعدنية منها.

ثم يذكر البركة التي لولاها لما نبت النبات، ولا عاش الحيوان، ولا تنوع الجماد، ولا حصلت المنافع التي بها قوام الأجسام، ممتناً بذلك على عباده، وحق له الامتنان، ثم ثلث بذكر تقدير الأقوات، ليحض بذلك على التوكل، ويبعث النفوس على الاشتغال عن الفكر في التكسب بصالح الأعمال، ثم أخبر أن ذلك كله في يومين آخرين، بقوله سبحانه: "في أربعة أيام" يعني. والله أعلم. أنه أرسى الجبال وبارك في الأرض وقدر فيها أقواتها، مع خلقه لها في أربعة أيام، ثم ختم بذكر خلق السموات السبع، والعناصر الأربعة، إذ هي سموات بالنسبة إلى المخاطب، غير أنه أفرد من ذلك السموات السبع بالذكر، منبهاً على فضلها بالنسبة إلى العناصر وعظمتها، وما تعرف العرب وغيرهم من نجومها، والهداية بها، وأنوائها، وإنزال الغيث من جهتها، ومقدمات ذلك من الرعد والبرق والرياح، ومنافع النيرين، ثم أخبر سبحانه أنه خلق ذلك كله في يومين ثم اقتصر عز وجل في هذه الآية الكريمة على ذكر الأفلاك السبعة دون الفلكين الآخرين، منطقة البروج والأطلس، لكون السبعة هي المعروفة عند العرب الذين نزل عليهم القرآن وجاء بلسانهم، لأن معرفة الفلكين الآخرين موقوفة على علوم ليست من علوم العرب، فإن قلت: فالعرب تعرف الأنواء وكواكبها في الفلك الثامن، فلم اقتصر على ذكر السبعة دونه؟ قلت: إنما عرفت الأنواء بالقمر لحلوله في المنازل، ومسير القمر أسرع مسير، وهي كثيراً ما تتأمله، لسفرها فيه وسراها، وعرفت الكواكب السيارة لقرب سيرها بالنسبة، وعرف مسير المنازل أيضاً بحركاتها القسرية وأما حركة فلكها التي دلت عليها كواكبها الثابتة، فليس من علوم العرب وإن كانت تعرفها، كما ذكرت تنقل القمر، وقد ذكره الله سبحانه على انفراد، وخصه من بين الأفلاك السبعة بالذكر لميزته، فقال تعالى: "والسماء ذات البروج" فأفاد سبحانه بهذا البسط حصول ضروب من البديع في الكلام لولا البسط لم تحصل، وهي المذهب

الكلامي والإدماج والإرداف والتفسير.

فأما المذهب الكلامي ففي قوله تعالى: "ذلك رب العالمين" فإنها نتيجة قوله تعالى: "ثم استوى إلى السماء" إلى قوله سبحانه: "قالنا أتينا طائعين" فإن تقدير الكلام في ذلك والله أعلم. لا تطيع السماء والأرض إلا رب العالمين، فإنهما عبارة عن العالمين، وقد أطاعت الله سبحانه فهو رب العالمين، والإدماج: إدماج الإرداف في المذهب الكلامي، لأنه وهو أعلم أن يقول: "قل أننكم لتكفرون" بالقادر المطلق، فعدل عن اللفظ الخاص إلى لفظ هو ردفه حيث قال: بالذي فعل وصنع وعدد من قدرته ما لا يقدر عليه غيره، والتعليق في كونه تبارك وتعالى علق فن الفخر بفن العتاب، إذ وصف نفسه صادقاً بما هو أهله، وأثنى على ذاته بما يستحقه في ضمن العتب الموبخ، والتقريع المثرّب حيث قال: أننكم لتكفرون، وتجعلون، والتفسير في قوله "ذلك رب العالمين" فإنه أتى بهذه الجملة مفسرة لذلك الإجمال الذي في قوله تعالى: الذي خلق وفعل وصنع، فأتى بالصفات قبل ذكر الموصوف، ولما أراد تبين ذكر الموصوف وتعريفه قال سبحانه: "ذلك رب العالمين" فهذه فائدة البسط والإطناب في الكلام الذي عدل فيه عن الإيجاز والاختصار. ومما جاء من ذلك في السنة النبوية قوله صلى الله عليه وسلم: "إن الدين النصيحة" قالوا: لمن يا رسول الله؟ قال: "لله ولكتابه ولنبيه ولأئمة المسلمين وعامتهم" وحاصل هذا الكلام إذا ورد من طريق الاختصار أن يقول بعد تخصيص الله تعالى بالذكر وكتابه ونبيه أن يقول: وللمسلمين فإنها لفظة جامعة للأئمة وللعمامة، فبسط هذه اللفظة ليفرد الأئمة بالذكر من جملة المسلمين، ولم يمكن الاختصار على الأئمة فيكون المعنى ناقصاً، إذ تمامه لا يكون إلا بذكر عامة المسلمين، فأتى بذلك البسط ليفيد تميم المعنى بعد تخصيص من يجب تخصيصه بالذكر، والله أعلم.

ومن شواهد البسط الشعرية للمتقدمين قول امرئ القيس كامل:

حوراء حانية على طفل

نظرت إليك بعين جازئة

فإن حاصل البيت تشبيه عين هذه الموصوفة بعين الظبية، فبسط الكلام ليزيده البسط معنى لولاه لم يوجد فيه، فإن لنظر الظبية إلى خشفها عاطفة عليه بجنو واشفاق من الحسن ما ليس لمطلق نظرها أو لنظرها في غير هذه الحالة.

ومن أمثله للمحدثين قول ابن المعتز في الخيري منسرح:

دهر بألوانهم على ورقه

قد نفض العاشقون ما صنع ال

فإن حاصل هذا المعنى الإخبار بصفرة الخيري فبسط هذا اللفظ الذي لو اقتصر عليه حصل به المراد، لما في البسط من إدماج الغزل في الوصف بغير لفظ التشبيه، ولا قرينته المعتادة، إذ هو من قسمي التشبيه اللذين بأداة وبغير أداة، بل تشبيه لا ظاهر ولا مقدر يفهم من فحوى الخطاب، إذ مفهوم اللفظ أن صفة الخيري تشبه صفة ألوان المهجورين.

من هذا الباب أيضاً قول البحري وقد تقدم في باب حسن الإتيان كامل:

أخجلتني بندي يديك فسودت

ما بيننا تلك اليد البيضاء

صلة غدت في الناس وهي قطيعة

عجباً وبر راح وهو جفاء

فإن حاصل البيتين أنك قطعتني عنك خجلاً من كثرة عطائك، فبسط هذا الكلام لتحصل زيادات من البديع لولا البسط ما حصلت كالطباقي في البيت الأول، بذكر السواد والبياض، والمقابلة في البيت الثاني بذكر الصلة والقطيعة، والغدو والرواح، والبر والجفاء، وعلى هذا فاعتبر ما تسمعه من الكلام الذي يقع فيه مثله، وقسه عليه.

والفرق بين البسط والاستقصاء أن الاستقصاء هو حصر كل ما يتفرع من المعنى ويتولد عنه، ويكون من سببه ولوازمه، بحيث لا يترك فيه موضعاً قد أحلقه بجدة الآخذ له، فيستدركه ليستحقه بذكره، والبسط نقل المعنى من الإيجاز إلى الإطناب بسبب بسط العبارة عنه، وإن لم يستقص كل ما يكون من لوازمه، والله أعلم.

باب الهجاء في معرض المدح

وهو أن يقصد المتكلم إلى هجاء إنسان فيأتي بألفاظ موجهة ظاهرها المدح وباطنها القدرح، فيوهم أنه بمدحه وهو يهجو، كقول بعضهم في بعض الأشراف وافر:

له حق وليس عليه حق

ومهما قال فالحسن الجميل

وقد كان الرسول يرى حقوقاً

عليه لغيره وهو الرسول

فأما ألفاظ البيت الأول على انفرادها فلا تكاد تصلح إلا للمدح ولا يفهم منها غيره؛ وأما البيت الثاني لو انفرد أيضاً لما فهم منه مدح ولا هجاء، وكان إلى باب من الأبواب أقرب من هذين البابين، لكمه لما اقترن بالأول أهل نفسه وأخاه للهجاء، وعدل بألفاظهما عن الثناء وحصل من اجتماعهما ما ليس لكل منهما على انفراده.

ومن أمثلة هذا الباب أيضاً قول عبد الصمد بن المعدل أو أبي العميشل في أبي تمام وقد كانت في لسانه
حبسة رمل مجزوء:

ر ويا عيسى بن مريم

يا نبي الله في الشع

ما لم تتكلم

أنت من أشعر خلق الله

فإن حال هذين البيتين حال البيتين اللذين قبلهما، إذ الأول منهما إذا انفرد كان مدحاً محضاً، وإذا اجتمعا
صار هجواً مجتاً، غير أن ثاني الآخرين مخالف لثاني الأولين.
ومن ملح هذا الباب قول السعيد بن سناء الملك رحمه الله في قواد سريع:

حلو التأنى حسن الإحتيال

لي صاحب أفديه من صاحب

ألف ما بين الهدى والضلال

لو شاء من رقة ألفاظه

قاد إلى المهجور طيف الخيال

يكفيك منه أنه ربما

وهذا النمط غير النمط الأول الذي قدمناه، وهذا من لطيف التوجيه، ولقد تشبث بأذيال القاضي السعيد
رحمه الله في هذا المقطوع بقولي فيمن ادعى الفقه والكرم وانتحل هاتين الشيمتين دون بقية الشيم، وهو
ممن يتهم سريع:

يمنع ذا الحاجة من فلسه

ابن فلان أكرم الناس لا

نص على التقليد في درسه

وهو فقيه ذو اجتهاد وقد

ويوجب الدخل على نفسه

يستحسن البحث على وجهه

وكل توطئة وقعت في هذا النمط الثاني صالحة للمدح البحث فإذا اقترنت بأبيات المعاني انقلب ما كان
فيها مدحاً تمكماً، وصارت هي بنفسها هجاء، والذي أفرد هذا الباب بنفسه عن باب التهكم مع أن
الذي فيه من المدح تمكّم هو أن التهكم لا تخلو ألفاظه من لفظة من اللفظ الدال على نوع من أنواع
الذم، أو لفظة يفهم من فحواها الهجو، وسيأتي بيان ذلك في باب التهكم، وألفاظ المدح في هذا الباب لا
يقع فيها شيء من ذلك، ولا تزال مفرقة ومجمعة تدل على مجرد المدح حتى يقترن بها ما يصرفها عن
ذلك، وشواهد التهكم لا تخلو عن ألفاظ التهكم في أبيات التوطئة، وأبيات المعاني، وما يقع في هذا الباب
من التهكم إنما يقع في التوطئة دون أبيات المعاني، والله أعلم.

باب العنوان

وهو أن يأخذ المتكلم في غرض له من وصف أو فخر أبو مدح أو هجاء أو عتاب أو غير ذلك، ثم يأتي لقصد تكميله بألفاظ تكون عنواناً لأخبار متقدمة، وقصص سالفه، كقول أبي نواس بسيط

يا هاشم بن خديج ليس فخركم
بقتل صهر رسول الله بالسدد
أدرجتم في إهاب العير جثته
لبئس ما قدمت أيدكم لغد
إن تقتلوا ابن أبي بكر فقد قتلت
حجراً بدارة ملحوب بنو أسد
ويوم قلتم لعمرى وهو يقتلكم
قتل الكلاب لقد أبرحت بالولد
ورب كندية قالت لجارتها
والدمع ينهل من مثى ومن وحد
ألهى امرأ القيس تشبيب بغانية
عن ثأره وصفات النوى والوتد

فقد أتى أبو نواس في هذه الأبيات بعدة عنوانات: منها قصة قتل محمد بن أبي بكر، وقتل حجر أبي امرئ القيس، وقتل عمرو بن هند كندة في ضمن هجاء من أراد هجوه، ومعيرة المهجو بما أشار إليه من الأخبار الدالة على هجاء قبيلته وملوكهم، ومثل ذلك قول أبي تمام في استعطافه مالك بن طوق على قومه كامل:

رفدوك في يوم الكلاب وشققوا
فيه المزاد بجحفل كلاب
وهم بعين أباغ راشوا للعدا
سهميك عند الحارث الحراب
وليالى الثرثار والحشاك قد
جلبوا الجياد لواحق الأقراب
فمضت كهولهم ودبر أمرهم
أحداثهم تدبير غير صواب

ثم قال بعد ذلك: كامل

لك في رسول الله أعظم أسوة
أعطى المؤلفة القلوب رضاهم
والجعفريون استقلت ظعنهم
عن قومهم وهم نجوم كلاب
وأجلها في سنة وكتاب
كماً ورد أخائذ الأحزاب

حتى إذا أخذ الفراق بقسطه
منهم وشط بهم عن الأحباب
ورأوا بلاد الله قد لفظتهم
أكنافها رجعوا إلى جواب
فأتوا كريم الخيم مثلك صافحاً
عن ذكر أحقاد وذكر ضباب

فانظر إلى ما أتى به أبو تمام في هذه الأبيات من العنوانات من السيرة النبوية وأيام العرب كيوم الكلاب، وأخبار بني جعفر بن كلاب مع ابن عمهم جواب، وكقوله أيضاً لأحمد بن أبي دواد: وافر:

تثبت إن قولاً كان زوراً
فأرث بين حي بني جلاح
وأتى النعمان قبلك في زياد
لظى حرب وحي بني مصاد
وإصدا في صدور الدهر قتلى
بني بدر على ذات الإصدا

فأتى بعنوان مشيراً إلى قصة النابغة حين وشى به الواشون إلى النعمان، وما جر ذلك السعي من الحروب التي انطوت عليها قطعة من أيام العرب، وكقوله لابن أبي دواد أيضاً: كامل

فاسمع مقالة زائر لم تشتهه
أسرى طريداً للحياء من التي
آراؤه عند اشتباه البيد
زعموا وليس لرهبة بطريد
قمر القبائل خالد بن يزيد
والركن من شيبان طود حديد
لو قد نفضت تهائمى ونجودى
قالوا يزيد بن المهلب مودى
وبناء هذا الإفك غير مشيد
ملك بشكر بني الملوك سعيد
عبد العزيز ولست دون وليد
لم يرم فيه إليك بالإقلىد
تلك الشهود على وهي شهودى
يوم ببغيمهم كيوم عبىد
ريش العقوق فكان غير سدىد
ما كان يعرف فضل عرف العود
للحاسد النعمى على المحسود

العنوانات في بعض هذه الأبيات، وإنما جئت بجملتها لثلا يتجرأ حسنهما، فمن عنواناتها إشارته إلى خبره مع ابن أبي دواد فيما نقل عنه من غضبه من مضر على سبيل الحسد له، حتى حجبه عنه وجفاه، ولم يرجع إليه إلا بشفاعة خالد بن يزيد الشيباني، ثم ذكر قصة يزيد بن المهلب حين هرب من حبس الحجاج، وكتب فيه إلى الوليد بما أحفظه عليه، حتى حلف على قتله، فاستشفع بسليمان أخيه، واستجار به، فأجاره، وأرسل به مع ولده أيوب، وولد الوليد عبد العزيز، ووصى ولده ألا يدع يده من يده إلا بعد

أمانه، وألا يوصل إليه بسوء إلا بعد قتله، ثم أشار إلى قصة عبيد بن الأبرص مع النعمان حين لقيه في يوم
بؤسه وقلته، وهذه القصص معروفة عند الأخباريين، فلم أطل بسياقة تفاصيلها، والكتاب العزيز محشو
بعنوانات العلوم، فمنها قوله سبحانه: "ألم تر أن الله يزجي سحاباً ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاماً فترى
الودق يخرج من خلاله ويتزل من السماء من جبال فيها من برد" الآية، فإن فيها عنوان العلم المعروف
بالآثار العلوية، ومن ذلك قوله تعالى: "انطلقوا إلى ظل ذي ثلاث شعب لا ظليل ولا يغني من اللهب"
وهذا عنوان العلم المنسوب إلى أقليدس، لأن المثلث الشكل أول أشكاله، وهو أصل الأشكال، وهو شكل
إذا نصب في الشمس لا يوجد له ظل لتحديد رؤوس زواياه، والله أعلم.

ومن ذلك قوله تعالى: "وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين" ثم ذكر
سبحانه في تفسير ذلك ملكوت السموات، مدججاً فيه ملكوت الأرض، فإن أقول الكواكب والنيرين إنما
يكون بما يحول بين الأبصار وبينها من مخروط ظل الأرض، وهذا عنوان العلم المعروف بالمجسطي والله
أعلم وقوله تعالى في بقية الآية المذكورة: "فلما جن عليه الليل رأى كوكباً" إلى آخر الآية، وهذا عنوان
علم الكلام في ترتيب نظم الدليل على حدوث العالم بما دل عليه أقول الكواكب من التغيير، والله أعلم.

باب الإيضاح

وهو أن يذكر المتكلم كلاماً في ظاهره لبس، ثم يوضحه في بقية كلامه، كقول الشاعر طويل:

يذكرنيك الخير والشر كله وقيل الخنا والعلم والحلم والجهل

فإن هذا الشاعر لو اقتصر على هذا البيت لأشكّل مراده على السامع، لجمعه بين ألفاظ المدح والهجاء،
فلما قال بعده طويل:

فألقاك عن مكروهاً متنزهاً وألقاك في محبوبها ولك الفضل

أوضح المعنى المراد، ورفع اللبس، وأوضح الشك وقد يكون الإيضاح في الوصف الذي لا يتعلق به مدح
ولا هجاء، وذلك أن يخبر المتكلم بخبر واحد عن شيء واحد يقع التعجب منه، ويشكّل الأمر فيه، ثم
يوضح ذلك الإشكال بأن يخبر عنه بما يفهم منه كشف اللبس عن الجزء الأول، كقول ابن حيوس
الدمشقي كامل:

ومقرطق يغني النديم بوجهه عن كأسه الملقى وعن إبريقه

فعل المدام ولونها ومذاقها في مقلتيه ووجنتيه وريقه

فإنه لو اقتصر على البيت الأول أشكل الأمر على السامع من جهة الوجه وإن كان حسناً لا يبغي به الندم عن الخمر فأوضح اللبس في البيت الثاني. والفرق بين الإيضاح والتفسير أن التفسير تفصيل الإجمال، والإيضاح رفع الإشكال، لأن المفسر من الكلام لا يكون فيه إشكال ألبتة، وقد جاء من الإيضاح في الكتاب العزيز قوله تعالى "كلما رزقوا منها من ثمرة رزقاً قالوا هذا الذي رزقنا من قبل" فإنه لو قدر الاقتصار على هذا المقدار لالتبس الأمر على المخاطب لكونه لا يدري هل أراد الله تعالى بقوله حكاية عنهم "هذا الذي رزقنا من قبل" الإشارة إلى صنف الثمرة، أو مقدار اللبس بقوله "وأتوا به متشابهاً" يعني والله أعلم أشياء يشبه بعضها بعضاً، وهي متغايرة الأصناف، لأن الوجه الثاني يوجب اللبس الذي وقع الفرار منه، لأنه لا يدري هل قولهم: "هذا الذي رزقنا من قبل" أي غير ما رزقنا، وحقيقته أو غيره، لكنه هو في المقدار مثله، فلما قال سبحانه: "وأتوا به متشابهاً" ارتفع هذا اللبس أيضاً لكون البلاغة تقتضيه، وإنما اقتضته البلاغة لكونه من المعلوم، إذ المداومة على مأكل واحد توجب السأم والملل، وإن كمال التنعم وتمام التفكه التلون في المطاعم، والتفنن في المآكل، فعلم من فحوى الخطاب أنه أراد سبحانه وهو أعلم الصنف لا المقدار ومن الإيضاح قوله تعالى: "ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم" وقال في غير هذا الموضع "ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم" ثم قال سبحانه في الأولى: "نحن نرزقكم"، وفي الثانية: "نحن نرزقهم"، وإيضاح هذا الإشكال أن يقال: إنه سبحانه لما قال في الأولى "ولا تقتلوا أولادكم من إملاق" دل هذا اللفظ على أن الفقر كان حاصلاً بقتلهم الأولاد بسبب وجوده، فلا جرم أنه سبحانه وتعالى قال: "نحن نرزقكم" أي ما يبغي فقركم، ولما قال في الثانية "ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق"، دل على أنهم أغنياء وإنما هم يخشون الفقر فلا جرم أنه قال: نحن نرزقهم، أي لا تظنوا أنكم ترزقون الأولاد من رزقكم فتفتقرون، نحن نرزقهم.

ومثل هذه الآية قوله تعالى: "إن الله فالق الحب والنوى يخرج الحي من الميت ومخرج الميت من الحي" فللقائل أن يقول: لم قدم التمدح بذكر الحب قبل النوى؟ ولم قال سبحانه: يخرج الحي من الميت، بلفظ الفعل؟، ثم قال: "ومخرج الميت من الحي" بلفظ الفاعل، والجواب أن يقال: تقديم الحب على النوى من المهم، والبلاغة تقديم المهم، كما قيل: إن المهم المقدم فإن ما كان مهماً فتقديم التمدح به أولى، لأنه قوت المخاطب وقوت دوابه، وذكر ذلك إنما هو في معرض الاعتداد بالنعم عليه، فكان تقديمه أولى، والنوى إنما ذكر لتتيمم المعنى، ليكمل التمدح فإنه في ذكره إشارة إلى الاعتداد على المخاطب بما يتفكه به، وطريق التهذيب والترتيب أن يكون ذكر ما يتفكه به بعد ذكر الأقوات التي لا غنى عنها، ولا بد للحيوان منها.

وأما قوله: "يخرج الحي" بلفظ الفعل عند تقديم إخراج الحي لما في الحي من الحركة التي تعينه عند

الخروج، فخروجه أسهل على مخرجه من خروج الميت من الحين فاقتضت البلاغة تقديمه بلفظ الفعل المقتضى للحال والاستقبال ليكون ذكر خروج الميت بعده انتقالاً من الأدنى إلى الأعلى، وجعل خروج الميت مستنداً إلى لفظ الفاعل المضاف الدال على المضي ليكون خروج الأصعب مفروغاً من وقوعه، ليكون أدل على القدرة وأبلغ في التمدح، والله أعلم.

ومن الإيضاح نوع يتقدم الإيضاح فيه على الإشكال كقوله تعالى: "نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم" إذ لو لم تتقدم تسمية النساء بالحرث، وهو موضع الزرع لوهم متوهم من قوله "أنى شئتم" إباحة الوطاء في غير المكان المشروع، والله أعلم.

باب التشكيك

وهو أن يأتي المتكلم في كلامه بلفظة تشكك المخاطب هل هي حشو أو أصلية لا غنى بالكلام عنها، مثل قوله تعالى: "يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين" فإن لفظة "بدين" تشكك السامع هل هي فضلة، إذ لفظة "تداينتم" تعني عنها، والناظر في علم البيان يعلم أنها أصلية، لأن لفظة الدين لها محامل، وتقول: داينت فلاناً المودة يعني جازيته ومنه "كما تدين تدان". ومن ذلك قول رؤبة "رجز".

داينت أروى والديون تقضى فمطلت بعضاً وأدت بعضاً

وأمثال هذا.

وكل هذا هو الدين المجازى الذي لا يكتب ولا يشهد عليه، ولما كان المراد في الآية الكريمة تبيين الدين المالي الذي يكتب ويشهد عليه وفيه، وتبيين الأحكام المعلقة به، وما ينبغي أن يعمل فيه، أوجبت البلاغة أن تقول "بدين" معناه يكتب ويشهد فيه، ليقول: "فاكتبوه"، والله أعلم.

ومن التشكيك ضرب آخر، وهو أن يأتي المتكلم بجمل من المعاني في كلامه، كل جملة معطوفة على الأخرى بأو التي هي موضوعة للتشكيك لا التي للتخيير والإباحة، كقول البحرري سريع:

كأنما يبسم عن لؤلؤ منضد أو بر أو أقاح

ومن التشكيك نوع التبس على بعض المؤلفين حتى أدخله في باب تجاهل العارف، وهو أن يرى المتكلم شيئاً شبيهاً بشيء فيشكك نفسه فيه، لقصد تقريب المشبه من المشبه به، ثم يعود عن المجاز إلى الحقيقة، فيزيل ذلك التشكيك، فإن لم يعد إلى الحقيقة فهو تجاهل العارف وإن عاد فهو التشكيك المحض، وهو كقول سلم طويل:

تبدت فقلت الشمس عند طلوعها بجلد غنى اللون عن أثر الورس

فلما كررت الطرف قلت لصاحبي على مريّة ما هاهنا مطلع الشمس

فانظر كيف رجع إلى التحقيق بعد التشكيك، وقد خفي هذا الفرق عن ابن رشيّق وغيره حتى أدخلوه في باب تجاهل العارف، وهذا خلاف قول أبي تمام طويل:

فوالله ما أدري أحلام نائم ألمت بنا أم كان في الركب يوشع

فإن سلماً رجع عن التشكيك وأبو تمام لم يرجع، فكان بيت سلم من التشكيك المحض، وبيت حبيب من تجاهل العارف، وقد ظهر الفرق بين البابين، والله أعلم.

باب الحيدة والانتقال

وهو أن يجيب المسؤول بجواب لا يصلح أن يكون جواباً عما سئل عنه، أو ينتقل المستدل إلى الاستدلال غير الذي كان آخذاً فيه، وإنما يكون هذا بلاغة إذا أتى به المستدل بعد معارضة بما يدل على أن المعارض لم يفهم استدلاله، فينتقل عنه إلى استدلال يقطع به الخصم عند فهمه، وقد جاء في الكتاب العزيز من ذلك قوله تعالى حكاية عن الخليل عليه السلام في قوله للجبار: "ربي الذي يحيي ويميت" فقال الجبار: "أنا أحيي وأميت" ثم دعا بإنسان فقتله، ودعا بمن وجب عليه القتل فأعتقه، فلما علم الخليل أنه لم يفهم معنى الإمامة والإحياء اللذين أرادهما انتقل إلى استدلال آخر فقال: "إن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب" فأتاه باستدلال لا يجد لاسمه اسماً مشتركاً معه، فتعلق بظاهره على طريق المغالطة، أو لأنه لم يفهم إلا ذلك الوجه الذي تعلق به، فلا جرم أن الجبار انقطع وأخبر الله سبحانه عنه بذلك حيث قال تعالى: "فبهت الذي كفر" وفيه نوع يجيد المسؤول عن خصوص الجواب إلى عمومه، لتفيد تلك الحيدة زيادة بيان لا تحصل بخصوص الجواب كقول عائشة رضي الله عنها وقد سألتها امرأة أتدخل المرأة الحمام؟ فقالت: "كل امرأة وضعت ثيابها في غير بيتها فقد عصت" أو كما قالت: "فانظر إلى حيدتها عن الخصوص إلى العموم، لتفيد زيادة في البيان، وتستوعب جميع أحكام الباب" صواب الحديث: ما من امرأة خلعت ثيابها في غير بيتها، إلا هتكت ما بينها وبين الله من حجاب. فهذا مثال ما يأتي من الحيدة بسبب سوء فهم الخصم أو لقصد الزيادة المفيدة.

وأما ما يأتي بسبب صحة المعارضة على طريق المغالطة كقول الشاعر منسرح:

يضرب في باب سرمه بوق

أنت تقول القرآن مخلوق

رأيت في الظلام منبطحاً

فقلت ماذا؟ فقال يبهنتي

وقول الآخر منسرح:

قالت أحب العذار أول ما
يببدو على الخد غير معوج
قلت: اسكتي لا يقال لائطة
قالت: وإلا عذارك الثلجي

باب الشماتة

وهو إظهار المسرة بمن نالته محنة، أو أصابته نكبة، ولم أستمع في ذلك مثل قول ابن الرومي كامل:

لا زال يومك عبرة لعدك
وبكت بشجوعين ذي حسدك
فلئن بكيت لطالما نكبت
بك همة لجأت إلى سندك
لو تسجد الأيام ما سجدت
إلا ليوم فت في عضدك
يا نعمة ولت غضارتها
ما كان أقبح حسنها بيدك
فلقد غدت بردا على كبدي
لما غدت ناراً على كبدي
ورأيت نعمى الله زائدة
لما استبان النقص في عدك
لم يبق لي مما برى جسدي
إلا بقايا الروح في جسدي

وقد جاء من الشماتة في الكتاب العزيز قوله تعالى: "ذق إنك أنت العزيز الكريم" فلفظة "ذق" شماتة، وبقية الكلام تهكم.

وأما الشماتة المحضة في القرآن فقوله تعالى لفرعون: "آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين".

باب التهكم

يقال: تهكمت البئر إذا تهدمت، وتهكمت عليه: اشتد غضبه. والتهكم المتكبر وقال أبو زيد: تهكمت: تعبت، وهكمت، غيرته تهكماً عبته، وعلى هذا يكون التهكم إما لشدة الغضب قد أوعد بلفظ البشارة أو لشدة الكبر وتهاونه بالمخاطب قد فعل ذلك أو ذكر بفعله عند العقوبة على سبب المعيرة له، فهذا أصله.

وهو في الاستعمال عبارة عن الإتيان بلفظ البشارة في موضع الإنذار، والوعد في مكان الوعيد، والمدح في معرض الاستهزاء، فشاهد البشارة من الكتاب العزيز قوله تعالى: "بشر المنافقين بأن لهم عذاباً أليماً" وقد مر في الباب الذي قبله قوله تعالى: "ذق إنك أنت العزيز الكريم" وهو شاهد الاستهزاء بلفظ المدح. ومن التهكم قول الزمخشري في تأويل قوله تعالى: "له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر

الله" قال: هم الحرس من حول السلطان يحفظونه على زعمه من أمر الله على سبيل التهكم به، فإنهم لا يحفظونه من أمر الله في الحقيقة إذا جاء، والله أعلم.
ومنه أيضاً قوله تعالى: "قل بئسما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين" فقوله سبحانه "إيمانكم" تهكم،
والله أعلم.
ومن السنة قول الرسول صلى الله عليه وسلم "بشر مال البخيل بحداد أو وارث".

وشاهد المدح في موضع الاستهزاء قول ابن الذروري في ابن أبي حصينة من أبيات خفيف:

لا تظنن حذبة الظهر عيباً فهي في الحسن من صفات الهلال

وكذاك القسي محدودبات=وهي أنكى من الظبا والعوالي

وإذا ما علا السنام ففيه لقروم الجمال أي جمال
وذنابي القطة وهي كما تع لم كانت موصوفة بالجلال
وأرى الانحناء في منسر البا زي لم يعد مخلب الرئبال
كون الله حذبة فيك إن شئ ت من الفضل أو من الإفضال
فأنت ربوة على طود حلم طال أو موجةً ببحر نوال
ما رأتها النساء إلا تمتت لو غدت حليةً لكل الرجال

ثم ختمها بقوله:

وإذا لم يكن من الهجر بدُّ فعسى أن تزورني في الخيال

وكقول ابن الرومي سريع:

فيا له من عمل صالح يرفعه الله إلى أسفل

وأحسب أن أول من نطق بالتهكم في شعره امرؤ القيس، حيث يقول: متقارب:

فأنشبت أظفاره في النساء فقلت هبلت ألا تبصر

فإن قوله للشور هبلت ألا تبصر من التهكم اللطيف. وأطرف ما سمعت في التهكم قول حماد عجرد مجزوء
الكامل:

فيا ابن نوح يا أبا ال حلس ويا بن القتب

ومن نشأ والده بين الربا والكتب

يا عربي يا عربي

والفرق بين التهكم والهزل الذي يراد به الجدل أن التهكم ظاهره جد وباطنه هزل، وهو ضد الأول، لأن الهزل الذي يراد به الجدل يكون ظاهره هزلاً وباطنه جداً.

يا عربي يا عربي

باب التنذير

وهو أن يأتي المتكلم بنادرة حلوة، أو مجنة مستطرفة، وهو يقع في الجدل والهزل ومن لطيف ما جاء منه في الجدل وبديعه قوله تعالى: "فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذي يغشى عليه من الموت" فانظر مبالغته سبحانه وتعالى في وصف المنافقين بالجن والخوف حيث أخبر عنهم بالخبر الصادق أنهم عند الخوف تدور أعينهم عند النظر كحالة من يغشى عليه من الموت، ولو اقتصر سبحانه وتعالى على قوله "كالذي يغشى عليه" كان كافياً في المقصود، لكن أراد الزيادة على المقدار الذي قصد من المبالغة، فأوغل بقوله سبحانه "من الموت" إذ حالة المغشى عليه من الموت أشد من حالة غيره، ولا شك في أن المنافقين من الجن والخوف من الموت بهذه المثابة، وذلك الذي دعاهم إلى النفاق، فإن من كان قوي النفس شجاع القلب، لا يرتضي النفاق، إذ هو لا يخشى الموت ولا يخافه، وفي هذا الكلام من طريف التنذير لمن يتدبره ما يبهرج كل نادرة.

وأما ما جاء منه في الهزل فكقول أبي تمام فيمن سرق له شعراً، وهو محمد بن يزيد الرقي خفيف:

من بنو بحدل من ابن الحباب

من بنو بحدل من ابن الحباب

رث أم من عتيبة بن شهاب

من طفيل من عامر أو من الحا

بال هتاك كل خيس وغاب

إنما الضيغم الهصور أبو الأش

وهو للحين راتع في كتاب

من عدت خيله على سرح شعري

دي سبايا تبعن في الأعراب

يا عذارى الكلام صرتن من بع

ت أسيراً ذا عبرة واكتتاب

لو ترى منطقي أسيراً لأصبح

ثم ختمها بقوله: طال رغي إليك مما أفا سيه ورغي يا رب فاحفظ ثيابي وكقوله في هجاء موسى بن إبراهيم الرافقي كامل:

لك لم يقولوا قم فأنت مصاب

عجباً لقوم يسمعون مدائحي

غلطوا ومانوا بل أنا الكذاب

نيزوا بكذاب مسيلمة فقد

وما رويت أطف من قول ضياء الدين موسى بن ملهم الكاتب في الرشيد عمر الفوى وكان به داء
الثعلب وهو من نوادر ما قيل في أقرع وافر:

من الشيخ الرشيد وأنكروه

أقول لمعشر غلطوا وعضوا

متى يضع العمامة تعرفوه

هو ابن جلا وطلاع الثنايا

والفرق بين التندير وما قبله من باب التهكم وما يلتبس بالتهكم من الهزل الذي يراد به الجد أن التندير
ظاهره وباطنه هزل بخلاف البابين، والله أعلم.

باب الإسجال بعد المغالطة

وهو أن يقصد الشاعر غرضاً من ممدوح، فيأتي بألفاظ تقرر بلوغه ذلك الغرض، فيسجل عليه ذلك، مثل
أن يشترط لبلوغ ذلك الغرض شرطاً يلزم من وقوعه وقوع ذلك الغرض، ثم يقرر وقوع ذلك الغرض
مغالطة، ليقع المشروط كقول بعض المحدثين بسيط

إلا ارتعادي وتصفيقي بأسناني

جاء الشتاء وما عندي لقرته

هبني هلكت فهبني بعض أكفاني

فإن هلكت فمولانا يكفني

وقد تأتي المغالطة بلا إسجال إذا أراد المتكلم إخفاء مراده فسأل عن شيء وهو يريد غيره بشرط أن
يكون المسئول عنه يتعلق بمراده تعلقاً قريباً لطيفاً، كقول أبي نواس خفيف:

كيف خلفتم أبا عثمان

أسأل القادمين من حكرمان

رك من حالها فسل عن جنان

فيقولون لي جنان كما س

كيف لم يغن عندهم كتمانني

ما لهم لا يبارك الله فيهم

فإنه سأل عن أخى سيد جنان وإنما أراد جناناً، ويقع الإسجال بغير مغالطة، وهذا القسم هو الذي يأتي
في الكتاب العزيز كثيراً، ومنه قوله تعالى: "ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم" والله أعلم.

باب الفرائد

هذا باب مختص بالفصاحة دون البلاغة، لأن مفهومه إتيان المتكلم بلفظة تتزل من كلامه منزلة الفريدة
من حب العقد تدل على عظم فصاحته وقوة عارضته، وشدة عرييته، حتى إن هذه اللفظة لو سقطت من
الكلام لعز على الفصحاء غرامتها وهي كقول أبي نواس كامل:

وكأن سعدي إذ تودعنا وقد اشرب الدمع أن يكفا

فلفظة اشرب من الفرائد التي لا نظير لها في فصيح الكلام، ولا يقع مثلها إلا على سبيل الندور، وكقوله أيضاً بسيط

حتى إذا ما غلا ماء الشباب لها وأفعمت في تمام الجسم والعصب

فاستعارة الغليان لماء الشباب من الفرائد البديعة، وكذلك قول أبي تمام وافر:

وقدما كنت معسول الأمانى ومأدوم القوافي بالسداد

فلفظة مأدوم من الفرائد التي لا يقدر على نظيرها، ولا يعثر على شبيهها وكقول البحري في المعتز بالله خفيف:

لا بس حلة الوفاء ومن أب هة السيف أن يكون محلى

فقوله أهمة من الفرائد الغريبة في مكانها التي يعجز الفصحاء عن الإتيان بها، وقد جاء في الكتاب العزيز من ذلك غرائب يعز حصرها، منها قوله سبحانه وتعالى: "فإذا نزل بساحتهم فساء صباح المنذرين" وانظر إلى قوله تعالى: "فلما استياسوا منه خلصوا نجياً" فألفاظ هذه الجملة كلها فرائد معدومة النظائر، وكقوله عز وجل: "حتى إذا فزع عن قلوبهم" فانظر إلى لفظة "فزع" وغرابة فصاحتها، تعلم أن الفكر لا يكاد يقع على مثلها وكقوله تبارك وتعالى: "يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور" وهذه الفريدة في هذه الآية أعجب من كل ما تقدم، فإن لفظة "خائنة" سهلة مستعملة، كثيرة الجريان على ألسن الناس، لكن على انفرادها، فلما أضيفت إلى "الأعين" حصل لها من غرابة التركيب ما جعل لها في النفوس هذا الموقع العظيم، بحيث لا يستطيع الإتيان بمثلها، ولا يكاد يقع في شيء من فصيح الكلام شبيهها، وأشباه ذلك في الكتاب العزيز لا يدخل تحت الحصر، وقد ورد في السنة النبوية على صاحبها الصلاة والسلام مواضع شريفة، منها قوله عليه السلام: استذكروا القرآن فإنه أشد تفصيلاً من صدور الرجال من النعم من عقلها فالج لفظي استذكروا، وتفصيلاً ترى ما يذهل عقل السامع فصاحة، ويروعه جزالة وحلاوة، وكذلك قوله عليه السلام: "إذا ذكر الصالحون فحى هلاً بعمر" فإن لفظة "حى، هلاً" من الفرائد العجيبة وفيها من الفصاحة ما يعجز عن مثله كل فصيح، وعلى هذه الأمثلة فقس ترشد إن شاء الله تعالى.

باب الإلغاز والتعمية

ويسمى المحاجة، والتعمية أعم أسمائه، وهو أن يريد المتكلم شيئاً فيعبر عنه بعبارات يدل ظاهرها على

غيره، وباطنها عليها، وهو يكون في النثر والشعر، فمما جاء منه في النثر ما أملاه على السيد الشريف العالم الفاضل تاج الدين والشرف ابن الحلبي أبقاه الله من رسالة ذكر أنها أملاها عليه منشئها، فحفظها ثم نسيها، ولم يبق على خاطره منها إلا ما أذكره، وهو، بلغني أيدك الله أنك ركبت الأفق، وسرت تطاً ذوائب النجم من عن يمين جعفر، وشمال سعيد، حتى أتيت إلى الضير، فطفقت تستحسن عينيه ملياً، وقصدت ابنة الوادي فبقرت بطنها عن خمس كأصابع الكف، وأتاك الغلام بيضاء من ملاح القرية، فأصليت الجميع ناراً تلظى، فبردت بنارهن ناراً محرقة، ورأيت عثمان وهو يسر أبا بكر فقتلته. ومنها ورويت أن الشافعي قال: لا بأس بالمرأة إذا احتاجت أن تبيع زوجها لتنفق ثمنه. وذكر لي الشريف تاج الشرف أن منشئها كان شريفاً عباسياً، وانسى اسمه. ومن النثر الذي جاء في هذا الباب قول ابن جراح ملغزاً في دملج: ماشى وجهه قمر، وقلبه حجر، إن نبذته صبر، واعتزل البشر، وإن قرعته ملاً الأسماع، وإن أدخلته السوق أبي أن يباع، وإن فككت شطره دعا لك، وإن ركبت نصفه الآخر هالك، وربما كثر مالك، وإن رخمته آلمك عند الفجر، وأورثك الضجر وقت العصر.

ومثال ما أتى من هذا الباب في الشعر قول بعض العرب ملغزاً في الأيام "رجز":

وسبعة كلهم إخوان ما إن يموتون وهم شبان

لم يرهم في موضع إنسان

ومن ذلك قول أبي العلاء المعري ملغزاً في الإبرة مما أنشدنيه الفاضل عفيف الدين علي بن عدلان النحوي عفا الله عنه طويل:

سعت ذات سم في قميصي فغادرت به أثراً والله شاف من السم

كست قيصراً ثوب الجمال وتبعاً وكسرى وعادت وهي عارية الجسم

وللمعري ملغزاً في الهريسة: طويل

أنتنا وما لاح الصباح وقد سرت إلينا الدجى إن الحرائر لا تسرى

منعمة بيضاء ما نفحاتها بعطر ولكن هن أشهى من العطر

لها والد عال وأم كريمة وحاضنة سوداء جائشة الصدر

إذا أودعت سراً غلا في ضميرها فباتت من السر المصون على الجمر

وكقوله ملغزاً في قطعة ملح من ملح الطعام من إنشاد المذكور طويل:

وبيضاء من سر الملاح ملكتها فلما قضت إربي حبوت بها صربي

تحثهم بعد الطعام على الشرب

فباتوا بها مستمتعين ولم تزل

وأمثلة هذا الباب من الشعر لا تحصى كثرة.

باب التصرف

وهو أن يأتي من قوة الشاعر إلى معنى فيبرزه في عدة صور، تارة بلفظ الاستعارة، وطوراً بلفظ الإيجاز، وآونة بلفظ الإرداف، وحيناً بلفظ الحقيقة، كقول امرئ القيس يصف الليل طويلاً:

علي بأنواع الهموم ليبتلي

وليل كموج البحر أرخى سدوله

وأردف أعجازاً وناء بكل كل

فقلت له لما تمطى بصلبه

فإنه أبرز هذا المعنى في لفظ الاستعارة، تم تصرف فيه فأتى به بلفظ الإيجاز، فقال: طويلاً:

بكل مغار الفتل شدت بيدبل

فيا لك من ليل كأن نجومه

فإن التقدير: فيا لك من ليل طويلاً، فحذف الصفة، لدلالة التشبيه عليها، ثم تصرف فيه فأخرجه بلفظ الإرداف فقال طويلاً:

بأمراس كتان إلى صم جندل

كأن الثريا علقت في مصامها

ثم تصرف فيه فعبر عنه بلفظ الحقيقة فقال طويلاً:

بصبح وما الإصباح منك بأمثل

ألا أيها الليل الطويل ألا انجل

ولا شبهة في أن هذا إنما يأتي من قوة الشاعر وقدرته، ولذلك أتت قصص القرآن الكريم في صور شتى من البلاغة ما بين الإيجاز والإطناب واختلاف معاني الألفاظ، وشهرة ذلك تعني عن شرحه. والله أعلم .

باب النزاهة

وهو يختص غالباً بفن الهجاء، وإن وقع نادراً في غيره، فإنه عبارة عن نزاهة ألفاظ الهجاء وغيره من الفحش حتى يكون الهجاء كما قال فيه أبو عمرو بن العلاء وقد سئل عن أحسن الهجاء فقال: الذي إذا أنشدته العذراء في خدرها لا يقبح عليها، مثل قول جرير كامل:

يوم التفاخر لم تزن مثقالا

لو أن تغب جمعت أحسابها

وكقوله وافر:

فلا كعباً بلغت ولا كلاباً

فغض الطرف إنك من نمير

وكقول عمرو بن معد يكرب الزبيدي طويلاً:

أطاعن عن أبناء حرب وفرت

ظلت كأني لرماح دريئة

وقال ابن الأعرابي: أهجي بيت وأمضه قول الشاعر طويل:

تخبرهم عن جيشهم كل مرتع

وقد علمت عرساك أنك آيب

ومن شواهد هذا الباب للمولدين قول أبي تمام: بسيط

وهمة جوهر معروفها عرض

مودة ذهب أثمارها شبه

وقوله:

وفي البلاد مناديح ومضطرب

بني لهيعة ما بالي وبالكم

إلا لجاجتكم في أنكم عرب

لجاجة لي فيكم ليس يشبهها

وكالذي قاله معد بن الحسين بن جبارة لرجل كان يدعو قوماً إلى سماع قينة له، ثم انكشف له بعد ذلك أنهم ينالون منها القبيح بسيط

في ربة العود لا في رنة العود

ألم أقل لك إن القوم بغيتهم

وأنت غاد بها في مسرح البيد

لا تأسفن على النشاة التي عقرت

فانظر إلى هذه المعاني ونزاهة ألفاظها، وقس على ذلك.

وقد وقع من النزاهة في الكتاب العزيز قوله تعالى: "وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مدعين أفي قلوبهم مرض، أم ارتابوا أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله بل أولئك هم الظالمون" فإن ألفاظ الدم للمخبر عنهم في هذه الآية أتت متزهة عما يقع في غير هذا القسم من الهجاء واتفق في هذه الآية من النزاهة صحة الأقسام، فإنه لم يبق بعد قوله "أفي قلوبهم مرض" إلى قوله "أن يحيف الله عليهم ورسوله" قسماً من هذا المعنى حتى ذكره، لأن المرض عبارة عن إبطان الكفر، والريبة والشك والتردد وذكر الخوف من الحيف، فذكر جميع الأقسام التي هي أسباب القعود عن الإجابة لحكم الله ورسوله، وحصل مع ذلك الافتنان، فإنها تضمنت فن الفخر بوصف نفسه ورسوله بالعدل مدججاً في الإيغال الذي وقع في فاصلة الآية، فإن ملزوم قوله تعالى "بل أولئك هم الظالمون" وصفه ورسوله بالعدل، فافترن التشكيك بصحة الأقسام، وأدمج الافتنان في الإيغال، فسبحان المتكلم بهذا الكلام.

باب التسليم

وهو أن يفرض المتكلم فرضاً محالاً إما منفيّاً أو مشروطاً بحروف الامتناع، ليكون ما ذكره ممتنع الوقوع لامتناع وقوع مشروطه، ثم يسلم بوقوع ذلك تسليماً جدلياً، ويدل على تقدير عدم الفائدة في وقوعه على تقدير وقوعه، كقوله: "ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إليه إذاً لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض" فكأن معنى الكلام والله أعلم أنه ليس مع الله سبحانه من إليه، وكأن قائلًا قال: لو سلمنا أن معه إلهاً للزم من ذلك التسليم ذهاب كل إله بما خلق، وعلو بعضهم على بعض، فلا يتم في العالم أمر ولا ينفذ حكم، والواقع خلاف ذلك، ففرض إلهين فصاعداً محال، ومثال ذلك قول الطرماح بسيط

لو كان يخفى على الرحمن خافية من خلقه خفيت عنه بنو أسد

فهذا أيضاً على تقدير التسليم أن الله سبحانه وتعالى لا يجوز أن تخفى عليه خافية، فقال الشاعر: لو كان مما يجوز أن يخفى عليه شيء من خلقه خفيت عليه هذه القبيلة.

باب الإفتنان

وهو أن يفتن المتكلم فيأتي بفنين متضادين من فنون الكلام في بيت واحد أو جملة واحدة مثل النسيب والحماسة والهجاء والهناء والعزاء.

فأما ما افتن فيه بالجمع بين النسيب والحماسة فكقول عنتره كامل:

إن تغد في دوني القناع فإنني طب بأخذ الفارس، المستلثم

وكقول عبد الله بن طاهر بن الحسين وافر:

أحبك يا ظلوم وأنت عندي مكان الروح من جسد الجبان

ولو أنني أقول مكان روحي خشيت عليك بادرة الطعان

ومما جمع فيه بين تهنئة وتعزية قول بعض الشعراء ليزيد بن معاوية حين دفن أباه وجلس للناس بسيط

اصبر يزيد فقد فارقت ذا ثقة واشكر حباء الذي بالملك أصفاك

لا رزء أصبح في الأقوام تعلمه كما رزئت ولا عقبى كعقباك

وأحسن شعر فنن فيه بالجمع بين تهنئة وتعزية قول أبي نواس للعباس بن الفضل بن الربيع يعزيه بالرشيد ويهنئه بالأمين طويل:

تعز أبا العباس عن خير هالك بأكرم حي كان أو هو كائن

لهن مساو مرة ومحاسن

حوادث أيام تدور صروفها

فلا أنت مغبون ولا الموت غابن

وفي الحي بالميت الذي غيب الثرى

والأمثلة في هذا الباب كثيرة جداً. ومما جاء من ذلك في الكتاب العزيز قوله تعالى: "ثم نجحي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثياً" فجمع هذا الكلام بين الوعد والوعيد. ومما جمع فيه بين التعزية والفخر قوله سبحانه: "كل من عليها فان ويبق وجه ربك ذو الجلال والإكرام".

باب المراجعة

وهو أن يحكى المتكلم مراجعة في القول، ومحاوره في الحديث جرت بينه وبين غيره أو بين اثنين غيره بأوجز عبارة وأرشق سبك وأسهل ألفاظ، إما في بيت واحد، أو في أبيات، أو جملة واحدة، كقول عمر بن أبي ربيعة "رمل":

مثل قيد الرمح يعدو بي الأغر

بينما ينعتني أبصرني

قالت الوسطى لها: هذا عمر

قالت الكبرى: ترى من ذا الفتى

قد عرفناه، وهل يخفى القمر؟

قالت الصغرى وقد تيمتها

وفي الأبيات حبيبان يدلان على قوة عارضة الشاعر وحذقه بمعرفة وضع الكلام مواضعه: أحدهما، وهو الذي يدل على قوة العارضة، أن قوافي الأبيات لو أطلقت لكانت كلها مرفوعة كما قيل في أرجوزة رؤبة التي أولها "رجز":

قد جبر الدين الإله فجبر

فإنهم قالوا: إنها تزيد على التسعين شطراً، ولو أطلقت قوافيها لكانت كلها مفتوحة. والخبء الآخر كونه جعل التي عرفته وعرفت به وشبهته تشبيهاً يدل على شغفها به هي الصغرى، ليدل بدليل الالتزام على أنه فتى السن إذ الفتية من النساء لا تميل إلا للفتى من الرجال غالباً وختم قوله بما أخرج مخرج المثل السائر موزوناً، ولا يقال إنما مالت الصغرى له دون أختها لضعف عقلها وعدم تجربتها، فإني أقول: قد تخلص من هذا الدخل بكونه أخير أن الكبرى التي هي أعقلهن ما كانت رأتة قبل، وإنما كانت تمواه على السماع به، فلما رأتة وعلمت أنه ذلك الموصوف لها، أظهرت من وجدها به على مقدار عقلها ما أظهرت من سؤاها عنه فحسب، ولم تتجاوز ذلك، أو سألت عنه وقد علمته لتلتذ بسماع اسمه من باب تجاهل العارف الذي توجهه شدة الوله والعقل يمنعها من التصريح، والوسطى سارعت إلى التعريف باسمه للعلم، فكانت دون الكبرى في الثبات الذي توجهه سنها وتوسطها، والصغرى

لكون منزلتها في الثبات دون الأختين أظهرت من معرفته وصفته ما دلت به على شدة شغفها به، وكل ذلك وإن لم يكن كذلك فألفاظ الشعر تدل عليه.
ومن جيد أمثلة هذا الباب قول أبي نواس مجزوء الرمل:

قال لي يوماً سليماً
قال صفني وعلياً
قلت إني إن أقل ما
قال: كلا قلت: مهلاً
قال قل لي: قلت: فاسمع
قال: صفني قلت: تمنع

وإلى لطافة البحري في باب المراجعة تنتهي الرياسة حيث قال خفيف:

بت أسقيه صفوة الراح حتى
قلت: عبد العزيز تفديك روعي
وضع الكأس مائلاً يتكفا
قال: لبيك قلت: لبيك ألفاً
قال: لا أستطيعها، ثم أغفى
هاكها، قال: هاتها، قلت: خذها

باب السلب والإيجاب

وهو أن يقصد المادح أن يفرد ممدوحه بصفة مدح لا يشركه فيها غيره، فينفيها في أول كلامه عن جميع الناس، ويثبتها لممدوحه بعد ذلك، كقول الخنساء في أخيها طويل:

وما بلغت كف امرئ متناولاً
وما بلغ المهدون للناس مدحة
من المجد إلا والذي نلت أطول
وإن أطنبوا إلا الذي فيك أفضل

فقصد أبو نواس أخذ معنى الثاني من البيتين فلم يتهيأ له أخذه إلا في بيتين، وقصر عنه بعد ذلك تقصيراً كثيراً، وناهيك بأبي نواس، وذلك أنه قال طويل:

إذا نحن أثنينا عليك بصالح
وإن جرت الألفاظ يوماً بمدحة
فأنت كما نثني وفوق الذي نثني
لغيرك إنساناً فأنت الذي نعني

أما كون معنى البيتين من معنى البيت الثاني من شعر الخنساء فلأن حاصل بيتي أبي نواس أنك فوق ثنائنا الصالح عليك، وإن مدحنا غيرك كان له لفظ المدح ولك معناه، وهذا كله هو عين قول الخنساء:

وما بلغ المهدون للناس مدحة

لأن حاصل قولها إن مدح المداحين فيك أفضل من مدحهم للناس، وإن أطنبوا في مدح الناس هو قول أبي نواس في بيته الأول طويل:

فأنت كما ننثي وفوق الذي ننثي

وقصر أبو نواس عن لحاقها في الزيادة التي هي قولها: وإن أطنبوا، وقولها: "وما بلغ المهدون للناس" فكل هذه المبالغات قصر عنها أبو نواس، وأما قول أبي نواس في بيته الثاني "فأنت الذي ننثي" هو عين قولها إلا الذي فيك أفضل فإن مفهومه أن كل من يهدي مدحاً لأحد من البشر له فيك فضل مما أهدي لغيرك، ووجه تقصير أبي نواس في هذا المعنى أنه جعل ممدوحه بمدح بالنية دون القول، وبالتأويل دون التصريح، والخنساء جعلت أختها ممدوحاً من جميع الناس بالتصريح والمعنى بأفضل ما مدح به كل الناس، فبين المعنيين من البون ما تراه.

ومن هذا الباب ما يقع في التشبيه والإخبار وغيرهما بحيث يكون للمشبه أو المخبر عنه صفات فينفي بعضها ليثبت بعضها وينفي واحدة ليوجب أختها، أو يسلبها ويوجب غيرها، كقول رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلي عليه السلام "أما ترضى أن تكون مني بمرتلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي" فسلب النبوة ليوجب بقية المنازل التي كانت لهارون من موسى عليهما السلام. ومن ذلك قول الشاعر طويل:

فصرت كأني يوسف بين اخوتي ولكن تعدتني النبوة والحسن

فسلب نفسه هاتين الصفتين من صفات يوسف عليه السلام ليثبت ما عدهما مما امتحن به يوسف من إخوته، وهذا البيت وإن كان من شواهد الاستدراك فهو مما يليق أن يستشهد به هاهنا. ومن ذلك قول ابن الرومي طويل:

كأننا مع الجدران في جنباته دمي في انقطاع الرزق لا في المحاسن

لما كانت الدمى موصوفة بهاتين الصفتين، وكانت إحدهما لائحة بالمعنى الذي قصده، أثبتتها ونفى ما عدها من الصفة التي لا تليق بغرضه، والله أعلم.

باب الإبهام

وهو أن يقول المتكلم كلاماً يحتمل معنيين متضادين، لا يتميز أحدهما على الآخر، ولا يأتي في كلامه بما يحصل به التمييز فيما بعد ذلك، بل يقصد إبهام الأمر فيهما قصداً، والفرق بينه وبين الاشتراك المعيب أن

الاشترار لا يقع إلا في لفظة مفردة لها مفهومان، لا يعلم أيهما أراد المتكلم، والإبهام لا يكون إلا في الحمل المركبة المفيدة، ويختص بالفنون كالمديح، والهجاء، وغيرهما، ولا كذلك الاشتراك، والفرق بينه وبين الإيضاح أن البيت الملتبس الذي يفتقر إلى الإيضاح يتضمن ألفاظ المديح الصريح والهجاء البين فيكون فيه مدح وهجاء، والإبهام لا يفهم من ألفاظه مدح ولا هجاء البتة، بل يكون لفظه صالحاً للأمرين، وإن لم يكن فيه من لفظ المدح والهجاء شيء.

ومثاله ما حكى أن بعض الشعراء هنا الحسن بن سهيل بصهر المأمون مع من هنا، فأتاب الناس كلهم وحرمه، فكتب إليه: إن أنت تهاديت على حرمانى عملت فيك بيتاً لا يعلم أحد مدحتك فيه أم هجوتك؟ فاستحضره وسأله عن قوله، فاعترف، فقال: لا أعطيك أو تفعل، فقال مجزوء الخفيف:

ولبوران في الختن

بارك الله للحسن

ت ولكن بينت من؟

يا إمام الهدى ظفر

فلم يعلم أراد بقوله: "بينت من" في الرفعة أو في الضعة، فاستحسن الحسن منه ذلك، وناشده، أسمع هذا المعنى أم ابتكرته؟ فقال: لا والله، إلا نقلته من شعر شاعر مطبوع كان بعث به، ففصل قباء عند خياط أعور اسمه زيد، قال له الخياط على طريق العبث به: سأتيك به لا يدري أبا هو أم دواج فقال الشاعر: لئن فعلت لأعلمن فيك بيتاً لا يعلم أحد ممن سمعه أدعوت لك فيه أم دعوت عليك؟ ففعل الخياط، فقال الشاعر مجزوء الرمل:

ليت عينيه سواء

جاء من زيد قباء

فما علم أحد هل أراد أن الصحيحة تساوي السقيمة أو العكس، قال: فاستحسن الحسن صدقه، أضعاف استحسانه حذقه، وأضعف جائزته.

ومن إبهام العرب قول رجل من بني عبد شمس بن سعد بن تميم طويل:

إلى الزاد شلت من يدي الأصابع

تضيفني وهنا فقلت أسابقي

من الأرض إلا وهو صديان جائع

ولم تلق للسعدي ضيفاً بقفرة

فإن ظاهر الشعر مبهم معناه، فيظن سامعه أنه أراد ضيفاً من البشر، فيكون قد هجا به نفسه، وإنما هو يصف ذئباً غشى رحله في الليل وهو بالقمر وهو فخر محض، والله أعلم.

باب القول بالموجب

وهو أن يخاطب المتكلم مخاطباً بكلام فيعمد المخاطب إلى كل كلمة مفردة من كلام المتكلم فيبني عليها من لفظة ما يوجب عكس معنى المتكلم، وذلك عين القول بالموجب، لأن حقيقته رد الخصم كلام خصمه من فحوى لفظه كقول ابن حجاج خفيف:

ت وأبرمت قلت: حبل ودادي

قلت: طولت قال، لي: بل تطول

ومن شواهدة أيضاً كامل:

ضاعت ولكن منك يعني لو تعي

إن قال: قد ضاعت فيصدق أنها

وقعت ولكن منه أحسن موقع

أو قال: قد وقعت فيصدق أنها

وقد مر هذان البيتان في باب الاستدراك، والفرق بين القول بالموجب وبين التعطف من وجهين: أحدهما أن اللفظة التي تزيد في التعطف لا تكون مع أختها في قسم واحد، وإنما تكون كل لفظة في شطر. والثاني أن الثانية من كلمتي التعطف لا تكون عكس معنى الكلام، وهذه تعكس معناه، والله أعلم.

باب حصر الجزئي وإحاقه بالكلي

وهو أن يأتي المتكلم إلى نوع ما فيجعله بالتعظيم له جنساً بعد حصر أقسام الأنواع منه والأجناس كقوله تعالى "وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر" الآية فإنه سبحانه تمدح بأنه يعلم ما في البر والبحر من أصناف الحيوان والنبات والجماد حاصراً لجزئيات المولدات ورأى أن الاقتصار على ذلك لا يكمل به التمدح، لاحتمال أن يظن ضعيف أنه يعلم الكلليات دون الجزئيات، فإن المولدات وإن كانت جزئيات بالنسبة إلى جملة العالم فكل واحد منها كلي بالنسبة إلى ما تحته من الأجناس والأنواع والأصناف، فقال لكامل التمدح "وما تسقط من ورقة إلا يعلمها" وعلم أن علم ذلك يشاركه فيه من مخلوقاته كل ذي إدراك، فتمدح بما لا يشارك فيه، فقال: "ولا حبة في ظلمات الأرض" ثم ألحق هذه الجزئيات بعد حصرها بالكلليات حيث قال: "ولا رطب ولا يابس" لأن جميع المولدات لا تخرج عن هذين القسمين، وتنظم إليها الأمهات التي هي العناصر الأربع التي تولدت منها المولدات، ثم قال: "إلا في كتاب مبين" إشارة إلى أن علمه بذلك علم من معلومه مقيد في كتاب مبين فهو يأمن الضلال والنسيان كما قال: "علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى" ومثل هذا التمدح قوله تعالى: "عالم الغيب والشهادة" فإنه سبحانه لما تمدح بعلم الغيب، وعلم أن التمدح بذلك على انفراده لا يحصل به كمال التمدح، فقال: "والشهادة" لأن علم الغيب بالنسبة إلينا علم كلي، وعلم الشهادة بالنسبة إلينا علم بالجزئيات، والاقْتِصَارُ على علم الغيب يوهم بعض الضعفاء أنه لا يعلم من المشاهدات ما يعلمه، فكان

التمدح بعلم الشهادة أبلغ، ولذلك شاع الانتقال إليه.
وكقول الشاعر طويل:

إليك طوى عرض البسيطة جاهل
قصارى المطايا أن يلوح لها القصر
وكننت وعزمي في الظلام وصارمي
ثلاثة أشباه كما اجتمع النسر
فبشرت آمالي بملك هو الورى
ودار هي الدنيا ويوم هو الدهر

والبيت الأخير أردت، فإن هذا الشاعر قصد تعظيم الممدوح وتفخيم أمر داره التي قصده فيها، ومدح يومه الذي لقيه فيه، فجعل الممدوح جميع الورى والدار التي لقيه فيها الدنيا، واليوم الذي رآه فيه الدهر فجعل الجزئي كلياً بعد حصر أقسام الجزئي، أما جعله الجزئي كلياً فلأن الممدوح جزء من الورى، والدار جزء من الدنيا، واليوم جزء من الدهر، وأما حصر أقسام الجزئي فلأن العالم عبارة عن أجسام وظروف زمان وظروف مكان، فقد حصر ذلك.

باب المقارنة

وهو أن يقرن الشاعر الاستعارة بالتشبيه أو المبالغة، أو غير ذلك من المعاني في كلامه بوصول يخفي أثره ويدق موضعه، إلا عن الحاذق المدمن النظر في هذه الصناعة ومما جاء من ذلك في الكتاب العزيز قوله تعالى: "وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم ألا ساء ما يزرون" فإن هذه الآية الكريمة اقترن فيها التنكيت بتجنيس التغير، أما التنكيت ففي قوله تعالى "على ظهورهم" والنكته في ترجيح الحمل على الظهور دون الرؤوس كون الظهور أقوى للحمل، فأشار بها سبحانه إلى ثقل الأوزار، والتجنيس بين أوزارهم ويزرون، لأن الأولى اسم، والثانية فعل وأكثر ما يقع ذلك بالحمل الشرطية، كقول إدريس بن اليمان من شعراء المغرب طويل:

وكننت إذا استنزلت من جانب الرضا
نزلت نزول الغيث في البلد المحل
وإن هيج الأعداء منك حفيظة
وقعت وقوع النار في الحطب الجزل

فإن هذا الشاعر لاءم بين الاستعارة بقوله في صدر البيت الأول.

وكننت إذا استنزلت من جانب الرضا

وبين التشبيه بقوله في عجز البيت: "نزلت نزول الغيث": أي مثل نزول الغيث، أحسن ملاءمة، إذ جعل أول العجز فعلاً مضارعاً للفعال الذي في الصدر، ومصدر ذلك الفعل هو الذي لاءم بين القسمين في

المعنى، فحصل بذلك التلاحم اللطيف، والاتصال الدقيق، وقارن بين الاستعارة والتشبيه أحسن مقارنة، وكذلك فعل في البيت الثاني حيث قال بعد ذكر تهييج الحفيظة: وقت وقوع النار، فهذا مثال ما اقترنت فيه الاستعارة بالتشبيه، وأما ما اقترنت فيه الاستعارة بالمبالغة فمثاله قول النابغة الذبياني طويل:

وأنت ربيع ينعش الناس سيبه وسيف أعيرته المنية قاطع

فإنه سمي الممدوح ربيعاً استعارة لكونه يحيا به النبات والحيوان وسماه سيفاً لأنه تموت به الأقران، وفي ضمن كل استعارة منها مبالغة تامة أما الأولى منها فجارية على التحقيق بأن إحياء الربيع أعم من إحياء الكريم فجعل الكريم ربيعاً مبالغة ممكنة جارية على التحقيق، وأما الثانية فإنها أبلغ من الأولى حيث جعل سيفاً أعيرته المنية قاطعاً، فإنه لو عكس حتى يجعله مستعيراً للمنية كان ذلك بليغاً، والأول أبلغ فقد اقترن في هذا البيت المبالغة والتكميل، فإنه لما فرغ من صدر البيت ورأى نفسه قد مدح ممدوحه بمجرد الكرم وعلم أن المدح غير كامل، فكماله بالشجاعة فحصل في البيت تكميل مقترن بالمبالغة. ومن أحسن ما سمعت في المقارنة قول أبي تمام طويل:

فإن أنا لم يحمدك عني صاغراً عدوك فاعلم أنني غير حامد

فإن هذا البيت وقعت فيه مقارنتان: إحداهما في ظاهره، والأخرى في باطنه، فوقع في ظاهره المبالغة مقترنة بالتكميل في قوله: "يحمدك عدوك صاغراً"، لأن حمد العدو مبالغة، وكونه صاغراً تكميل، وفي باطن البيت الافتنان مقترن بالإدماج، إلا أن الافتنان فيه مدمج في المبالغة، وذلك أنه لا يقدر على أن يجعل عدو الممدوح بمدحه صاغراً إلا بما يجيد فيه من المدائح التي تدعو استجادتها واستحسانها كل من يسمعها إلى حفظها واللهج بها من صديق وعدو، فيضطر العدو إلى أن يلهج بتلك المدائح المقولة فيه: وهو صغير عند نفسه وعند من يسمعها، يقول: ليس بعاقل من يعادي من يقال فيه مثل هذا فيصغر عند نفسه وعند غيره، ويهون مقداره، وفي ذلك افتخار للشاعر ومدح للممدوح، وهذان فنان: أحدهما مديح، والآخر افتخار، الأول ظاهر وهو المديح، والثاني باطن وهو الافتخار وحصل ذلك في البيت تعليق لطيف، وهو تعليق صحة مدح الشاعر على مدح عدو الممدوح له صاغراً، فإنه شرط على نفسه أنه ما لم يمدح ممدوحه عدوه فهو غير حامد له.

ومن أحسن ما سمعت في ذلك قول تميم بن مقبل طويل:

لئن غدوة حتى نزعنا عشية وقد مات شطر الشمس والشرط مدنف

وهذا مما اقترن فيه الإرداف بالاستعارة، لأنه عبر عن الغروب بموت شطر الشمس في أول العجز، واستعار للشرط الثاني الدنف في آخر العجز، وهذا بليغ جداً، حيث أتت المقارنة فيه في قسم واحد.

والفرق بين المقارنة والتعليق والإدماج أنهما في المعاني، وذاتك في الفنون والمعاني معاً.

ومن المقارنة ما يقترنه الشاعر من شعره غيره بشعره، وهو عكس الإبداع والاستعانة، لأن الشاعر في هذين البابين يقدم شعر نفسه على شعر غيره وفي المقارنة يقدم شعر غيره على شعر نفسه، كما قال الرشيد هارون للجماز يوماً: أجز وابدء، الملك لله وحده، فقال الجماز: وللخليفة بعده وللمحب إذا ما حبيبه بات عنده، وهذا شاهد القسم الثاني منها.

ومن المقارنة ما يقترنه الشاعر من شعر نفسه فيكون في فن، فإذا قرن البيت بآخر صار من فن غيره، وقد جاء من شواهد هذا القسم ما استشهدنا به في باب الهجاء في معرض المدح، وهو الذي قاله بعض الشعراء في بعض الأشراف وافر:

ومهما قال فالحسن الجميل

له حق وليس عليه حق

عليه لغيره وهو الرسول

وقد كان الرسول يرى حقوقاً

فإن البيت الأول مدح محض، فلما اقترن بالثاني صار هجواً بحتاً، وهذا أوضح فرق بين المقارنة والتعليق والإدماج.

باب المناقضة

وهو تعليق الشرط على نقيضين: ممكن ومستحيل، ومراد المتكلم المستحيل دون الممكن، ليؤثر التعليق عدم وقوع المشروط، فكأن المتكلم ناقض نفسه في الظاهر، إذ شرط وقوع أمر بوقوع نقيضين، ومثال ذلك قول النابغة الذبياني وافر:

إذا ما شبت أو شاب الغراب

وإنك سوف تحلم أو تناهى

فإن تعليقه وقوع حلم المخاطب على شبيهه ممكن، وعلى شيب الغراب مستحيل، ومراده الثاني لا الأول، لأن مقصوده أن يقول: إنك لا تحلم أبداً.

والفرق بينه وبين نفي الشيء بإيجابه أن هذا الباب ليس فيه نفي ولا إيجاب، ونفي الشيء بإيجابه ليس فيه شرط ولا معناه.

ومن المناقضة نوع آخر يرجع أصله إلى الأول، وهو أن يأتي في لفظ الوعد ما يدل على الوعيد، فيسر المخاطب ويسوءه في وقت واحد، فيتوجه على ذلك اللفظ إشكال يوضحه بعده، كقوله تعالى: "إنا كاشفوا العذاب قليلاً إنكم عائدون" فقوله سبحانه: "إنا كاشفوا العذاب" وعد، ووصف كشف العذاب

بالقلة وعيد، فهو يسر ويسوء في حالة واحدة، وإنما وصفه بالقلة المنافية للكرم من أجل أنه علق كشف العذاب بشرط عدم العود إلى موجب العذاب، فاقتضت البلاغة أن يقول قليلاً ليدمج في دلائل النبوة الإخبار بالغيب، وهو وقوع العود، فيرشح بذكر لفظة "قليلاً" للإيضاح والإخبار بوقوع العود الذي اقتضى أن يكون كشف العذاب قليلاً من أجله. والشرط المأخوذ من قوة الكلام هو الذي يرد هذا النوع إلى النوع الأول. والله أعلم.

باب الانفصال

وهو أن يقول المتكلم كلاماً يتوجه عليه فيه دخل إذا اقتصر عليه، فيأتي بعده بما ينفصل به عن ذلك إما ظاهراً أو باطناً يظهره التأويل كقوله تعالى: "وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ما فرطنا في الكتاب من شيء ثم إلى ربهم يحشرون" فإن على ظاهر هذه الآية حصل من جهة أن الطائر يطير بجناحيه، فيكون الإخبار بذلك عرياً عن الفائدة، والانفصال عن ذلك هو أنه سبحانه لما قال: "وما من دابة في الأرض" أوجبت البلاغة أن يردف ذلك بقوله "ولا طائر" في السماء أو في الجو "يطير بجناحيه" فأراد الإيجاز، فوجب أن يحذف إحدى الجملتين إما في السماء أو يطير وما فيها من الضمير، ولا سبيل إلى حذف الفعل، لأنه الذي يتعلق به الجار والمجرور الذي يمر بجناحيه وذكره مطلوب في الآية، لأن ذكر الجناح يفصل صاحبه من الهمج الذي يظهر وهو يخال أنه يطير كالنمل والجمعلان وغير ذلك، لأن هذا الصنف قد ذكر في صنف ما دب ودرج في الأرض، والآية قصد بها صحة التقسيم، لأنه سبحانه لما استوعب كل ما يدب على الأرض في صدرها أراد الإتيان بما يعم الذي يطير في الجو، ولا يطير في الجو إلا طائر، ولا يسمى طائراً إلا إذا طار بجناحين، ولا تسمى آلة الطيران جناحاً إلا إذا كانت ذات قصب وريش وأباهر وخوافي وقوادم، فقوله سبحانه: "ولا طائر" بعد ذكر الدواب موضح لما أراد من صحة التقسيم، ولفظة طائر رشحت لفظة يطير لمحيثها بعدها، ولفظة يطير رشحت الإتيان بلفظة الجناحين، فحصل من مجموع ذلك الانفصال عن الدخول المتوجه على ظاهر الآية، والله أعلم.

وكقول أبي فراس مجزوء الرمل:

ت من الناس تعد

في حرام الناس إن كن

ولقد نبئت إبليـس إذا راك يصد

ثقل فيك وبرد

ليس من تقوى ولكن

فإن أبا فراس لو اقتصر على البيت الثاني لكان الهجاء فيه غير مخلص، وكان يتوجه دخل بسبب احتمال البيت للمدح، والإتيان به في معرض الهجو، فانفصل عن هذا الدخيل بالبيت الثالث. والفرق بينه وبين الاحتراس عموم الاحتراس وخصوص هذا الباب، لأن البيت المدخول من هذا الباب يكون الدخيل المتوجه عليه من جهة كونه صالحاً لضدين من الفنون، وهو في سياق أبيات مقصودة في فن واحد منهما، والاحتراس يكون بيته مدخولاً من هذا الوجه وغيره، والله أعلم.

باب الإبداع

وهو أن تكون مفردات كلمات البيت من الشعر، أو الفصل من النثر، أو الجملة المفيدة، متضمنة بديعاً بحيث تأتي في البيت الواحد والقرينة الواحدة عدة ضروب من البديع بحسب عدد كلماته أو جملته، وربما كان في الكلمة الواحدة المفردة ضربان فصاعداً من البديع، ومتمى لم تكن كل كلمة بهذه المثابة فليس بإبداع، وما رأيت في جميع ما استقرت من الكلام المنثور والشعر الموزون كآية كريمة من كتاب الله تعالى: استخرجت منها إحدأ وعشرين ضرباً من المحاسن، وهي قوله تعالى: "وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي وغيض الماء وقضي الأمر واستوت على الجودي وقيل بعداً للقوم الظالمين". وهي المناسبة التامة بين أقلعي وابلعي، والمطابقة بذكر الأرض والسماء، والمجاز في قوله "يا سماء" فإن المراد والله أعلم يا مطر السماء، والاستعارة في قوله "أقلعي"، والإشارة في قوله تعالى "وغيض الماء" فإنه عبر بهاتين اللفظتين عن معان كثيرة، والتمثيل في قوله تعالى "وقضي الأمر" فإنه عبر عن هلاك الهالكين ونجاة الناجين بلفظ فيه بعد عن لفظ المعنى الموضوع له، والإرداف في قوله تعالى: "واستوت على الجودي" فإنه عبر عن استقرارها بهذا المكان، وجلوسها جلوساً متمكناً لا زيغ فيه ولا ميل، بلفظ قريب من لفظ المعنى، والتعليل، لأن غيظ الماء علة الاستواء، وصحة التقسيم إذ استوعب سبحانه أقسام أحوال الماء حالة نقصه، إذ ليس إلا احتباس ماء السماء، واحتقان الماء الذي ينبع من الأرض، وغيض الماء الحاصل على ظهرها. والاحتراس في قوله تعالى: "وقيل بعداً للقوم الظالمين" إذ الدعاء يشعر بأنهم مستحقوا الهلاك احتراساً من ضعيف يتوهم أن الهلاك لعمومه ربما شمل من يستحق ومن لا يستحق فتأكد بالدعاء على الهالكين لكونهم مستحقين ذلك، والإيضاح في قوله للقوم ليتبين لهم أن القوم هم الذين سبق ذكرهم في الآية المتقدمة عليها، حيث قال تعالى: "وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه" وفي قوله قبل ذلك "ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون" فأتى سبحانه في آخر هذا الآية بلفظة القوم التي الألف واللام فيها

للعهد لبيّن أهمّ القوم الذين سبق ذكرهم ووصفهم بالظلم كما وصفهم في أول الكلام بالظلم، وذلك مما يوضح المعنى ويبيّنه، فعلم أن لفظة القوم هاهنا ليست فضلة في الكلام، وأنها يحصل بسقوطها لبس في المعنى، وعدم بيان الكلام محتاج له، والمساواة، لأن لفظ الآية لا يزيد على معناها، وحسن النسق لأنه سبحانه عطف القضايا بعضها على بعض بحسن ترتيب حسبما ما وقعت وائتلاف اللفظ مع المعنى، لأن كل لفظة لا يصلح موضعها غيرها، والإيجاز لأنه سبحانه اقتصر القصة بلفظها مستوعبة بحيث لم يخل منها بشيء في أحصر عبارة، والتسليم، لأن أول الآية إلى قوله تعالى: أقلعي يقتضي آخرها، والتهديب، لأن مفردات الألفاظ موصوفة بصفات الحسن كل لفظة سمحة سهلة، مخارج الحروف عليها رونق الفصاحة، مع الخلو عن البشاعة والتركيب، سليمة من التعقيد وأسبابه، والتقديم والتأخير والحذف المخل والزيادة المسهبة وحسن البيان من جهة أن السامع لا يتوقف في فهم معنى الكلام، ولا يشكل عليه شيء من هذا النظام، والتمكين، لأن الفاصلة مستقرة في قرارها، مطمئنة في مكانها، غير قلقلة ولا مستدعاة، والانسجام، وهو تحدر الكلام بسهولة كما ينسجم الماء وينساب انسياب العليل من الهواء، وما في مجموع الآية من الإبداع وهو الذي سمي به هذا الباب من أن كل لفظة لا تخلو عن أن يستخرج منها ضرب أو ضربان من البديع، فهذه آية عدة ألفاظها سبع عشرة لفظة تتضمن إحدا وعشرين ضرباً من البديع غير ما يتعدد من ضربها، فإن الاستعارة وقعت منها في موضعين: وهما استعارة الابتلاع للأرض، والإقلاع للسماء. والحجاز في مكانين، في قوله سبحانه "ويا سماء" وفي الإشارة والتمثيل والإرداف لأن الحجاز مجازان: مجاز بالحذف، ومجاز بالتغيير، وقد وقعا معاً فانظر رحمك الله إلى عظمة هذا الكلام، لتعلم ما انطوى عليه نظمه، وما تضمنه لفظه، وقد وقع لي بيت من قصيدة أشرفية وقع فيه ستة عشر ضرباً من البديع بعد ما تكرر فيه من ضروب البديع، وهو طويل:

فضحت الحيا والبحر جوداً فقد بكى ال حيا من حياء منك والتطم البحر

فاتفتت فيه الاستعارة في ثلاثة مواضع: في افتضاح الحياة، وبكائه، وحيائه، والمبالغة إذ جعلت الممدوح يفضح الحيا والبحر بجوده، والتفسير في قولي "جوداً" وقولي "من حياء منك"، والإغراق لما في جملة القافية من زيادة المبالغة، والترشيح بذكر الاستعارة الأولى للاستعارة الثانية، والتجنيس بين الحيا والحيا، التورية في قولي والتطم البحر والترشيح للتورية بذكر البكاء، فإن ذكره هو الذي يرشح للتورية، وصحة التقسيم في حصر القسمين اللذين يضرب بهما المثل في الجود، إذ لا ثالث لهما، والتصدير في كون البحر مذكوراً في صدر البيت، وهو قافية، والتعليل في كون العلة في بكاء الحيا والتطم البحر فضيحتهما بجوده،

والتسهم في كون صدر البيت عطف بعضها على بعض بأصح ترتيب، والإرداف، لأي عبرت عن نهاية جوده بفضوح الحيا والبحر، والتمثيل في كوني عبرت عن عظم الجود بيكاء الحيا من الحياء والتظام البحر، فهذا ما في تفاصيل البيت وأما ما في جملة، فالمساواة، لكون لفظه قالباً لمعناه، وائتلاف لفظه مع معناه في كون ألفاظ البيت ملائمة مختارة، لا يصلح موضع كل لفظة غيرها، ولم يحصل فيه من تعقيد السبك والتقديم وأسبابه وسوء الجوار ما يوجب له الاستثقال. والإبداع هذا بابه، لكون كل لفظة من مفرداته تتضمن نوعاً أو نوعين من البديع، فقد حصل فيه ستة عشر ضرباً من البديع، وتكررت الاستعارة فيه في ثلاثة مواضع، والترشيح في موضعين، والتفسير في موضعين، وهو ثنتا عشرة لفظة، والله عز وجل أعلم.

باب حسن الخاتمة

يجب على الشاعر والناثر أن يختما كلامهما بأحسن خاتمة، فإنها آخر ما يبقى في الأسماع، ولأها ربما حفظت من دون سائر الكلام في غالب الأحوال فيجب أن يجتهد في رشاقتها ونضجها وحلاوتها وجزالتها، وقد رأيت القاضي الفاضل عبد الرحيم رحمه الله تعالى كثيراً ما كان يحترز في ذلك ويتوخاه، فيأتي منه بكل نكتة ترقص لها القلوب، وتغنى عن النسيب في المحبوب، فمن ذلك خاتمة كتاب أحاب به القاضي السعيد بن سناء الملك رحمه الله حيث قال: وهذا القاضي مسؤول في أن يتحولنا ببدائعه ويؤمننا دثور الفكر بروائعه، ولا يضمن علينا بما هو سهل عليه من منافعه وإلا دخل فيمن منع الماعون، وخرج من الذين هم لأمانات الفضيلة وعهدها راعون.

وقوله في خاتمة رسالة كتبها للملك الناصر صلاح الدين رحمه الله تعالى في حق أولاد ابن أبي اليسر، وقد قصدوه بعد موت أبيهم، فخلع عليهم، فأعلموا الفاضل بذلك، وسألوه كتاباً إليه على يدهم بالوصية عليهم، والإذن لهم في تقبيل يده، فقال في آخره، وإن ييسط لهم وجهه الكريم عند مثولهم وسلامهم، ليزرع بشره حداد الحزن عن قلوبهم كما نزع بره حداد الماتم عن أجسامهم؟ لا زال مولانا عاقلة الدهران جنى على أوليائه وداهم ولا عدموه منعماً إن سألوه أعطاهم، وإن لم يسألوه بدأهم، والمتقدم في جميع فنون البلاغة، وخصوصاً هذا النوع منها على بلغاء البدو والحضر، بل على جميع فصحاء البشر، حاشا رسول الله صلى الله عليه وسلم، ابن عمه علي بن أبي طالب عليه السلام، فمن خواتم كلامه قوله في آخر جواب أحاب به معاوية: ثم ذكرت أن ليس لي ولأصحابي عندك إلا السيف، فلقد أضحكت بعد استعبار، متى ألفت بني عبد المطلب من الأعداء ناكلين، وبالسيوف مخوفين، لبث قليلاً يلحق الهيجا حمل فسيطلبك من تطلب، ويقرب منك ما تستبعد، وإني مرقل نحوك بجحفل من المهاجرين والأنصار والتابعين لهم بإحسان، شديد زحامهم، ساطع قتامهم متسربلين سراويل الموت، أحب اللقاء إليهم لقاء رهم، قد

صحبتهم ذرية بدرية، وسيوف هاشمية، عرفت مواقع نضالها في أخيك وخالك وجدك، "وما هي من الظالمين ببعيد".

وأما حسن الخاتمة في الشعر فقليل في أشعار المتقدمين، وأكثر ما عني بذلك المحدثون، فمن المجيدين في ذلك أبو نواس، حيث قال في خاتمة قصيدة مدح بها الأمين كامل:

فبقيت للعلم الذي تهدي به وتقااست عن يومك الأيام

وكقوله في خاتمة قصيدة مدح بها الخصيب عامل مصر كامل:

أنت الخصيب وهذه مصر فتدافعا فكلكما بحر

لا تعفدا بي عن مدى أمني شيئاً فما لكما به عذر

ويحق لي إذ صرت بينكما ألا يحل بساحتي فقر

وكقوله فيه طويل:

وإني جدير إذ بلغتك بالغنى وأنت بما أملت منك جدير

فإن تولني منك الجميل فأهله وإلا فإنني عاذر وشكور

وكقوله للعباس بن الفضل بن الربيع طويل:

إليك غدت بي حاجة لم أبح بها أخاف عليها شامتاً فأدراي

فأرخ عليها ستر معروفك الذي سترت به قدماً على عواري

وكقول أبي تمام في خاتمة القصيدة التي ذكر فيها فتح عمورية بسيط

إن كان بين ليالي الدهر من رحم موصولة وذمام غير منقضب

فبين أيامك اللاتي نصرت بها وبين أيام بدر أقرب النسب

أبقت بني الأصفر الممراض كاسمهم صفر الوجوه وجلت أوجه العرب

وكقوله في خاتمة قصيدة اعتذر بها إلى ابن الهيثم كامل:

أفنع المعروف وهو كأنه قمر الدجى إني إذا للثيم

مثر من المال الذي ملكنتني أعناقه ومن الوفاء عديم

فأروح في بردين لم يلبسهما قبلي فتى وهما الغنى واللوم

وكقوله في قصيدة استعطف بها ابن الزيات طويل:

أكابرننا عطفاً علينا فإننا بنا ظمأ برح وأنتم مناهل

وكقوله في خاتمة قصيدة اعتذر فيها إلى موسى بن إبراهيم الراقبي طويل:

فإن يك ذنب عن أوتك هفوة على خطأ مني فعذري على عمد

وكقوله في خاتمة قصيدة مخاطباً مالك بن طوق بسيط

لا توقظوا الشر عن قوم فقد غنيت دياركم وهي تدعي زهرة النعم

هذا ابن خالكم يهدي نصيحته من يتهم فهو فيكم غير متهم

وكقول أبي الطيب المتنبي في خاتمة قصيدة من السيفيات وافر:

فلا حطت لك الهيجاء سرجاً ولا ذاقت لك الدنيا فراقا

وكقوله في خاتمة أخرى من السيفيات بسيط

لا زلت تضرب من عاداك عن عرض يعاجل النصر في مستأخر الأجل

وكقوله أيضاً لسيف الدولة وقد ذكر الخيل بسيط

فلا هممت بها إلا على ظفر ولا وصلت بها إلا إلى أمل

وكقوله فيه أيضاً طويل:

أخذت على الأرواح كل ثنية من العيش تعطي من تشاء وتحرم

فلا موت إلا من سنانك يتقى ولا رزق إلا من يمينك يقسم

وكقوله في خاتمة القصيدة التي هنا بها أبا وائل بخلاصه من الأسر متقارب:

فذي الدار أغدر من مومس وأدع من كفة الحابل

تفاني الرجال على حبها ولا يحصلون على طائل

وقوله في خاتمة قصيدة ودع بها ابن العميد طويل:

فجد لي بقلب إن رحلت فإنني أخلف قلبي عند من فضله عندي

فلو فارقت جسمي إليك حياته لقلت أصابت غير مذمومة العهد

وجميع خواتم السور الفرقانية في غاية الحسن ونهاية الكمال، لأنها بين أدعية ووصايا وفرائض، وتحميد وتهليل، إلى غير ذلك من الخواتم التي لا يبقى في النفوس بعدها تطلع ولا تشوف إلى ما يقال، كالدعاء الذي ختمت به سورة البقرة، والوصايا التي ختمت بها آل عمران، والفرائض التي ختمت بها النساء، والتبجيل والتعظيم الذي ختمت بهما المائة، والوعد والوعيد الذي ختمت بهما، الأنعام، والتحريض على

العبادة بوصف حال الملائكة التي ختمت به الأعراف، والحض على الجهاد وصلة الأرحام اللذين ختمت بهما الأنفال، ووصف الرسول صلى الله عليه وسلم ومدحه والاعتداد على الأمم به، ووسيلته ووصيته، والتهليل، الذي ختمت به براءة وتسليته عليه السلام التي ختمت بها سورة يونس، ومثلها خاتمة هود، ووصف القرآن ومدحه الذي ختمت بها سورة يونس، ومثلها خاتمة هود، ووصف القرآن ومدحه الذي ختمت به يوسف، والرد على من كذب الرسول صلى الله عليه وسلم الذي ختمت به الرعد، ومدح القرآن وذكر فائدته والعلة في إنزاله الذي ختمت به إبراهيم، ووصية الرسول التي ختمت بها الحجر، وتسليته الرسول عليه السلام وطمأنينته ووعد الله سبحانه الذي ختمت به النحل، والتحميد الذي ختمت به سبحان وتخصيص الرسول صلى الله عليه وسلم على الإبلاغ والإقرار بالبشرية والأمر بالتوحيد الذي ختمت به الكهف، وقد أتيت على نصف القرآن ليكون مثلاً لمن نظر في بقيته ولم أطل بالبقية لكثرة سور النصف الأخير والله أعلم.

هذا آخر الأبواب التي استنبطها، وهي ثلاثون باباً، وبها تكملت عدة أبواب الكتاب مائة وواحد وعشرون باباً سليمة من التداخل والتوارد، بعد ما حذفت من أبواب ليس فيها للمتقدمين سوى الأسماء ومسمياتها متداخلة في غيرها، ومن أنعم النظر في الكتب التي نظرت فيها ودقق الفكر في كتابي، وقع على صحة ما ذكرت، فرحم الله من نظر فيه، وسد ما يجده من الخلل، واغفر ما يقع عليه من السهو الزلل، وعمل بقولي سريع:

يعلم أن الكامل الله

ما أحسن الإغضاء من منصف

بفضل عفوٍ عند رؤياه

إن أبصرت عيناك عيباً فجد

قال صاحب الكتاب: كنت قد سودت من هذا الكتاب نسخة قبل هذا النسخة مختصرة جداً حسبما ما رسم لي من ألفته له، ورسم أن يبيضها الفاضل ضياء الدين موسى بن ملهم الكاتب، وفقه الله تعالى، فلما يبيضها تفضل وكتب في آخرها بسيط

مثلاً له في مبانیه ومعناه

هذا كتاب بديع ما رأى أحد

وزادنا جملاً عما سمعناه

حوى تصانيف هذا العلم أجمعها

ذا الفن أجمع أقصاه وأدناه

لا تعجبوا من لطيف الحجم قام به

ولم يزيد قدرها عما عهدناه

فقد رأيتم عصا موسى كم التقفت

لقد عجبت من غفلة السابقين إلى هذا العلم عما اهتدى إليه هذا المصنف، وكيف مروا معرضين عما استخرج من درر هذا المؤلف، وصفوا صورة جواد وتركوا وصف سبق، وشببوا بظني وأضربوا عن

حسن عينيه وعنقه، واشتغلوا عن حمد الغيث، وشكر ودقه، بالإطناب في تشبيه رعدده وبرقه، فذكر ما نسوه، وكمل ما نقصوه لا جرم أنه سبق أولهم، وأصبح أفضلهم وكل هذا بسعادة من صنف لأجله كتابه، وقصد به بابه وجناحه، فإن سعادته ترد الآجن عذباً، واليابس رطباً، وتنشر موتى الإملاق قبل المعاد، وتغير اسمي شر وظلوم بسعدي وسعاد، وهمته تنظر من أعلى العلو إلى الشمس، وقدرته تكاد ترد الماضي وتصير اليوم أمس، لا زال بابه مقصوداً، وقاصده محسوداً، والقدر من أعوانه معدوداً، وإن كان القدر بهذا القدر مسعوداً.

تم الكتاب بحمد الله تعالى وحسن توفيقه، وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم.

الفهرس

3.....	المقدمة
8.....	الجزء الاول
8.....	باب الاستعارة
9.....	باب التحنيس
13.....	باب الطباق
16.....	باب رد الأعجاز على الصدور
17.....	باب المذهب الكلامي
18.....	باب الالتفات
20.....	باب التمام
21.....	باب الاستطراد
22.....	باب تأكيد المدح بما يشبه الذم
23.....	باب تجاهل العارف
24.....	باب الهزل الذي يراد به الجحد
24.....	باب حسن التضمين
25.....	باب الكناية
27.....	باب الإفراط في الصفة
33.....	باب التشبيه
36.....	باب عتاب المرء نفسه
37.....	باب حسن الابتداءات
39.....	باب صحة الأقسام
42.....	باب صحة المقابلات
45.....	باب صحة التفسير والتبيين
50.....	باب ائتلاف اللفظ مع المعنى
51.....	باب المساواة
52.....	باب الإشارة
56.....	باب الأرداف والتتبع
59.....	باب التمثيل
63.....	باب ائتلاف اللفظ مع الوزن

63.....	باب ائتلاف المعنى مع الوزن.....
64.....	باب ائتلاف القافية.....
64.....	مع ما يدل عليه سائر البيت.....
66.....	باب التوشيح.....
67.....	باب الإيغال.....
73.....	الجزء الثاني.....
73.....	باب الاحتراس.....
74.....	باب المواردية.....
74.....	براء مهملة.....
76.....	باب التردد.....
77.....	باب التعطف.....
77.....	وقد سماه قوم المشاكلة.....
79.....	باب التفويف.....
80.....	باب التسهيم.....
82.....	باب التورية.....
83.....	باب الترشيح.....
85.....	باب الاستخدام.....
86.....	باب التغاير.....
93.....	باب الطاعة والعصيان.....
95.....	باب التسميط.....
96.....	باب المماثلة.....
96.....	باب التجزئة.....
97.....	باب التسجيع.....
97.....	باب الترصيع.....
99.....	باب التصريع.....
100.....	باب التشطير.....
100.....	باب التعليل.....
102.....	باب التطريز.....
103.....	باب التوشيح.....
104.....	باب العكس والتبديل.....

105.....	باب الإغراق
106.....	باب الغلق
108.....	باب القسم
110.....	باب الاستدراك والرجوع
111.....	باب الاستثناء
113.....	باب الاشتراك
115.....	باب التلخيص
116.....	باب جمع المختلفة والمؤلفة
118.....	باب التوهيم
119.....	باب الاطراد
121.....	الجزء الثالث
121.....	باب التكميل
123.....	باب المناسبة
129.....	باب التكرار
130.....	باب نفي الشيء بإيجابه
131.....	باب الإيداع
132.....	باب الاستعانة
133.....	باب الموازنة
134.....	باب التذييل
137.....	باب المشاكلة
140.....	باب المواردة
140.....	باب التهذيب والتأديب
152.....	باب حسن النسق
153.....	باب الانسجام
156.....	باب براعة التخلص
158.....	باب الحل
159.....	باب العقد
160.....	باب التعليق
162.....	باب الإدماج
164.....	باب الإزدواج

164.....	باب الاتساع.....
165.....	باب المحاز.....
166.....	باب الإيجاز.....
172.....	باب سلامة الاختراع من الإتياع.....
174.....	باب حسن الإتياع.....
181.....	باب حسن البيان.....
184.....	باب التوليد.....
186.....	باب التنكيت.....
188.....	باب الاتفاق.....
189.....	باب النوادر.....
195.....	باب الالتزام.....
196.....	باب تشابه الأطراف.....
197.....	باب التوءم.....
199.....	الجزء الرابع.....
199.....	باب التخيير.....
201.....	باب التدييج.....
203.....	باب التمزيج.....
204.....	باب الاستقصاء.....
206.....	باب البسط.....
209.....	باب الهجاء في معرض المدح.....
210.....	باب العنوان.....
213.....	باب الإيضاح.....
215.....	باب التشكيك.....
216.....	باب الحيدة والانتقال.....
217.....	باب الشماتة.....
217.....	باب التهكم.....
219.....	باب التنذير.....
220.....	باب الإسجال بعد المغالطة.....
220.....	باب الفرائد.....
221.....	باب الإلغاز والتعمية.....

223.....	باب التصرف
223.....	باب التראה
224.....	باب التسليم
225.....	باب الافتنان
226.....	باب المراجعة
227.....	باب السلب والإيجاب
228.....	باب الإبهام
229.....	باب القول بالموجب
230.....	باب حصر الجزئي وإحاطة بالكلي
231.....	باب المقارنة
233.....	باب المناقضة
234.....	باب الانفصال
235.....	باب الإبداع
237.....	باب حسن الخاتمة
242.....	الفهرس

[To PDF: http://www.al-mostafa.com](http://www.al-mostafa.com)